

اَدَبُ وَتَارِيخِ

تصانيف المؤلف الأخيرة

١ — La Genèse de l'Esprit National Egyptien
par M. Sabry.

كتاب بالفرنسية يقع في ٢٨٨ صفحة من القطع الكبير، ثمنه ١٠ قرشا .

٢ — تاريخ مصر الحديث، من محمد علي الى اليوم :

يستند الى مذكرات الشيخ محمد عبده وأهم الوثائق الرسمية وغير الرسمية .
نقذت الطبعة الأولى من هذا الكتاب وستصدر طبعة جديدة خاصة
للجمهور تشتمل على إضافات كثيرة وفصل جديد في ثورة سنة ١٩١٩

٣ — أدب وتاريخ :

الثن ١٥ قرشا .

تحت الطبع

٤ — القرن الثامن عشر، والثورة الفرنسية، و نابليون :

كتاب يستند الى أحدث أساليب البحث العلمى فى تاريخ ذلك العصر
الكبير الذى قامت على مبادئه العمرانية والسياسية مدنية أوروبا الحديثة .
يقع فى نحو ٣٥٠ صحيفة (خلاف الصور الكثيرة) ،
الثن ٢٠ قرشا .



جميع هذه الكتب مطبوعة على ورق جيد بمطبعة دار الكتب
المصرية وتطلب من المكاتب الشهيرة .

الأدب والتاريخ

تأليف

محمد صمد صابري

الحائز لدرجة بكالوريوس في الآداب مع الشرف من السربون
أستاذ التاريخ الحديث بدار العلوم

(حقوق الطبع محفوظة للمؤلف)

[الطبعة الثانية]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٢٧

كل نسخة غير مختومة بختم المؤلف وغير موقع عليها
بامضاءه بالحبر فوق الختم تعتبر مسروقة ما
الختم والامضاء

صفحة	
١٩٢	الفصل الأول — ايطاليا لغاية مؤتمر فيينا
٢٠٣	الفصل الثاني — الحركات الثورية
٢١٣	الفصل الثالث — مازيني
٢٢٤	الفصل الرابع — المعتدلون
	الباب الثاني — عصر الحروب والاصلاحات (١٨٤٩ — ١٨٧٠):
٢٤١	الفصل الأول — القوى الرئيسية في الحركة
٢٤٦	الفصل الثاني — كافور

الكتاب الرابع

الفصول

٢٦٩	١ — دقات الساعة
٢٧٢	٢ — موابير
٢٨٠	٣ — مصر حيرى
٢٨٥	٤ — الذكريات
٢٨٨	٥ — اسماعيل صبرى
٢٩٣	٦ — يوم شم النسيم
	٧ — خطرات في الطريق :
٢٩٦	(١) الآلام
٣٠١	(٢) بلاغة العرب
٣٠٦	٨ — القديم والجديد
٣١١	٩ — مهزلة في آتم
٣١٦	١٠ — البنون والحياة الدنيا
٣٣٤	١١ — المصرى غريب في بلاده
٣٣٩	١٢ — وفاة كازانوفا

تصدير

هذه كتب وفصول ظهرت في أزمنة مختلفة فُضِمت شتاتها في سفر واحد أقدمه اليوم للقراء ، تنطوي كلها على غرض واحد ، وهي صورة من نفس كاتبها ، مصرية في سميتها ونزعتها .

ولا ريب أننا لم نبلغ بعد في عالم الفكر ما بلغناه في عالم الخيال ، وأن آدابنا القومية لا تزال في نشأتها الأولى ، وما آداب الأمم إلا سنادها .

كان أدباء الألمان ، ومؤرّخوهم ، وفلاسفتهم في بروسيا في القرن الثامن عشر يشيدون بذكر العظمة القومية ، ويتعهدون الشعور الوطني في كتاباتهم ، فلما حاول نابليون إخضاعهم في أوائل القرن التاسع عشر انقلبت الفكرة الكامنة في النفوس ، الفكرة الحية المنتجة وليدة آدابهم القومية ، الى قوة خارجية منظمة انتفضت بفحشاء فأخرجت الأجنبي من الديار ، وأحاطت استقلال بروسيا وعظمة ألمانيا بسياج متين .

ان الآداب القومية الصحيحة ، من تاريخ وبيان وفلسفة ، يجب أن تكون رسول الفكرة الوطنية الى النفوس ، بشرط أن

لا تتبذل في السياسة ، وأن تصون نفسها عن الامتحان وخدمة
الأغراض ، وأن ترقى فيها شهوات العلى ، وأن يتنفس المظلوم
في أفيائها ، وأن تكون له مصدر قوة والهام ، ترده الى العزم اذا
أصابه ضعف أو خور ، وتعصمه باليقين اذا جنح الى اليأس
والاستسلام ، وتتعهد له اذا عز المعين ، وتحدوه في الطريق المأمون
الى غاية المراد البعيد .

وأكبر أمل لصاحب هذا الكتاب أن ينتفع به المتأدبون وأن
يكون حجراً صغيراً في بناء أدبنا القومى .



مقدمة

رسالة من أمير الشعراء

الى المؤلف

سيدي الأستاذ صبرى

أحب بك مهديا ، وأكرم بكتابك هدية ، ولا برحت تواليينا
بالطرف من أدبك ، وتوافينا بالتحف من كتبك ، وجعل الله هذه
الآثار وأمثالها من نتائج القرائح فى مصر نماء وبركة ، فى رأس مال
الأمة ، من حضارة مستقبلية ، ودولة مؤملة ، ومكان بين الممالك
ومنزلة ، فى رأس أموال الأمم إلا وسائل الأدب السليم ، وذرائع
العلم الصحيح ، وكل أدب سليم فهو أدب كل زمان ، وكل علم
صحيح فهو علم كل أوان . سألتنى عن رأيى فى رسالتك الجلييلة فان
كان له من القيمة ما زعمت فهو رأى الغواص فى الجمانه ، والبستانى
فى الريحانة ، والتجرفى معتقة الحانة ، ترجمة كلها حسن وأحسن
ما فيها المترجم ، وتحلية كلها روعة وأروع ما فيها المحلى ، منكوب
كريم اجتمع لشهوات الدهر فيه ما تفرق فى البرامكة من جاه

يطويه ، ونعيم يذويه ، وولد يرديه ، ونور يطفيه ، وحسب وضاح
 يخفيه ، وحكم بالأمس نافذ يحكم فيه . جاورته بجلوان الشهور الطوال
 يشد بيتينا طنب ، وينتظم دارينا جدار ، فإذا الجار كريم ، وإذا
 الشاعر عظيم ، ما سمعته مرة عرض شعره على جلسائه ، ولا رأيت
 إلا سقيما من الحياء كلما عرض شعره عليه . وهكذا كان
 رحمه الله إذا جرى ذكر الحوادث العرابية في مجلسه توارى
 بالاطراق حتى يمسك المتكلم . سأله مرة صبرى باشا : هل له
 مذكرات عن الثورة ؟ فقال لا ، قال : وما منعك ؟ قال علمى بأن
 الغضب في طباعى وخوفى من أن يملكنى عند بعض الذكريات
 فيبغى القلم على الرجال . فقال حامد بك خلوصى وكان ممن ضم
 المجلس ، صدقت ، ألسن القائل (ونغضب في شروى نقير فنشتد)
 فتبسم رحمه الله ثم قال : ولا يغضبني مثل حديث الثورة فلنخض
 في غيره . وعلى ذكر الثورة أقول للأستاذ انه كان له غنى عن الإشارة
 الى مواقف المرحوم البارودى في الحوادث العرابية فان فى ذلك
 من مسابقة التاريخ ما فيه ، ومن سابق التاريخ لم يأمن أن يضل
 الأعقاب ، ويحترق مواضع التبعات من الرقاب .

المخلص

٢ يوليه سنة ١٩٢٣

شوقي

الفصل الأول

تمهيد

البارودى يمثل طور الانتقال أحسن تمثيل بشخصيته البارزة في الشعر، فهو صلة متينة بين شعر العرب القديم والشعر العصرى، وهو محي دولة الشعر بعد العدم، فوجب أن يعنى به المصريون لأنه زعيم النهضة الشعرية الأدبية التى هى مظهر سام من مظاهر النهضة العامة التى نهضتها البلاد فى القرن التاسع عشر.

ولكننا قبل أن نقلب الطرف فى شعر البارودى ونترجم عن الأثر الذى يتركه فى النفس سنقول كلمة إجمالية نحدد بها المراد بالشعر العصرى.

لو تفهمنا بالدقة على حدة معنى كلتا الكلمتين «الشعر العصرى» لتجنبنا سبلا كثيرة ضل فيها اللب والفهم وأخطأ فى سلوكها شعراء كثيرون. الشعر شعور «يشعر» به الفرد فى «عصره» والآن تفصل.

الشعر الذى يصدر عن شعور صادق هو الشعر حقيقة ، هو الشعر المطبوع المنسجم الذى تنعكس فى مرآته ممدورة من حياة الرجل يتجلى فيها طابع خاص ، وكلما كبرت شخصية الشاعر ازدادت اتصالا بعصره ، وقد يمتزج الاثنان امتزاج الروح بالجسد ، ويصبح طابع الشخصية ممثلا للشاعر وعصره معا .

فلا أجل أن يكون الشاعر شاعرا عصريا يجب أن يكون شعره شعرا وأن يكون عصريا ، وانى أضرب مثلا .

يذكر القراء أن شاعرنا حافظ ابراهيم وصف القاطرة فى قصيدة له ميمية فى « رداية الأبطال » فلم يوفق فى هذه القصيدة كما وفق فى كثير من شعره خصوصا فى قصيدته اللامية التى قالها فى نفس الموضوع ، تلك القصيدة التى تجلت فيها شاعرية حافظ واتى يقول فيها .
وكان ناحل جسمها فى ثوبها خاف الخروق يطل من غرابال

ووصف الشاعر الفرنسى " الفرد دى فيني " القاطرة فى أول عهدنا فى قصيدة « بيت الراعى » فلم يوفق والسبب واحد ، ذلك أن الأول كان شاعر بؤس ورقة وألم خفاق فى فضاء لم يألفه وقل أن يألفه الشعر فسقط ، وكان الثانى شاعرا فياسوفا تذوب نفسه أسى على المجتمع البشرى الذى أطال التأمل فيه فهبط بخافة من سماوة الفكر العالى وأخذ يتخوض فى ماء وحل .

^{١٦} ذلك بأن الشعر العصرى ليس معناه وصف المخترعات العصرية من قاطرات وطائرات وما شاكلها — وان كان ذلك لا يمنعه من التعرض لها — فهذا فى الحقيقة تطفل من الشعر على العلم وطرق أبواب ما أغناه عن الوقوف بها طويلا :

قال البارودى :

بزجاجة العينين فهو مصور	طبعته فى لوح الفؤاد مخيلتى
فمن العروق به سلوك تخبر	وسرت بجسمى كهرباء حسنه
فيخالنى طيارة من يبصر	لولا التنفس لاعتلت بى زفرة

أنظر الى هذه الأبيات الثلاثة التى اضطررنا الى ذكرها الآن لأنها جامعة ، تجسد البارودى أشار فى البيت الأول الى آلة التصوير أو « الفتوغرافيا » ، وفى الثانى الى الكهرباء والسلوك ، وفى الثالث الى الطيارة .

خلط الشاعر بين الشعر والعلم ، بين الخيال السامى والماديات ، بين ماء السماء الصافى وماء المستنقع الأجس ، فظهر شعره فى تلك الصورة التى يابها الذوق السليم .

هذه الأبيات ليست من الشعر العصرى فى شىء لأنها ليست من الشعر ، وانى أمقت ذكر المخترعات على هذه الصورة كما أمقت

الصنعة والتكلف والبديع والجناس وكل ما يحول الشعور عن مجراه الطبيعي فلا يلبث أن يتشتت ويحف .

١١ وليس من الشعر العصري في شيء أن يولع بعض شعرائنا المعاصرين ببكاء الأطلال والدمن كما كان يفعل العرب لأنه لا أثر للأطلال والدمن في العصر الحاضر ولا يمكن أن ينم بكاؤها عن شعور صادق .

على أن في ذلك مظهرا من مظاهر التقليد ، والتقليد ممقوت لأن معناه فقدان شخصية الفرد وشخصية العصر ، وهو دليل ضعف ، والحياة قسوة .

والنفس تمل التقليد لأنه عدو الحديد ولكل جديد لذة ، وكلما تعددت المذاهب واختلفت باختلاف العصور كان ذلك دليل نهضة وحياة ، والحياة حركة .

ومن أراد أن يتحقق من ذلك فليقارن بين مذهب العرب ومذهب المولدين ومذهب الأندلسيين ، أو فليقارن بين مذهب الشعراء الفرنسيين في القرن السابع عشر (Ecole Classique) ومذاهبهم العديدة في القرن التاسع عشر ، ثم ليقارن بعد ذلك بين مذهب الشعراء الفرنسيين أو الانجليز في الوقت الحالى وبين مذهب شعرائنا اليوم اذا كان لنا مذهب جديد معين .

لا أريد بذلك الخط من مكانة الشعر العصرى فلست أنكر
مثلا عبقرية شوقي التى تتجلى كالصبح ، ولكن من منا لا يأسى
كلما رأى شاعرا قد وقف جزءا كبيرا من شعره على المديح وسلك
فى ذلك مذهب القدماء .

على أن من حسنات شوقي أنه هجر البكاء على الطلول والمغانى
وبكى على آثار مصر وشاد بذكراها فى قصائد عديدة من عيون
قصائده فأصبح "شاعر الآثار" وكان بذلك مصرى النزعة عصرىا ،
وكان يعبر عن شعور صادق ووطنية عالية ، وكان فى الوقت نفسه
خير ترجمان للنهضة المصرية الحديثة التى تعمل على إحياء مجد
السلف .

ولكننى لا أقصد التكلم عن « عصرية » شوقي أو مطران
أو صبرى أو غيرهم وإنما أردت أن أضرب مثلا ، وأضيف الى
ما تقدم أن الشاعر العصرى حقيقة هو الذى يضطر الناقد الى
ترتيب قصائده عند الحكم عليها ، لا بحسب الأبواب من مديح ونفر
وهجاء كما يفعلون ، بل بحسب تاريخها فهذا هو المقياس الصحيح
الذى يدلنا على مبلغ ارتباط الشعر بحياة الرجل وعصره .

وتلك هي الطريقة التي سنجري عليها في درس البارودي
والبحث عن آثار القديم التي تختلط أحيانا بشعره اختلاط الرغام
بالذهب في معدنه ، وسنبين كيف تمكن البارودي من نظم بعض
قصائد من الشعر النقي الحر كسبائك الذهب المصفى .

ولا ريب أن هذا الشاعر سيكون لنا مثلاً كبيراً نثبت به تلك
الحقيقة التي جهلها إلا كثرون وهي أحسن الشعر أصدقها .

الفصل الثانی

عصر الصـ

صدر من ديوان البارودي جزآن يحتويان على معظم شعره ،
وهما مصدران بمقدمة في حياة الرجل لا تنفع غلة لاسيما اذا تذكرنا
أن حياة هذا الشاعر كانت كبيرة مملوءة بالحوادث والعبر التي
نظمتها يد المقدار صحيفة في تاريخ مصر ، وأن حياته وشعره
يؤلف بينهما نسب صادق فمن أراد حقاً أن يتمتع بذلك الشعر
العذب فليرجع الى الأصل وهو الحياة وليقتطف تلك العناقيد من
كرومها وحسبنا أن نصورهما من عال في لوحة مصغرة .

وسنتكلم في هذا الفصل عن صباه حتى يقارب الأربعين
في آخر حكم اسماعيل ، ثم نتكلم عنه في أطوار حياته الأخرى ،
ابان الثورة العرابية ، في منفاه وفي مصر .

نشأ البارودي في بيت مجد مؤثر ، هو ابن حسن بك حسنى
الذى كان من أمراء المدفعية ثم صار مديراً لدنقله وبربر على عهد

المرحوم محمد علي باشا ، ابن عبد الله بك الجركسي ينتهي نسبه الى
المقام السيفي نوروز الأتابكي أخي برسبای قرا المحمدي .

والترك والجركس هم آخر طبقة من الغرباء وفدوا الى مصر
واتخذوها وطنًا وتوالدوا فيها فأصبحوا « مولدين » ، روى صاحب
الهلال أن البارودي كان شديد الحرص على معرفة نسبه وأنه بذل
نحو ٣٠٠٠ جنيه في سبيل البحث عنه في أنحاء القطر ومراجعة
النصوص وغير ذلك .

ولد صاحب الترجمة بسراي باب الخلق لثلاث بقين من رجب
سنة ١٢٥٥ هجرية ، وفي سنة ١٢٦٢ توفي والده بناحية دنقله وكان
عمره اذ ذاك سبع سنين وفي ذلك يقول لما ناهز العشرين :

لا فارس اليوم يحى السرح بالوادي
طاح الردي بشهاب الحرب والنادي
مات الذي ترهب الأقران صولته
ويتقى بأسه الضرغامه العادي
مضى وخلفني في سنّ سابعة
لا يرهب الخضم إبراق وإرعادي
فان أكن عشت فردا بين أصرتي
فها أنا اليوم فرد بين أندادي

هذا الشعر كما تراه متين محكم النسيج نظمه في سن صغيرة ، فما سر هذه القوة التي تجلت قبل الأوان في عصر مقفر من الشعر الجيد ؟ أهو في تربيته القومية أم في طبعه واستعداده ؟

شرح محمود سامي في سنّ الثامنة يتلقى مبادئ العلم على أساتذة كانت تحضر في منزله ، ودخل في سنة ١٢٦٧ ، أي في سنّ الثانية عشرة ، مدارس الحربية وتخرج منها برتبة باشاويش سنة ١٢٧١ في أوائل تولية سعيد باشا ، وكان عمره اذ ذاك ست عشرة سنة ويقال أنه كان يتعاطى صناعة الشعر في أثناء دراسته .

أما تربيته الأدبية فإليك ما قاله عنه الشيخ حسين المرصفي في "الوسيلة الأدبية" وكان من أعرف الناس به : «محمود سامي البارودي لم يقرأ كتاباً في فن من فنون العربية غير أنه لما بلغ سنّ التعقل وجد من طبعه ميلا الى قراءة الشعر وعمله فكان يستمع بعض من له دراسة وهو يقرأ بعض الدواوين أو يقرأ وهو يحضرته حتى تصور في برهة يسيرة هيآت التراكيب العربية فصار يقرأ ولا يكاد يألحن ... ، ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منها دون كافة واستثبت جميع معانيها ناقدا شريفها من خسيسها ، ثم جاء من صنعة الشعر اللائق بالأمراء» .

لم يكن عصره يساعد على تكوين ملكة البلاغة لأن حامل لواء
الشعر اذ ذاك محمود صفوت الساعاتي الذي أعقب الدرويش ،
حدثني المرحوم حفي بك ناصف مرة أن أجود قصيدة نظمت
في عهد محمد علي هي القصيدة التي مطلعها :

يا آل طه عليكم حلفت حسبت

إن الضعيف على الأجواد شمول

والتي ما زال الى اليوم بعض سكان الريف يحفظونها ، وكان
الليثي والنجاري والابيارى والنديم ورفاعة وأبو النصر وغيرهم من
معاصري الساعاتي مولعين بالبديع محبتين مثل البهاء زهير وابن
خفاجة وغيرهما من المتأخرين الذين ليسوا من حلبة هذا الميدان .

أما فيما يتعلق بالوراثة فقد قال البارودي :

أنا في الشعر عريق لم أرته عن كلاله

كان ابراهيم خالي فيه مشهور المقاله

وسمى جدي علي يطالب النجم فناله

لا أظن أن خال البارودي كان شاعرا يمتاز عن أهل عصره
ولكن لعل البارودي وجد فيه مشجعا على قول الشعر كما وجد
في المعالي التي يفخر بها ، وفي معاهد العز والشباب التي درج فيها .

ولكن كل هذا لا يكفي لأن يبرز شاعر غض الاله اب على
معاصريه ثم يجرى حبسه على غار به حتى يلحق بفحول المتقدمين
قبل أن يطوى برد الشباب .

اذن كان سر قوة هذا الشاعر في طبعه ، وكانت في قرارة
نفسه عين كامنة ما لبثت أن وجدت منفذا ضئيلا فتفجرت بالسحر
الحلال ولم تنضب ، روى الأستاذ خليل مطران في فصل رائع :
« لقد تسامحت يوما بدالة الود فسألته أية حال من أحوال حياتك
كنت فيها أميل الى الشعر وأكثر اشتغالا به فاجابني ان خطرات
الشعر صحتني في أيامي كلها ولم تفارقني إلا في أقالها » .

على أن من يقرأ شعر البارودي يرى ماء الطبع يترقق فيه ،
قال هو عن نفسه في كلمة افتتح بها في ديوانه : « ولقد كنت
في ريعان الفتوة واندفاع القريحة بتيار القوة ألهج به لهج الحمام
بهديله ، وأنس به انس العديل بعديله ، لا تذرعا الى وجه أنتويه ،
ولا تطامعا الى غم أحتويه ، وإنما هي أغراض حركتني وإباء جمح بي
وغرام سال على قلبي فلم أتمالك ان أهبت فحرت به جرسى ،
أو هتفت فسرّيت به عن نفسي » ثم روى بيتين قالهما في هذا المعنى :

تكلمت كالماضين قبلي بما جرت

به عادة الانسان أن يتكلما

فلا يعتمدني بالاساءة غافل
فلا بد لابن الأيك أن يترنما

أجل ، غنى البارودي بالشعر كما يغنى الطائر من غير صنعة
ولا تكلف ، وحركت الأغراض فؤاده في بحر الحياة فأطربنا
بأغانيه ، حتى جاء آخر العمر وأظلمت الدنيا في عينيه بعد فقد
الشباب وفقد الديار .

ولقد خص شاعرنا بالذكور غرضين من الأغراض التي حركته
في شبابه فقال «إياء جمع بي وغرام سال على قلبي» ، أما غرامه
فلا ندرى من أمره شيئاً ، على أن شعره في الغرام قليل ولا أعرف
له إلا قصيدة فذة واحدة في هذا الموضوع ، من خير ما غنى به
شاعر على غصن الغزل المياد :

هل من فتى ينشد قلبي معي	بين خدور العين بالاجرع
كان معي ثم دعاه الهوى	فمر بالحي ولم يرجع
فهمل اذا ناديته باسمه	يفيق من سكرته أوعى

والقصيدة كلها من أرق الشعر وهي تصاح في سماء الأدب
العصرى قصيدة صبرى باشا التي مطلعها :

يالواء الحسن أحزاب الهوى أيقظوا الفتنة في ظل اللواء

ويغلب على ظني أن البارودي قال قصيدته هذه في آخر حياته
لأن عليها مسحة الشعر الذي أنضجه الألم ، ولعله هتف بها
في منفاه ، وفي البيتين الأخيرين منها بعض الدلالة :

فهل الى الأشواق من غاية أم هل الى الأوطان من مرجع
لا تأس يا قلب على ما مضى لا بد للحنّة من مقطع
ومهما كان من الأمر فاني أعتقد أن البارودي كانت في نفسه
مغالبة بين عاطفتي الحب والاباء فتغلب الاباء وجميع به . ولقد
كان الاباء عاملا كبيرا في حياته ، وفي شعره ، دفعه في الحياة الى
سلوك الطريق الوعر المملوء شوكا ليصل الى العز من خلاله ويبلغ
به أبعد غاية ، ثم الى التجلد والصبر عند الشدائد ، ودفعه في شعره
الى الفخر وترك المديح الذي « يتطلع الى غم » وهو رجل ذو مطامع
طموح الى العلياء ، وكأنما نطق الكاظمي بلسانه حين قال :

ما سلونا آرام نجد ولكن شغلتنا العلا عن الآرام

اذا دققنا النظر في مصادر هذا الاباء وجدناها ثلاثة : أولها
أصل البارودي وحسبه ، ثانيها النعرة العربية التي ورثها الشاعر
عن العرب الذين درس شعرهم وأصبح يجاريهم ، ثالثها كبرياء حامل
السيف ، لا سيما أن البارودي كان جنديا كبيرا صعد في درج الترقى

في أيام سعيد واسماعيل وخاض الوقائع ، وكانت له مواقف في حرب
كريد وحرب الروس مع الدولة وصفها وصف مصور .

أما وقد ذكرنا العز الذي خالط إباءه والذي يفوح شعره برياه
فلا يغيب عنا أن البارودي لا تكاد تخلوله قصيدة من ذكر
”روضة المقياس“ أو ”روضة النيل“ والجزيرة ، والشجر ، وغناء
الطيّار ، وقد وصف حديقة جزيرة كريد وحديقة جزيرة سيلان ،
وإننا لا نخالجنا شك في أن البارودي كان في أيام صباه يؤم
كثيرا روضة المقياس والجزيرة ، فانطبعت صورتها في فؤاده
الحساس ، وصار كلما أوحى إليه فؤاده قول الشعر ظهرت هذه
الصورة في ألوان شتى .

وبالجملة فإن طبيعة البارودي في شبابه حرّكته لقول الشعر
والتميز بين أساليب القدماء الذين كان يحفظ من شعرهم كل ما كان
جزلا رصينا ، ثم وجدت تلك الطبيعة في الحياة ما يساعد على تغذيتها
في أطوارها المختلفة فنخرج شعره في صباه متينا رقيق الطواشي .

وقد ثبت لنا أن القصائد التي جارى بها القدماء أمثال
أبي تواس والشريف الرضي والنابغة الذبياني وأبي فراس والطغراني ،
والتي هي من أجود شعره ، هي من شعر الشباب ولكننا لم نهتد إلى
هذه النقطة من الديوان المطبوع الذي جنى عليه شارحه . بل

من الوسيلة الأدبية ، فان الشيخ حسين المرصفي اختار هذه القصائد
 وذكرها في كتابه ، وهو وان لم يكن ذكر تاريخها الا أننا عرفنا أن
 تاريخ ظهور الطبعة الأولى من كتابه كان سنة ١٢٩٦ (لا ١٢٩٢)
 كما ذكر خطأ في أول الكتاب) فتكون جملة القصائد التي نشرت فيه
 ظهرت قبل أن يبلغ البارودي أربعين عاما . وسند ذكر شيئا من
 هذه القصائد التي تنهذى كالعرائس في أبهى حلل ، وليكننا نقرر من
 الآن أن البارودي كان فيها مجاريا لا مقلدا فساقتها حضرية بدوية
 التركيب ، ومهما حشد فيها من ألفاظ وتشبيهات قديمة فان آثار
 التقليد سطحية ، وليست شعري متى كان الصانع المقلد يصل بالشعر
 الى المرتبة العليا التي وصل اليها البارودي

أنظر اليه مثلا كيف وصف حرب جزيرة كريد حين خرجوا
 من طاعة الدولة سنة ١٢٨٢ (١٨٦٥ م) في قصيدة "أخذ الكرى
 بمعاهد الأجفان" التي يقول فيها :

وضعوا السلاح الى الصباح وأقبلوا

يتكلمون بالسن النيران

صوّر البارودي في هذه القصيدة موقفنا له في تلك الحرب
 تصويرا دقيقا كأنه من ريشة مصور ، ومما يزيدنا عجبنا أنه نظمها
 في مئة الصبا اذ كانت سنة وقتئذ ٣٧ عاما .

وقال في موقف آخر :

ولما تداعى القوم واشتبك القنا
ودارت كما تهوى على قطبها الحرب
وزين للناس الفرار من الردى
وماجت صدور الخيل والتهب الضرب
ودارت بنا الأرض الفضاء كأننا
سقيننا بكأس لا يفيق لها شرب
صبرت لها حتى تجلت سماؤها
وانى صبور ان ألم بى الخطب

ولما أعلنت روسيا الدولة العليا بالحرب سنة ١٢٩٤ (١٨٧٧)
ذهب مع الجيش الذى أرسلته الحكومة المصرية لمساعدتها ومما
قاله فى هذه الحرب :

أدور بعينى لا أرى غير أمة
من الروس بالبلقان يخطئها العد
جواث على هام الجبال لغارة
يطير بها ضوء الصباح اذا يبدوا
اذا نحن سرنا صرّح الشر باسمه
وصاح القنا بالموت وأستقتل الجند

ترى من ذلك أن البارودي وصف الحرب عن خبرة وصفها
يتأثر منه القارئ كأن احساسهما مشترك .

ومما قاله في بعض القصائد الأخرى التي أشرنا إليها، وذاع
على كل لسان، وصفه للخمر في القصيدة التي يجارى بها أبا نواس :

صفطاف بها شمسية لهيئة لها عند أبواب الرجال ثؤور
إذا ما شربناها أقمنا مكاننا وظلت بنا الأرض الفضاء تدور
ومنها في وصف الحمام :

نواعم لا يعرفن بؤس معيشة ولا دائرات الدهر كيف تدور
خوارج من أيك دواخل غيره زهاهن ظل سابغ وغدير
إذا غازلتها الشمس رفت كأنما على صفحتها سندس وحرير

أرأيت وصفًا أدق من هذه الأبيات يشف عن قوة الملاحظة
وحسن التخيل ؟

ومنها في الفخر :

وأصبحت محسود الجلال كأننى

على كل نفس في الزمان أمير

إذا صلت كف الدهر من غلوائه

وان قلت غصت بالقلوب صدور

ومن قوله أيضا في الفخر في القصيدة التي يجارى بها
الشريف الرضى :

ومن تكن العلياء همّة نفسه
فكل الذي يلقاه فيها محبب
إذا أنا لم أعط المكارم حقها
فلا عزنى خال ولا ضمنى أب

ومن قوله في قصيدته التي يجارى بها أبا فراس :
وإني امرؤ لولا العوائق أذعنت
لسلطانه البدو المغيرة والحضر
من النفر الغر الذين سـيو فـهم
لها في حواشي كل داجية فجر
إذا آستل منهم سيد غرب سيفه
تفرّعت الأفلاك والتفت الدهر

كل هذا الشعر قاله البارودي في صباه، وكل هذا الشعر يترنم
به أهل العصر فهو إذن من الشعر العصري الحرّ، وهو كما ترى مشرق
الديباجة عليه نضرة ونعيم يدل على اقبال الدنيا، ولكن لا يفتك أن
الأيام دول وأن أواخر أيام اسماعيل التي كانت في الوقت نفسه

أوانحر أيام شباب شاعرنا الذى رضع من ثدى عزه وسلطانه قد
تكدرت بعد صفو وأصاها ازعاج بعد أمن .

جاء فى الديوان ما نصه :

« قال يذم سيرة الحكام ويحرض الناس على طلب العدل
فى الأحكام وذلك فى عهد اسماعيل باشا خديوى مصر » ، جاء
فى هذه القصيدة :

قامت به من رجال السوء طائفة
أدهى على النفس من يؤس على شكل
من كل وغد يكاد الدست يدفعه
بغضا ويلفظه الديوان من ملل
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت
قواعد الملك حتى ظل فى خلل
ومنها :

فبادروا الأمر قبل الفوت وانتزعوا
شكالة الريث فالدنيا مع العجل
وطالبوا بحقوق أصبحت غرضا
لكل منتزع سهمها ومختل

حتى تعود سماء الأمن ضاحية

ويرفل العدل في ضاف من الحلل

هذه القصيدة فيما أعتقد مبدأ الشعر السياسي في العصر الحديث وهي صريحة في وجه الظلم الصارخ، واستنهاض للهمم، وحث على العمل، وتذكير بمجد دارس، وهي وداع للشباب وبالهنية العيش، وإيدان بالدخول في حياة قلق واضطراب، وجد بعد لهو.

على أن فيها معنى آخر، وهو أن الشاعر قد وفق بين الشعر والعمل، بين الحلم والحقيقة فكان طائر النهضة الذي غرد في السحر، وكان ساعد النهضة العامل وإن لم توفقه المقادير.

وسنرى كيف بدأت تتغير روح البارودي في شعره مع تغير الحوادث التي كان يشهدها.

الفصل الثالث

صناعته الشعرية

أبنا في مقال سابق كيف تأتى للبارودى أن يصوغ في صباه قصائد بذبها المتقدمين وكانت حلية في جيد العصر ولكن هناك نقطة لا نرى بدا من الإشارة إليها ، وهى أن شارح ديوان البارودى لم يحن على شعره بشرحه الطويل الفث فحسب ، بل تعدى ذلك الى عدم العناية بنشر الشعر في صورته الأصلية فمسح بعض القصائد الرائعة التى جارى بها البارودى فحول المتقدمين ، وكان من السهل على الشارح أن يتنبه الى هذا الخطأ الذى وقع فيه عفووا لو أنه تفهم شعر البارودى واهتمامه بحسن السبك أو أنه أمعن النظر في القصائد التى نشرها له صاحب الوسيلة .

ومن العجيب حقا أن ينشر المرفعى للبارودى وهو حى في ريعان الشباب نصبا لقصائده أصح بكثير من النص الذى نشر بعد وفاته ، على أننا من جهة أخرى قد أسعدنا الحظ بالوقوع على نصين مختلفين لقصائد أو أبيات معدودة لا نشك أن الثانى منهما

الذي ظهر في ديوانه هو في الحقيقة النص الأول الذي أصلحه
البارودي وصقله بعد إعمال الروية فيه ونقده نقد الصير
في الحاذق .

من المقارنة بين هذين النصين يتبين لنا بعض جمال هذه
الصنعة الشعرية وسرها ، ولقد صدق الأستاذ مصطفى صادق
الرافعي في قوله في المقتطف سنة ١٩٠٥ « لم يكن شاعرنا كامل
التصرف في فنون المعاني وإن كان أشعر من جميع معاصريه بلا مرء
غير أنه أتم ذلك النقص بما أتقن من جمال الصنعة وبديع الرواء ،
أما نمط البارودي في النظم فهو غاية ما دارت له الألسنة ، عذوبة
تكاد ترشف ، وجرالة تلعب بالنفس ، وسلاسة يستريح في ظلها
القلب . وكان يقدم أبا تمام على المتنبي لأن شعر أبي تمام
أجزل وصنعتة أوضح وأتم » .

جاء في القصيدة التي يجارى بها أبا فراس :

أقاموا زمانا ثم بدد شملهم ملول من الأيام شيمته الغدر

وقد روى صاحب الوسيلة البيت على الصورة الآتية :

أقاموا زمانا ثم بدد شملهم أخوفتكات بالكرام اسمه الدهر

فانظر الى الفرق بين الصياغتين وتأمل كيف كان البيت في أول

الأمر كالطائر الذي كسر أحد جناحيه فتعسر عليه النهوض حتى

جاء الشاعر وبذل الشطر الثاني بشطر آخر يتلاءم مع الأول معنى ومبنى ، فان قوله "ملول من الأيام" بعد "ثم بدد شملهم" من أضعف التراكيب وأخسها بخلاف "أخو فتكات بالكرام" فان هذا التركيب جمع بين الجزالة والرقعة اللتين بلغتا منتهاهما في آخر البيت حين فسر شاعرنا الحكاية بقوله : "اسمه الدهر" .

أضف الى ذلك إن حزن الشاعر يتجلى في الشطر الأخير على أولئك "النفر الفر" الذين بدد الزمان شملهم ، وهذا أتم للعنى وأوفى وأكثر اتصالاً بما جاء بعد ذلك :

فلم يبق منهم غير آثار نعمة تضوع برياءها الأحاديث والذكر
وقد تنطق الآثار وهي صوامت ويثنى برياء على الوابل الزهر
ولعل أكبر قصيدة بدلت معالمها وشوّهت هي قصيدته التي جارى بها أبا نواس ، فان الفرق بين الروایتين كبير جداً فنحت المتأدبين على الموازنة بينهما لما في ذلك من فائدة ، واننا لا نشك أن رواية الوسيلة أصح وأبلغ من رواية الديوان ولا نأسف إلا على شطر واحد ذكر في الثانية وسقط من الأولى مع البيت كله وهو :
ونبينا وقع الندى في خميلة لها من نجوم الأخوان ثغور
فان الشطر الأول غاية في الحسن والانسجام ، قال صديق الكاشف حين أنشدته إياه : «هذا شعر» ، وهو ظرف من

الجوهر الرقيق يشف عن ذلك النفس العالى ، وفيه ما يسميه الأفرنج
بالنغم التقليدى (Harmonie imitative) وهو دقة التعبير عن
المعاني بتراكيب وألفاظ وأوزان تجد لها نغما خاصا يحكى تلك المعاني
ويدل عليها . اقرأ ثانية الشطر الذى سبق ذكره :
ونبها . وقع الندى . فى خميلة

ترأ أن الوقوف بعد لفظي "نبها" و "الندى" يجعلك تنس
وقع الندى وهو يهبط على الخميصة من عل . ومن الأبيات التى
بدلت فى هذه القصيدة قول البارودي :

عقدنا جناحي ليلنا بنهارنا وطرنا مع اللذات حيث تطير
فقد جاء فى الديوان :

عقلنا به ما ندم كل صبوة وطرنا مع اللذات حيث تطير

فالشطر الذى رواه المرففى كما ترى ضعيف متكلف فى حين
أن الشطر رواية الديوان من أجود التراكيب وأجملها ، ومعنى البيت
أن الشاعر كان يتمتع بليل جمع فنون اللهو ، وهذا دليل على السرور
الكامل الذى ينسى الإنسان من اللىالى حتى ينهيه وقع الندى
أو هاتف بالسحر وهو لاه منعم ، ومما يزيد من ملاحظة ذلك التصوير
المقابلة بين الشطرين ، فإن الشاعر ذكر فى الشطر الأول أنه
يعقل ما ندم من كل صبوة ثم وصف نفسه بالطائر الحر الذى يطير

في فضاء الازدات حيث تطير، فأنت ترى من جمال المقابلة بين
الضدين ما ترقص له النفس طربا .

وجاء في هذه القصيدة وصف الحمام رواية الديوان :
إذا ضاحكتها الشمس رقت كأنما على صفحتها سندس وحرير
فقد ورد في الوسيلة "غازلتها" بدلا من "ضاحكتها" والأولى
في هذا المقام أدق وأحلى ، وهي كلمة بكر جاء بها وحى الشعر ،
أما كلمة المضاحكة فهي عامة شائعة خالية من الصنعة الشعرية
التي امتاز بها البارودي .

كان شاعرنا يفتش عن الألفاظ الشعرية ، ورب كلمة
مليحة تعدل بيتا بل قصيدة بل ديوانا ، مثل ذلك كلمة "حواشي"
في هذا البيت :

من النفر الغر الذين سيوفهم لها في حواشي كل داجية فجر

ولعل البارودي أغار على الشريف الرضى الذى قال :

نهار بلائلاء السيوف مفضض وجوّ بجمراء الأنايب مذهب .
ترى اليوم محمّر الحواشي كأنما على الجو غرب من دم يتصبب

لم تخرج لفظة الحواشي في بيت الشريف عن كونها لفظة جيدة
من حيث اللغة الشعرية ولكن معناها ضيق محدود ، في حين أنها

في بيت البارودي جيدة من حيث الصنعة الشعرية العالية ومعناها
واسع غير محدود، وكلما تأملت فيها حملتك على جناحيها في فضاء
الفكر والخيال .

وقد أغار البارودي سهوا على شطر كامل لأعرابي كان سائحا
فبلغه أن امرأته تزوجت فقال من أبيات :

أتاني بظهر الغيب أن قد تزوجت فظلت بي الأرض الفضاء تدور
ووصف شاعرنا الخمر فقال :

إذا ما شربناها أقننا مكاننا وظلت بنا الأرض الفضاء تدور

ولكن البارودي أحسن الأخذ وصار أحق بالمعنى من صاحبه .

هذه أمثلة علنا نكون اهتدينا بها الى بعض أسرار تلك الصناعة ،

وفي اعتقادي أن البارودي جمع في أسلوبه بين الرقة والمتانة ، والدقة

والجزالة ، والبداوة والحضارة ، بخاء شعره مصقول الديباجة كالمرمر

المسنون يمت بنسب الى البحتري ، وكلاهما لا يشق له غبار .

الفصل الرابع

الثورة العرابية

انتقل البارودى من صباه الى كهولته تحت لواء الثورة حتى
أسلمته الى منفاه وهجم هجوع الليث بعد أن كانت له على أعدائه
دولة وصوله .

ولسنا نريد اليوم أن نفصل حوادث الثورة العرابية وأسبابها
ونتأججها فهذا بحث تاريخى مستقل نرجئه الى حين ، ونكتفى الآن
بقول كلمة إجمالية عن الثورة وشرح الدور الذى لعبه البارودى فيها .
أجمع أكثر المؤرخين على القول بأن الثورة العرابية كانت ثورة
وطنية مصرية ترجع أسبابها الى الظلم الذى أخنى على البلاد فى أيام
اسماعيل ، والى تدخل انجلترا وفرنسا فى فروع الادارة المصرية تمهيدا
للاحتلال الشائى الذى تفرّدت به انجلترا فيما بعد تحت ستار الثورة
التي كانت تعمل فى الحقيقة على إزالة أسبابه واجتثاث أصوله .

بدأ أحرار المصريين فى أواخر حكم اسماعيل وأوائل حكم
توفيق يطلبون صراحة العدل والدستور لخلاص البلاد مما هى فيه ،

وانضم البارودي من أول الأمر الى زعماء الحركة وكان من مشجعيها سرا . روى المرحوم عرابي باشا في مذكراته أنه في سنة ١٨٧٩ على أثر حادثة المالية التي دبرها استماعيل وأراد أن يلصق تبعثها بمحمد بك النادي ، وعلى الروبي ، وأحمد عرابي دعاهم رئيس التشريفات عبد القادر باشا حامى فتفاهموا معه ثم دعاهم محمود باشا البارودي وكان وقتئذ مأمور الضبطية فصار حوه القول ، وهنا قال عرابي بالنص عن محمود سامي : « وآنت فيه تأففا من الظلم وميلا الى العدل والدستور » .

أجل ، كانت هذه النفس الأبية تكره الظلم وتأبى الصبر على الهوان ، ولقد أشرنا في مقال سابق الى القصيدة التي شكافها ظلم الحكام . ولما صعد الأمير محمد توفيق الى العرش هناك بقصيدة قال فيها :

أمران ما اجتماعا لقائد أمة إلا جنى بهما ثمار السؤدد
جمع يكون الأمر فيما بينهم شورى وجند للعدو بمرصده

أراد « بالجمع » مجلس النواب و « بالجند » الجيش — وهذا واضح — فانظر الى شجاعة الشاعر وإخلاصه لوطنه كيف دفعاه في ذلك الزمن غير المأمون الى المجاهرة بتلك الحقيقة الكبرى وسط التهينة والمديح ، والبارودي هو خير من نلخص أغراض العرابيين

فى بيت من الشعر ، وهل هناك دواء أنجع من مجلس يحكم البلاد
وجيش يحميها ؟ وهل هناك وسيلتان أخريان لتحقيق ثورة الإصلاح
التي كانت البلاد بحاجة اليها ؟

عين الخديو توفيق فى أوائل حكمه محمود سامى وزيرا
للأوقاف المصرية فسعى جهده فى إصلاحهما ، ويقال انه كان فى ذلك
الوقت يشجع الحزب الوطنى سرا مع أن القوى العاملة لهذا الحزب
كانت فى الجيش حيث استحكم العداء بين المصريين والعنصر التركى
الشركسى الذى ينتمى اليه البارودى ، وهذا يدل على حب العدل
الذى بنى عليه لاسيما وأنه من عائلة قديمة فى الديار المصرية .

ولما حدثت المظاهرة العسكرية الأولى ضد عثمان رفقى
الشركسى ناظر الجهادية وطالب عرابى من الخديو توفيق عزله
أجابه الخديو الى طلبه وأحال هذه النظارة الى محمود سامى الذى
أصبح ناظر الجهادية والأوقاف معا .

روى محمود باشا فهمى المهندس فى كتاب "البحر الزاخر" أن
عرابى وعلى فهمى وعبد العال « اعتبروا إجابة طلبهم مكيدة بهم
من الحكومة لتسكين جاشهم ثم تحتال عليهم وتغتالهم وما كانوا
يعتقدون فيما يعظهم به محمود سامى من الأقوال وتمهيد الأحوال

واضطرب حالهم وشرعوا في عقد مجالس سرية واحتفالات وجمعيات ليلية .

اعتقد أن محمود فهمي لم يقل في هذا الموطن إلا حقاً . ويجب علينا من الآن أن نبين الصفة البارزة في خلق البارودي وهي الاعتدال ، وإن كان المعتدل قد يتطرف أو يتهور في بعض أزمان الثورة ، وأريد بالاعتدال هذا الخلق الهادئ الذي يجمع بين الرزانة والروية والحنكة . ولقد جمع البارودي بين الاعتدال والذكاء ، وكان أنبه العربيين فاشترك في الحركة ولم يبرز حامله . ولم يلعب فيها دور شاعر وإنما قال فيها الشعر منفرداً قول بك على فنن في غسق الدجى بعد أن غرد في فجر النهضة تغريدة أو تغريدتين . ولم يلعب دور زعيم يخطب في الجماهير ، وإنما كان رجل وزارة وسياسة يرقب الحوادث من كذب ويعمل على سياستها حتى إذا رآها جمحت بالبلاد مولية انزوى في ضيعته وكان أقلهم تبعه .

اجتهد البارودي في إصلاح « الجهادية » المختلطة فطلب إلى رئيس الوزارة رياض باشا زيادة مرتبات الضباط والعساكر وتعديل النظمات والقوانين العسكرية ، وقع الخديوى توفيق على هذا الطلب في ١٢ أبريل سنة ١٨٨١ ففرح الناس وأقام محمود

سامى احتفالا دعا اليه النظار والمفتشين وكان يوما عظيما خطب فيه رياض ومحمود سامى وأحمد عرابى وأثنوا على الخديوى .

وفى ٢٥ يولييه من هذه السنة بينما كان الخديوى مصيفا فى الاسكندرية صدمت عربة أحد التجار جنديا فقتل لساعته فحمله رفقاؤه الى سراى رأس التين وطلبوا الى الخديوى النظر فى أمره فهاجه ذلك وأمر بعقد مجلس حربى حكم عليهم بالأشغال الشاقة أو بالنفى الى السودان فشكا عبد العال حلى أميرالاي السودانية من قسوة الحكم وعرض محمود سامى تلك الشكوى على الخديوى فشئق ذلك عليه واعتقد أن محمود سامى كان يعمل باتفاق مع العرابين فدعا فى الحال النظار من القاهرة الى الاسكندرية وقدم البارودى استعفاه وعين مكانه داود يكن ابن عم الخديوى .

والراجح أن الذى دفع محمود سامى الى عرض هذه الشكوى هو اعتقاده عدالتها ولكن يظهر أن ذوى الأغراض ألقوا من الدسائس فى حقه عند الخديوى ، أشار الى ذلك بقوله :

نقموا على حميتى فتألبوا	حزبا على وأجمعوا ما أجمعوا
وسعوا بفريتهم فلما صادفوا	سمعا يميل الى الملام توسعوا
لا عيب فى سوى حمية ماجد	والسيف يغلبه المضاء فيقطع

ويقال إن هذا مبدأ العداوة بين الخديوى ومحمود سامي
ومبدأ التحالف بين عرابى ومحمود سامي .

ثم عاد النظر الى القاهرة وانتظمت الأمور فى الظاهر ،
وعاد اليها الخديوى فى شهر سبتمبر وسرعان ما أصدر داود يكن
أمرا الى آلاى القلعة بالتوجه الى الاسكندرية وآلاى الاسكندرية
بالحضور الى العاصمة فتوجس عرابى خيفة وفهم أن المقصود
تفريق كلمتهم هو وأعوانه . روى محمود فهمى بالنس : « لما
استغنى محمود سامي من نظارة الجهادية وتوجه الى منزله فى القاهرة
توجه اليه أحمد عرابى سرا فى الليل وتعاهد معه على مساعدته
ومعاضدته ، هذا قول عرابى لى وإلا فأنا ما كنت أعرف هذا ،
ولما استوثق عرابى من معاضدة محمود سامي له ، عاد الى منزله
وتوجه فى صباح ثانى يوم الى العباسية وأتى اليه طلبة عصمت
يبحث له ما وقع فيه فخاطب فى الحال عرابى الآلايات فى كونهم
يستعدون للحضور فى ميدان عابدين » .

هذه الرواية من الأهمية بمكان لأن هذه الفترة أول عصر
الثورة ولا بد أن يكون عرابى قد استوثق أولا من تأييد محمود
سامي وبعض كبار الوطنيين له قبل كتابته الى الخديوى والى نظارة
الجهادية يخبرهم « ان الجيش سيحضر الى سراى عابدين بخصوص

طلبات عادلة تتعلق باصلاح البلاد» فان هذه الطلبات أصبحت قومية لا محدودة كما كان الأمر من قبل، لذلك لقيت تأييدا من الشعب وبدأت الثورة التي ترمى الى الاصلاح العام .

اجتمعت الآلايات في عابدين، كما هو معلوم، في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ وطلب عرابي باسم الجيش الذى هو قوة الأمة التنفيذية « إسقاط الوزارة وتشكيل مجلس نواب وزيادة عدد الجيش » فتردد الحديوى ثم عين شريفا رئيس الوزارة مكان رياض الذى كان مكروها ، ولم يقبل شريف إلا بعد أن تعهد له رؤساء الحزب العسكرى باطاعة أواسره وقدم له عمدة البلاد ضمانا، ولما دعى محمود سامى لتقلد وزارة الجهادية أجاب « بأنه عقد النية على أن لا يتقلد خدمة من خدمات الحكومة ما دام لرجال العسكرية سلطان يعلو سلطان القانون» ولكنه قبل بعد إلحاح .

وقد اطلعنا على أوراق للرحوم الشيخ محمد عبده يعجب فيها من خطة شريف « الذى كان من مدبرى الحركة » ولا شك أن القارئ يعجب أيضا من خطة محمود سامى المتناقضة فى الظاهر، وأغلب ظنى أن هذين الوزيرين، لاسيما محمود سامى، من المعتدلين الذين يعملون لمصلحة بلادهم ولكنهم يخشون دائما أن تغل يدهم سكرة العسكر أو أن تخرج الثورة من دائرتها السلمية القانونية فى ظروف

دقيقة للغاية فيجد الخصم وسيلة للقضاء على نجاحها المبدئي خصوصا وأن المطالب الأساسية كانت أجيبت أو كادت ، وباستغلالها في الدائرة القانونية يمكن الاحتيال والوصول الى أبعد غاية : كان ماناف بطل البندقية وحاميها في الثورة الايطالية من أكبر أنصار هذه الفكرة .

وهذا هو السبب الذي من أجله ألح شريف ومحمود سامي على عرابي في السفر بالآلية الى رأس الوادي في مديرية الشرقية وعلى عبد العال حامى الى دمياط . ومن حسنات عرابي أنه أبى ان ينتقل قبل أن يصدر أمر بتشكيل مجلس النواب ، وكلن الاحتفال بتوذيعة فاتحة المظاهرات والاتصال بين عرابي والجمهور ، واشترك الجمهور في الثورة اشتراكا فعليا .

ولكن عرابي بعد استقراره في رأس الوادي شرع يتحول في أنحاء المديرية ويخطب فيها فدعاه محمود سامي وجعله وكيلا لنظارة الجهادية .

وفي ٢٢ سبتمبر وافق الخديوى على القوانين العسكرية وفى ٤ أكتوبر اعتمد لأئحة مجلس النواب الذى تم انتخاب أعضائه فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ وكان مؤلفا من اثنين وثمانين عضوا تحت رئاسة سلطان باشا ، وكان من الممكن

أن تسير الأمور بانتظام لو لم يكن أعداؤنا بمرصد يدسون بين هذا وذاك ، ويحرضون هذا على ذاك ، ويحركون المطامع والشهوات حتى وجدوا بفضل داء الشخصيات الذى ينغل فى جسم الأمة فرجة توصلوا بها الى كبد البلاد فطعنوها فى الصميم .

وما وافق الحديوى توفيق من مبدأ الحركة الى منتهاها على جميع الاجراءات والمطالب إلا مكرها . كان للسراى حزب ، وكان العرابيون منقسمين الى متطرفين أمثال عرابى وطلبة وعبد العال وعبد الله نديم ، ومعتدلين أمثال عبد السلام المويلحى ومحمود سامى ، وشريف وغيرهم ، لذلك كان الخصم آمنا مطمئنا لم يزججه انعقاد مجلس النواب لعلمه أن فرص الخلاف كثيرة وأنه سيعرف كيف يخلقها ويستفيد منها ويحول بين المصريين وبين التمتع بمجلس النواب الذى هو عمود الثورة السامية المنظمة .

أرسلت إنجلترا وفرنسا فى ٧ يناير سنة ١٨٨٣ مذكرة ثنائية الى الحديوى تقولان فيها «أنهما موطنانه ومثبثانه على الأريكة الحديوية» فوقعت هذه المذكرة فى القاهرة ، كما قال السير مولى ، كالقنبلة ، وكان الغرض منها خالق الفتن وتهيئة جو صالح للتدخل . وكان شريف باشا قدّم فى ٣ يناير سنة ١٨٨٣ الى مجلس النواب اللائحة الأساسية الجديدة التى أعدها له ، وبعد فحصها وقع

الخلاف بين النواب والنظار بشأن المواد المتعلقة بالميزانية وكان سلطان باشا وبعض النواب يؤيدون شريف فتاح وكيلا فرنسا وانجلترا معارضين فى حق مجلس النواب فى تقرير الميزانية فكان تدخلهما مثيرا للشكوك داعيا لاستحكام الخلاف ، وانتهى الأمر باستعفاء شريف باشا وتأليف وزارة برئاسة محمود سامى البارودى ، وتعيين أحمد عرابى وزيرا للجهادية فسر الحزب الوطنى بهذا الانتصار ووردت التهنئات من كل صوب ، واعتبرت هذه أول وزارة وطنية مصرية ينتمى رئيسها الى حزب الثورة .

ملك محمود سامى وقتئذ أعناق المطالب وكان ممثلا على عرش القلوب ، وكان فى بيته كوكب سعد ولكن الدهر ما لبث أن أطلع فى جوانبه للنمى خمساً . على أن شاعرنا وهو البصير الهادئ الذكاء لم يكن ممن يلهيه سكر الانتصار عن الحقائق الراهنة ، واليك الدليل :

فى يوم الأربعاء ٨ فبراير ذهب محمود سامى الى مجلس النواب ومعه اللائحة بعد أن وافق عليها مجلس النظار فقبول بالشكر والتبجيل ، ثم وقف محمود سامى خطيبا فى المجلس فقال :

«أيها السادة النواب إننى سعيد الطالع بحضورى بينكم حاملا الى حضراتكم القانون الأساسى

«إلا أننى أعلم كما تعلمون أن مجرد وضع القانون على أصول الحرية وقواعد العدالة لا يكفى فى وصولنا الى الغاية المقصودة من اجتماع حضراتكم بل لا بد أن ينضم الى ذلك خلوص النية من كل واحد منكم فى المحافظة على حدود هذا القانون ودقة النظر فى الوقوف عندها بحيث تكون جميع الأعمال والأفكار منحصرة فى دوائرها . وقد قال عقلاء السياسيين ان الوصول الى هذا النوع من الكمال أعنى حصر جزئيات الأعمال ووكلياتها فى دائرة القانون إنما ينال بعد العناء وطول التجارب ولكنى لا أعد هذا صعبا عليكم .

«وفى أملى أنكم ستحققون ما يظنّ أحباء البلد فيكم عندما تبدئون فى الأعمال المهمة التى تهياكم الآن لمباشرتها بأن تستعملوا صادق النظر للوقوف على مافيه خير بلادكم وتوجهوا الى ذلك ماضى الهمم حتى لا يضيع الزمن الطويل فى الحصول على فائدة قليلة وهذا لا يكون إلا بتخليص الأفكار وتمحيص الطوايا من شوائب النزعات الشخصية بأن نجعل الأعمال وقفا على المصالح العمومية التى نفعها فى الحقيقة عائد عليكم وعلى أبنائكم .

«إن التفات النظر الى الخصوصيات يبعث فى القلوب محاسنات ومناظرات تحمل على الخلاف الدائم وانكم تعلمون أن الذين رقوا الى ذروة العز وأوج الشرف لم ينالوا ذلك إلا باخلاصهم

في طلب النفع العام فاعترف العالم بفضلهم وأجلتهم القلوب وأحلتهم
أعلى المنازل فثبتوا في مكانهم ما داموا بحلية الاخلاص . »

ثم ختم قائلا : « وآخر ما نتواصى به أن لا نجعل للتعصب
المشربي دخلا في الأعمال الوطنية التي كلفتكم البلاد أن تقوموا
بأدائها وأن تكون الوطنية الحقيقية هي الباعث القوي على كل فكر
والغاية القصوى من كل قول وعمل » .

هذه خطبة أخلق بها أن تكتب بماء الذهب فهي صحيحة
إخلاص في ساعة الخطر تشف عن جوى باطن وداء دخيل .

وسرعان ما سعت إنجلترا وفرنسا في خلق الارتباك وتعميد
الأمور للقضاء على الثورة والاستيلاء على مصر .

بلغ عرابي أن طائفة من ضباط الشركس يعملون على الكيد
له فعمد مجلسا حربيا وقرّر نفهم الى الأقطار السودانية فعارض
الحديوى وتصلب عرابي وكان هذا مبدأ دخول الثورة السلمية
في طريق العنف والارتباك والاضطراب التي لعبت إنجلترا تحت
ستارها دورا كبيرا ختمته بمأساة الاسكندرية : وسعت إنجلترا
الحلاف بين الحديوى والعرابين فدعا الحديوى قنصلى إنجلترا
وفرنسا وقال لهما ان حياة الأوربيين في خطر فانزعج القنصلان وذهبا

الى رئيس الوزارة محمود سامى وناظر الحربية أحمد عرابى فأكد
لها أن لا خوف من ذلك .

فى هذه الساعة انفلت « عيار » الثورة وجمحت الحوادث
عجلى ، وكثرت الجاس الليلية والاجتماعات وظن الناس الظنون .
وبينما كان بعضهم يعمل على رقع الحرق قبل أن يتسع وردت
أنباء مجيء الأساطيل الى المياه المصرية ، وإرسال الدولتين بلاغا
أنحر بالاتحاد مع سلطان باشا رئيس مجلس النواب ، تطلبان فيه
إسقاط الوزارة وإخراج عرابى من القطر المصرى فلم تقبله الوزارة
وقبله الخديوى الذى كان جل اعتماده على إنجلترا ، وبناء عليه
استعفت الوزارة ، وكان ذلك فى ٢٦ مايو سنة ١٨٨٣

يظهر أن محمود سامى أحس وقتئذ الخطر الذى يهدد البلاد
وعجزه عن تقويم الأمور فعاد الى ضيعته وبقى فيها حتى دعاه عرابى
الى قيادة فرقة الصالحية فى الحرب التى أرغمت إنجلترا البلاد عليها .
ولا ريب أن البارودى رجع الى مزارعه مترع القلب بالأسى ،
فلما رأى خلاء ومنظرا هتف بالشعر ليسرى عن نفسه . ولعله
نظم فى هذه الفترة القصيدة التى نقتطف منها ما يأتى :

كنا نود انقلابا نستريح به

حتى اذا تم ساءتنا مصائره

فالقلب مضطرب فيما يحاوله
 والعقل مختبل مما يحاذره
 ان دام هذا أضاع الرشد كافله
 فيما أرى وأطاع الغنى زاجره
 تنكرت مصر بعد العرف واضطربت
 قواعد الملك حتى ريع طائره
 فأهمل الأرض جرى الظلم حارثها
 واسترجع المال خوف العدم تاجره
 واستحكم الهول حتى ما يبيت قتي
 في جوشن الليل إلا وهو ساهره
 انى أرى أنفسا ضاقت بما حملت
 وسوف يشهر حد السيف ساهره
 شهران أو بعض شهران هي احتدمت
 وفي الحديدين ما تغنى فواقره
 فان أصبت فعن رأى ملكك به
 علم الغيوب ورأى المرء ناظره
 كان الرومان يسمون الشاعر (Vates) وهو الذى يملك بالرأى
 علم الغيوب ، وقد يتفق ذلك كثيرا للشعراء لما امتازوا به من

فطنة والهام ، وهذا ما حدث للبارودى فانه كان ينصح مواطنيه بالعمل على اجتناب الحرب وان كان يعلم علم اليقين ان البلاد مدفوعة اليها وانه لاينفع الحذر، وقد أجاد البارودى فى البيت الثانى تصوير هذه الحالة النفسية كما أجاد تصوير نفسيته حين جاءه وهو فى سيلان خبر العفو عنه فقال :

أحس فى قلبى ديب المنى والمح الشبهة فى خاطرى
 هذان البيتان من أدق الشعر، وهما خير ماء تنحدر من غمام واحد .
 ثم انظر من أى بحر يغترف حين يقول بعد انتهاء الحرب وان كان الديوان خلوا من أية اشارة الى موضوع الأبيات :

نصحت فكذبتم فلما أتى الردى عمدا تم لتصديقى وقد قضى الأمر
 فلم يبق فى ايديكم غير حسرة ولم يبق منى غير ما عافه الصدر
 فجاء الذى كنتم تخافون شره وزال الذى لم يبق من بعده شعر

هذا شعر ينضح بمرارة العيش التى يقاسمها مغترب فى منفى بعد أن قضى الأمر وضاعت الديار، ومن كياسة البارودى وصدق وطنيته أنه لم يطعن الثورة فى ظهورها بعد فشلها كما فعل الكثيرون ، ولم يأس على المال ومتاع الدنيا وظل كريم العنصر :

لم أقترف زلة تقضى على بما
 أصبحت فيه فماذا الويل والحرب

فهـل دفاعي عن ديني وعن وطني
 ذنب أدان به ظلما واغترب
 فلا يظن بي الحساد مندمة
 فاني صابر في الله محتسب
 أثريت مجدا فلم أعبأ بما سلبت
 أيدي الحوادث مني فهو مكتسب
 لا يخفض البؤس نفسا وهي عالية

ولا يشيد بذكر الخامل الذئب
 ألسـت تحس كأن هذا الشعر من قول المتنبي أو أبي الملاء
 وأن روح الشاعر «تطورت» في كهواته ، ثم انظر الى الحكمة في شعر
 صباه وقد كانت بنت الذكاء والتحصيل ، وانظر اليها الآن وقد
 شيب الدهر فوديتها وصارت بنت التجارب والألم .

فانت ترى من كل ما تقدم أن البارودي لعب في الثورة العرابية
 دورا كبيرا تصحبه الحكمة والاعتدال في معظم أطوارها ، وترك
 حبلها على غاربها حين أحس ريحا عاتية تسوق البلاد الى الحرب ،
 ثم رجع الى الصف فكم توفقه المقادير ، وذهب الى منفاه الذي
 جمع الأسى واقتدح زناد فكره فقال شعرا كثيرا أعاد به الى البلاد
 عصر الأدب الأزهر .

الفصل الخامس

المنفى

أرأيت مخضرا من الروض كان مسرحا للشباب ترف عليه
الغضارة والنضارة ، وكان ساكنوه يقامرون الدهر فوق ذلك
البساط الأخضر ، والدهر يلهمهم بعاجل الربح عن آجل الخسران ،
حتى قمرهم بجلاء ، ودالت دولة السرور ، وهبت النكباء ، وغاض
ماء النعيم ، وطوى البساط ، وخرج كل منهم خاشعا وسليبا .
كان محمود سامي من أولئك النفوس الذين تبسطوا على لذات
الشباب زمانا بين الجزيرة والروضة ، وذاقوا حلاوة المجد وهم في ضحوة
العمر ، ثم دفعهم الطماح فقدّموا الراحة والرفه والثروة والجاه مهرا
للحرية والعلياء .

أجل ، فقد محمود سامي كل شيء إلا الشرف والكبرياء ،
ومكث في منفاه سبعة عشر عاما كاملة أفنى فيها كهولته بين تباريح
وعبرات ولوعة وحنين .

نكب في الثورة حين ختله الدهر وألقى ورقة رابحة اجتاحت
المال والبلاد فكانت كهولته كلها ليلة داجية ، وكان كليل

الظلماء يردف تغريدا بتغريد ، ويقول شعرا هو أنس المحزون ، وعزاء
الشكى ، وسلاوة العاشق ، شعرا يلهم الصبر على المكاره ، والجلد على
الشدائد ، والأمل في الله . وهو القائل :

فان أكن جردت من ثروتي ففضل ربي حلية العاقل

ولقد كانت الأيام التي ختمت بها الثورة وسبقت منفاه مأساة
تتصدع منها كبداية الحر مملوءة بالذكريات المحزنات التي تهيج في سماء
الفكر كأنها أغربة سحيم .

وحسبك أن تذكر أن بعض المصريين رحبوا جهلا أو انخداعا
«بدخول الفاتحين» ، وأن حب الانتقام دفع بعض الكبراء الى
ارسال الخدم الشرکس وغيرهم ليهينوا ويزعجوا زعماء الثورة في سجونهم
صباح مساء ، ولعل البارودي أشار الى ذلك في قوله وهو بمنفاه :

وما أنا بالمغلوب دون هرامه ولكنه قد يخذل المرء جهده
أبى الدهر إلا أن يسود وضعفه ويملك أعناق المطالب وغده
تداعت لدرك الثأر فينا ثعاله ونامت على طول الوتيرة أسده

وكان حكم على رؤساء الثورة بالاعدام فقيض الله لهم بلنت الذي
أرسل برودى ونابير للدفاع عنهم فاستبدل بالحكم في ٣ ديسمبر
سنة ١٨٨٢ النفي المؤبد .

ولا أخاله إلا مشيرا الى ذلك بهذين البيتين المنفردين اللذين
يقومان مقام لوحة مصورة :

ألا قل لقوم شامتين تربصوا تهزم شر بالمنيسة كارث
أرى سترخطب قد ترفع وانبرت تلوح لهم منه وجوه الحوادث

وفي ٢٨ ديسمبر رحل قاصدا سيلان ، ومعه صحبه ، فدخلوا
ميناءها كولومبو في ١٠ يناير سنة ١٨٨٣ ، وهناك أقاموا بعد أن
سليخ من العمر خمسة وأربعين عاما ، وقد وصف شاعرنا الفراق
بقصيدة أحلى من تعريسة الفجر ، قال :

محا البين ما أبقيت عيون المها مني
فشبت ولم أقض اللبانة من سنى
عناء وياس واشتياق وغربة
ألا شد ما ألقاه فى الدهر من غبن
فان أك فارقت الديار فلى بها
فؤاد أضلته عيون المها عنى
بعثت به يوم النوى إثر لحظة
فاوقعه المقدار فى شرك الحسن
فهل من فتى فى الدهر يجمع بيننا
فليس كلانا عن أخيه بمستغن

ولما وقفنا للسوداع وأسبلت
 مدامعنا فوق الترائب كالمرز
 أهبت بصبري أن يعود فعزني
 وناديت حلمي أن يثوب فلم يغن
 وما هي إلا خطرة ثم أقلعت
 بنا عن شطوط الحى أجنحة السفن
 فكم مهجة من زفرة الوجد في لظى
 وكم مقالة من غزرة الدمع في دجن
 وما كنت جربت النوى قبل هذه
 فلما دهنتي كدت أقضى من الحزن
 ولما كنت راجعت حلمي وردني
 إلى الحزم رأى لا يحوم على أفن
 ولولا بنيات وشيب عواطل
 لما قرعت نفسي على فائت سنى

هذا شعر يمتزج بالروح رقة ، وعندى أن أجود قصائد
 البارودي ثلاث : هذه القصيدة التي أخلق بها أن تسمى قصيدة
 ”عما البين“ كما يقولون ”قفانبك“ و”خفف الوطء“ وقصيدته

الغزلية «هل من فتى ينشد قلبي معي» ، وقصيدته التي قالها
في الجزيرة بعد عودته من منفاه :

هل بالحمى عن سرير الملك من يزع

هيات قد ذهب المتبوع والتبع

ومن العجيب أنك لا تجد في هذه القصائد معنى جديدا
ولا أثرا من آثار المبالغة والغلو، وإنما هي عرائس مجلوة وسمها الله
بميسم الجمال فغنيت عن التزييق الكاذب ، إنما هي تصوير
حالات نفسية ، ووجدان ، وعواطف قد يخيّل اليك لأقل وهلة
أنه خال من الدقة وأنه من «فرشة» المصور لا من ريشته . ولكن
حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق فان هذا الشعر الحى من التصوير
الصادق الذى يلعب بالنفس ويدخل على القلب بلا استئذان .

كلنا يعرف قول المرحوم اسماعيل باشا صبرى فى الفراق :

هل عند ذاك السرب أنا بعده فى الحى من آماقنا نتدفق
أطرب كما قد لهذا البيت لأن فيه معنى جديدا ، وهو من
الغلو المستعذب ، ولكنى لا أتذوقه لأنه لا يحرك عاطفتى ، ولأنه
يخاطب العقل قبل القلب .

ولقد كان فراق البارودى مظلما ، وكان منفاه مظلما اذ نعى اليه
زوجه وأصدقائه واحدا بعد واحد ، ورأى الشقاق دب بين رؤساء

الثورة في المنفى فغادرهم عام ١٨٩٠ الى مدينة كندى في جزيرة سرنديب (سيلان)، وكان هذه الظلمة وقفت في عينيه هناك وتجمدت فانقلب حسير الطرف في أواخر سنى منفاه، ثم عاد الى مصر ففقد ابنتيه، فialها ظلمة أخذت تنزل في عينيه شيئاً فشيئاً من أول كهولته نزول الليل في الدوة العميقة حتى اتصلت بظلام القبر.

وقد ماتت حليلته سنة ١٣٠٢ هـ أو سنة ١٨٨٥ م فرثاها

بقصيدة من أجود شعره جاء فيها :

لا لوعتى تدع الفؤاد ولا يدي	تقوى على رد الحبيب الغادى
يادهر فيم فجعتنى بحليلة	كانت خلاصة عدتى وعتادى
ان كنت لم ترحم ضناى لبعدها	أفلا رحمت من الأسى أولادى
ومن البلية أن يسام أخو الأسى	رعى التجالد وهو غير جماد
هيهات بعدك أن تقر جوانحى	أسفا لبعذك أو يلين مهادى
ولمى عليك مصاحب لمسيرتى	والدمع فيك ملازم لو سادى
فاذا انتهت فأنت أول ذكرتى	واذا أويت فأنت آخر زادى

هذه القصيدة من النوع الذى يسميه الافرنج (Poices intime)

وهو شعر الحياة المنزلية الباطنة، وإن اشارة البارودى الى الدمع الذى سيلازم وسادته بعد فرقتهما لأفضل عندى على بساطتها من ذلك الجبال وكسوف الشمس جزعا !

نظم البارودى أكثر شعر المنفى فى مدينة كندى حيث أقام عشرة أعوام ووجد منظرا طبيعيا من أبهى مناظر الدنيا . وصف المرحوم عراقى باشا فى مذكراته هذه المدينة ، قال : «وفى سنة ١٨٩٢ انتقلنا الى مدينة كندى عاصمة جزيرة سيلان للاقامة فيها حيث وجدنا مناخها فى زمن الربيع جميلا ، وكان قد سبقنا اليها بالاقامة محمود باشا سامى ويعقوب باشا سامى وطلبه باشا عصمت .

«ومدينة كندى كائنة فى وادى ثلاث شعب بين ثلاثة جبال ، وفيها بيت للحاكم ومحكمة نظامية فى بيت ملوك الشنجلين ، وفيها بركة عظيمة طوطا ميل وعرضها من ٢٠٠ الى ٤٠٠ متر تنصب فيها مجارى السيل من رؤس الجبال ، وعليها حاجز من الشمال وقنطرة بباب لصرف المياه الزائدة عن منسوبها ، وعلى حافتها أشجار السيجو والمنجى والدوم وجوز الهند ، وهى محل التزهة العمومية .

«وفوق الجبل خزان المياه المنبجسة من قمته طوله نصف ميل وعرضه ١٠٠ متر وعليه سدّ عظيم ، وفى جانبه الجنوبى جدول فوق سطح الخزان تنصرف فيه المياه الزائدة وتمتد منه المواسير الموصلة الى أعلى نقطة من بيوت المدينة .

«وهناك متنزه عظيم يقال له جنيانة برادينا على نهر برادينا
مساحتها نحو ٦٠٠ فدان وفيها من جميع أنواع الشجر وكل شجرة
مكتوب على لوحة بجانبها اسمها واسم بلادها .

وفي كندى نحو ٢٠٠٠٠ منهم ١٠٠٠٠ من المسلمين» .
ولا ريب أن سكنى البارودي في هذه المدينة التي جمعت بين
جمال المنظر وجلاله في السهل والجبل قد أثرت في نفس الشاعر
وجعته يلهج بذكر الطبيعة طبع الحمام بهديله ، وأجد له طيب
المكان وحسنه مني فتعني مصر :

يا حبذا جرعة من ماء محنية وضبعة فوق برد الرمل بالقاع
ونسمة كشميم الخلد قد حملت ريا الأزاهر من ميث وأجراع
يا هل أراني بذاك الحى مجتمعا بأهل ودى من قومي وأشياعي
وقال من قصيدة أخرى يتشوق :

ردوا على الصبا من عصرى الخالى وهل يعود سواد اللمة البالى
لم يدر من بات مسرورا بلذته أنى بنار الأسى من هجره صالى
يا غاضبين علينا هل الى عدة بالوصل يوم أناغى فيه إقبالى
غبتم فأظلم يومى بعد فرقتكم وساء صنع الليالى بعد اجمال
فاليوم لا رسنى طوع القياد ولا قلبي الى زهرة الدنيا بميال
أبيت منفردا فى رأس شاهقة مثل القطامى فوق المربأ العالى

وقال من قصيدة « كشف الغمة في مدح سيد الأمة » :

أدعو إلى الدار بالسقيا وبي ظمأ أحق بالرى لكنى أخو كرم
 منازل لهواها بين جانحتى وديعة سرها لم يتصل بقمى
 إذا تنسمت منها نفحة لعبت بى الصبابة لعب الريح بالعلم

لا شك أن الشاعر فى البيت الثانى يشير إلى حب مكتم
 فتح قلبه فى شباب عليه نضرة ونعيم كما يفتق برد الندى وردة الروض .
 النضير ، فسار شعوره مسير النسيم فى الجنان يضوع بريها . والراجح
 أن حبه لم يزد عن ذلك الحب الذى قال عنه "لامرئين" أنه نشأ
 عن نظرة حزت فى كبده فشب وكبر وهى باقية فيها كالمدينة التى
 يتركها عابر سبيل فى جذع الشجرة ، فما كان أشد لوعته ، وما كان
 أكبر ألمه :

فلا تسألنى عن هواى فانى
 وربك أدرى كيف زلت بى النعل
 فما هى إلا أن نظرت بفناء
 (بجلوان) حيث أنهار وانعقد الرمل
 إلى نسوة مثل الجنان تناسقت
 فرائده حسنا وألفه الشمل.

تكنفن تمثالا من الحسن رائعا
يحنّ جنونا عند رؤيته العقل
فكان الذي لولاه ما درت هاءا
أرود الفيا في لا صديق ولا خل
قد تكون حلوان أصل حب ذلك الرجل العفيف النفس ،
وقد يكون كل حبه في تلك النظرة أو ذكراها التي عاودته وهاجت
بالباله وشجنه وحنينه في سرنديب فقال :
أبيت حزينا في سرنديب ساهرا
طوال الليالي والخليلون هجد
إذا خطرت من نحو (حلوان) نسمة
نزت بين قلبي شعلة لتوقد
وهيات ما بعد الشيبية موسم
يطيب ولا بعد (الجزيرة) معهد
شباب واخوات رزئت ودادهم
وكل امرئ في الدهر يشقى ويسعد
هذه الأبيات توازن أرقى أبيات الأغاني أو ديوان الحماسة بعلو
النفس الشعري ، وصدق النزعة ، وصفاء الروح ، وقل أنّ يوفق لمثلها
شاعر عصرى يعيش في جو المدينة الحديثة الذي يتعذر على روح

الشاعر أن تنطلق فيه حرة بريشة من كل صنعة . ومن أرق شعره
في الغزل قصيدته التي ألقاها :

غلب الوجد عليه فبكى وتولى الصبر عنه فشكا

والقصيدة مطاعها :

لوى جيده وانصرف فما ضره لو عطف

كان الحب من العواطف التي تتجاذب نفسه ، ولا يظن أحد
أن البارودي مازال مضطربا في أماله حتى استقر في منفاه فان نفسه
من النفوس الكبيرة الوثابة التي لا يقعد بها ياس أو جزع ، والتي
يتعب في مرادها الجسم لا سيما اذا كان أسيرا :

عفاء على الدنيا اذا المرء لم يعيش بها بطلا يحى الحقيقة شدة
وانى أمرؤ لا أستكين لصولة وان شد ساقى دون مسعاى قدته
أبت لى حمل الضيم نفس أبية وقلب اذا سيم الأذى شب وقده

ثم انظر كيف تفتح همته التي لا تهدأ باب الأمل المغلق حين
يقول في نفس القصيدة :

ولا بد من يوم تلاعب بالقنا أسود الوغى فيه وتمرح جرده
قلوب الرجال المستبدة أكله وفيض السماء المستهلة ورده
أحمل صدر النصل فيه سريرة تعسا لأمر لا يحاول رده

فى هذه الأبيات صور البارودى نفسه التى لا ينال منها أسر
يعانيه ، بل ولا ضعف لحق بجسمه ولا مشيب :
انى وان كانت الأيام قد أخذت

منى وأخنى على الضعف والشمط
فقد أذود السبى عن فريسته
وأجأ البطل الحامى فاخبط

وقد يتعجب القارئ من قوله أيضا فى قصيدة :
تالله أهدأ أو تقوم قيامة فيها الدماء على الدماء تراق

ولكن العجب لا يلبث أن يزول اذا تذكرنا أن النفوس الكبار
لا تهدأ لها نائرة إلا اذا جاءها الموت وأنام أصحابها بعنف فناموا .
وهناك عاطفة أخرى تجلت فى شعر البارودى ، ولا شك أن
المنفى كان سببا فى تقويتها وتتميتها ، هى العاطفة الدينية . كان
شاعرنا فى سرنديب يعلم كثيرا من المسلمين القراءة والكتابة ويعظ
وينخطب فى الجوامع ، هناك نظم قصيدة "كشف الغمة" التى
توسل بها الى الله ليغفو عنه ويفرج كربيه ، ونظم قصيدة أخرى
مدح فيها الرسول ومما قاله :

أنا الذى بت من وجدى بروضته

أحن شوقا كطير البانة الهزج

هاجت بذكراه نفسى فاكتست ولها

وأى صب بذكر الشوق لم يهيج

ويظهر أن العاطفة الدينية تمكنت من نفسه حتى دفعته الى
التفكير فى أمر الوجود وحقيقة الكون ، ساعدها على ذلك تقلب
الدنيا على عينيه ، قال من قصيدة :

سل الفلك الدوار ان كان ينطق وكيف يحير القول أخرس مطرق
نسائله عن شأنه وهو صامت ويخبر ما فى نفسه وهو مطبق
فلا سره يبدو ولا نحن نرعى ولا شأنه يدنو ولا نحن نلحق
ومن بديع التصوير :

فضاء يرد العين حسرى ومسرح يقص جناح الفكر وهو محلق
ولا يفوتنا أن نقول ان من دقق النظر فى شعر البارودى وجد
فيه نزعة المصور الماهر . أنظر الى قوله فى الشيب :

أخلق الشيب جدتى وكسانى خلعة منه رثة الجلباب
ولوى شعر حاجبى على عي فى حتى أظل كالهتّاب
وقوله :

ورب يوم طويل العمر قصره جرى السوابق والوخادة النشط
ترى به القوم صرعى لأحراك بهم كأنهم من عتيق الخمر قد سقطوا

وللفواخت في أفنانها هزج قدماج من لحنهن السهل والفرط
خضرا الحناجن والأطواق تحسبها أطفال ملك لها من سندس ققط

ومن أراد الكثير فليتصفح ديوانه فكله غرر وآيات وعبر .

وقد عاد البارودي من منفاه الى مصر سنة ١٩٠٠ ويقال إن
المرحوم الشيخ محمد عبده هو الذي توسط له في العفو عند الخديوى ،
وسنتكلم في الفصل الآتى عن شعره في آخر أيامه بعد أن دار الفلك
دورته وتبدلت الحال حالا .

الفصل السَّابِعُ

آخِرُ أَيَّامِهِ

قضى البارودى فى مصر أربعة أعوام من سنة ١٩٠٠ لغاية سنة ١٩٠٤ أو من ٦ جمادى الأولى سنة ١٣١٨ لغاية ٦ شوال سنة ١٣٢٣ ، وكان انحداره فى آخر سنيه من منفاه الى القبر مثل انحدار الشمس عند المغيب فى رءوس الجبال وقد أعارتها الطبيعة كل ما حوته من روعة وجلال .

وينحيل الى أن نفسه الواسعة ذات الطول والعرض كانت مملوءة بالسكون المهيب الذى يحيط بأعلى الذرى ، وكان الشاعر يشرف منها على الماضى الممتد فلا يرى حوله من كل النواحي إلا خرائب وطلولا .

ولا يغرنك ما قاله متغزلا حين « أطل على ربوع مصر وسر برؤية أهلها » !

أبابل رأى العين أم هذه مصر

فانى أرى فيها عيونا هى السحر

نواعس أيقظن الهوى بلوا حظ
تدين لها بالفتكة البيض والسمر
فان يك موسى أبطل السحر مرة
فذلك عصر المعجزات وذا عصر
فأى فؤاد لا يذوب صباية
ومزنة عين لا يصبوب لها قطر
بنفسي وان عزت على ربيعة
من العين في أجفان مقاتها فتر
فتاة يرف البدر تحت قناعها
ويخطو في أبرادها الغصن النضر
تريك جمان القطر في أحقوانة
مفاجئة الأطراف قيل لها ثغر

والقصيدة كلها على هذا النمط خالية من الروح الشعرية التي
امتاز بها البارودي ، وهي من الشعر الفاتر الذي يتمخض عنه
التكلف ، وكذلك شأن القصيدة الأخرى التي قالها شاكر
الخديو عباس على تعطفاته :

عباس ياخير الملوكة عدالة وأجل من نطق امرؤ بثنائه
أوليتني منك الرضا وجلوت لي وجها قرأت البشر في أثنائه

وقد اشتهر البيت الأخير من هذه القصيدة :

لا غرو إن جمع المحامد يافعا وسمى بهمته على نظرائه
فالعين وهى صغيرة فى حجمها تسع الفضاء بأرضه وسمائه

على أن هذا البيت ان هو إلا أثر من آثار الصنعة العالية : فإما
أن تكون الروح الشعرية نضب معينها فى آخر العمر فلم تبق
للساعر إلا صنعته يحتال بها على صوغ القريض ويستربها ما لحق
شاعريته من ضعف أو وهن كما تستر الحسناء آثار المشيب
فى غضون الوجه تحت الألوان والطلاء ، وإما أن تكون شاعرية
الرجل ما زالت فى نضرتها ولكنها عصته حين دعاها لاسيما وإن
البارودى قال ما قاله قيا ما بالواجب نحو ملك عفا عنه ثم أصدر
أمره « بتمتعه بالحقوق المدنية » وبلاد رآها بعد أن عاش غريبا
عنها سبعة عشر عاما .

وهذا الفرض الثانى عندى أقرب الى الصحة لأن البارودى
كان شاعرا مطبوعا غذى بأداب العرب والفرس والترك ، ومثل
هذا الطبع يخيل اليك أحيانا أن العمر يحففه ولكنه لا يلبث أن
يتفجر بالماء الزلال .

يدل على ذلك قصيدته العينية التى ثبت لنا أن البارودى قالها
فى الجزيرة بعد رجوعه من منفاه إذ كتب ناقد المنار ولعله المرحوم

الأديب السيد حسين رضا - في عدد ٧ يناير سنة ١٩٠٥ فصلا
يتبين منه أن الكاتب كان من الصقي الناس بالبارودي في آخر أيامه،
روى الكاتب : « ومر بقصر الجزيرة بعد عودته من سيلان
فتذكر أيام اسماعيل ونظم معتبرا ومذكرا » :

هل بالحمى عن سرير الملك من يزع
هيمات قد ذهب المتبوع والتبع
هذى (الجزيرة) فانظر هل ترى أحدا
ينأى به الخوف أو يدنو به الطمع
أضحت خلاء وكانت قبل منزلة
للك منها لوفد العز مرتبع
فلا مجيب يرد القول عن نبأ
ولا سميع إذا ناديت يستمع
كانت منازل أملاك إذا صدعوا
بالأمر كادت قلوب الناس تنصدع
عاثوا بها حقبة حتى إذا نهضت
طير الحوادث من أوكارها وقعوا
لو أنهم علموا مقدار ما فغرت
به الحوادث ما شادوا ولا رفعوا

دارت عليهم رحي الأيام فانشعبوا
 أيدي سببا وتخلت عنهم الشيع
 كانت لهم عصب يستدفعون بها
 كيد العدو فما ضرّوا ولا نفعوا
 أين المعاول بل أين الجحافل بل
 أين المناصل والخطية الشرع
 لا شيء يدفع كيد الدهر إن عصففت
 أحداثه أو يقي من شر ما يقع
 زالوا فيما بكت الدنيا لفرقتهم
 ولا تعطلت الأعياد والجمع
 والدهر كالبحر لا ينفك ذا كدر
 وإنما صفود بين الوري لمع
 لو كان للسر فكرفي عواقبه
 ما شان أخلاقه حرص ولا طبع
 وكيف يدرك ما في الغيب من حدث
 من لم يزل بنور العيش ينخدع
 دهر يغتر وآمال تسرّ وأعد
 سمار تمّر وأيام لها خدع

يسمى الفتي لأمر قد تضر به
وليس يعلم ما يأتي وما يدع
يا أيها السادر المزور من صلف
مهلا فانك بالأيام منخدع
دع ما يريب وخذ فيما خلقت له
لعل قلبك بالإيمان ينتفع
إن الحياة لثوب سوف تتخلعه
وكل ثوب إذا مارت ينزع

وقد تعلق كاتب المنار على القصيدة قائلا : «فهذه القصيدة
من آخر ما نظم ، وفيها من آيات النذر للغرورين بكثرة المال والدثر» .
تلك قصيدة من أجود شعر البارودي ، وهي دميعة وفاء على
أيام اسماعيل التي كانت أيام صباه ، وهي من الشعر الحى الذى
يستمد قوته من الذكرى ، وهي بكاء على الحال التى آلت اليها
البلاد بعد عودته إليها ورؤيته المحتل ضاربا بجراحه فى نواحيها ،
ولا ريب أن الألم الصامت كان فى فؤاده كالجمر تحت الرماد فلم
يصرح عنه مقاله وأشد الألم ما كان مكثما .

وتدل قصيدته فى الجزيرة على أن الرجل كان ثاقب الفكر
لا تعوقه الظواهر عن رؤية أبعد البواطن ، فلم تغره الرفاهية المادية

التي غرت بهض العرابيين بعد رجوعهم من المنفى فتوهموا أن
أغراضهم تحققت ، ولم تغرّه مظاهر العدل المنظم في الظاهر ،
فأزاح الستار عن ذلك الظلم الأجنبي المنظم في الباطن الذي
يضؤل بجانبه كل ظلم .

من ذلك نفهم كيف كان الشاعر بالأوس يبكي من اسماعيل
فأصبح يبكي عليه .

وكأنى بالشاعر أحس دنو الأجل فاستسلم للقضاء في هذه
القصيدة ، ولم تحفزّه همته الى الفخر ومغالبة الأقدار ، ورثى نفسه
فيمر رثى حين قال :

زالوا فما بكت الدنيا لفرقتهم ولا تعطلت الأعياد والجمع

فهذا البيت من خير ما قيل في وصف خروج الانسان من هذه
الحياة الدنيا دون أن يحس الكون بفقده مهما كان عظيما ، قال
فيكتور هوجو في هذا المعنى بيتا يشبه هذا البيت :

Je m'en irai bientôt au milieu de la fête

Sans que rien manque au monde immense et radieux,

وقد تكون هذه القصيدة في جملتها أثرا من آثار التأمل الذي
يعترى الانسان عند تقاص الأيام وتقلب الدنيا ويدفعه الى عرض

الماضي في صفحة الفكر فإذا بكى عليه كان بكاءؤه المتر عصاره
التجارب والألم .

كان الأستاذ خليل مطران يختلف إليه كثيرا في آخر أيامه ،
ومما قاله عنه في فصل كتبه : « إن هذا الوزير الذي اقتدح زناد
تلك المهمة وشبهت بعد استقالته تلك الفتنة المستطيرة لم يكن مع
شجاعته وإقدامه اللذين بلغ بهما أقصى مبالغتهما في موطن القتال
إلا رجل سكيمة ووداعة وحلم ، وقابلا كان رجل أرق منه قلبا على
ذويه وأحفظ عهدا لمحبيه ، ولعل إصابته بكرميتيه هي التي قلصت
من كبده وأودت بجسده . ثم إن العارف بحوادث حياته لا يكاد
يصدق أنه هو الرجل الذي كان ديدنه في سنواته الأخيرة أن يجمع
أطفاله وهم غلامان وأربع فتيات فيجعل لهم مكانا خصيصا من
البيت لتلقى العلوم واللغات بضر وبها على أساتذة يحضرون في مواعيد
كانهم في مدرسة قانونية فيرعى سيرهم كل يوم ثم يمتحنهم كل أسبوع
مرة ثم يمتحنهم آخر كل شهر ويوزع عليهم المكافآت .

« على أن هذا البر إنما كان إحدى شمائله وفضائله فإن أريد
بعض التعداد فالجودة مع الجود ، واليكياسة مع لطف الحس ،
والصفح مع المقدرة ، والإيناس مع علو النفس وشرف الطبع » .

نضيف الى ذلك أن البارودى تمكن بفضل جدّه وكده من تجديد جزء عظيم من ثروته تركه لأهله وذويه فكان طول حياته مثال الهمة العليا ، ولم يمنعه قول الشعر من قيادة الجحافل ورياسة الوزارة فى أخرج الأوقات والعمل .

وكل ما يعاب على الرجل أنه لم يوفق فى حياته السياسية كما وفق فى شعره ، ومهما كان من الأمر فقد كانت حياة هذا الرجل صحيفة كبرى من التاريخ المصرى تشهد له بحسن الطوية ، وصدق العزيمة ، وكراهية الظلم ، والاعتدال ، والروية ، والأناة .

وهو مؤسس دولة الشعر التى يحمل لواءها اليوم شوق ومطران وحافظ وآخرون بعد أن غادرهم شيخ الشعراء بعده المرحوم صبرى باشا الذى ننمى اليوم الى الشعر كما ننمى فى الجود الى الجود .

ولا أعرف رجلا كاخ الردى مثاما كاخ البارودى ، وطاعن خيلا من فوارسها الدهر مثاما طاعنها ، وخاض وقائع الحياة مثاما خاضها ، وقد كان خالق الرجل عظيما ، وذكاؤه عظيما ، وشعره عظيما فكان الثلاثة فى مستوى واحد .

وفى اعتقادى أن أكثر شعره ارتباطا بحياته شعر المنفى ، شعر العواطف ، شعر الوجدان ، شعر الألم .

وليس في هذا الشعر ما يبعث على اليأس والاستسلام ، أو يولد خورا في العزيمة ، وإنما هو درس من دروس الشجاعة والصبر والجلد ، درس من دروس الوفاء وعلو النفس وكرم العنصر ، فأخلق به أن يكون أنشودة الصبي في مكتبه ، والناسك في صومعته ، والزارع في مزرعته ، والوطني في جهاده .

وقد لبي دعوة ربه في ٦ شوال سنة ١٣٢٢ (ديسمبر سنة ١٩٠٤) فبكته مصر وبكاه الشعراء الذين وقفوا يوم الأربعين لدى قبره «ونبهوا الأصدقاء النائمة حوله في بهو السكون الخالد» . وكان ذلك يوما مشهودا لم يسبق مثله إلا للعرى ، ومن خير ما قيل فيه بل خير ما نختم به هذا البحث قول مطران :

وما كان سجنك إلا قرارا	وقد تعب الجسد أن يسهر
ولا النفي إلا خلاء أعدت	به زمن الأدب الأزهر
ولا الشكل إلا لتأسي أساك	وتبكي بكاء ليوث الشرى
ولا الغض عما تراه العيون	إلا وقد ساء أن ينظرا
إذا وسع الكون فكر امرئ	فلا بأس بالطرف أن يحسرا
على الشمس أن تهدي المبصرين	وليس على الشمس أن تبصرا

الفصل السابع

مختارات

ننشر في هذا الباب ما نختاره من قصائد البارودي التي أشرنا
إلى أكثرها في أثناء البحث حتى تكون عند القارئ فكرة كاملة
عن الرجل وشعره، قال رحمه الله :

هل من فتي ينشد قلبي معي	بين خدور العين بالأجرع
كان معي ثم دعاه الهوى	فمرّ بالحى ولم يرجع
فهل اذا ناديت به باسمه	يفيق من سكرته أويعى
هيئات يلقي رشدا بعد ما	أغواه لحظ الرشأ الاتلع
فيادموع القطر سيلي دما	ويابنات الأيك نوحى معي
وأنت يانسمة وادى الغضب	مرى برياك على مربعي
وأنت يا عصفورة المنحنى	بالله غنى طربا وآسجعي
وأنت يا عين اذا لم تفي	بذمة الدمع فلا تهجمي
صباية أغرت على الأسى	ودلت السهم على مضجمي
ويلاه من نار الهوى إنها	لولا دموعي أحرقت أضلعي

أبيت أرعى النجم في سدفه ضل بها الصبح فلم يطلع
لا أمتدى فيها الى حيلة تقى حياتي من يدي مصرعي
طورا أدارى لوعتي بالمني وتارة يغلبني مدمعي
فهمل الى الأشواق من غاية أم هل الى الأوطان من مرجع
لا تأس يا قلب على ما مضى لا بد للحنة من مقطع

وقال يصف حرب سكان جزيرة كريد حين نخرجوا عن الطاعة

سنة ١٨٦٥ ويتشوق الى مصر :

أخذ الكرى بمعاقد الأجفان وهفا السرى بأعنة الفرسان
والليل منشور الذوائب ضارب فوق المتالع والربى ببحران
لا تستبين العين في ظلماته إلا اشتعال أسنة الممران
نسرى به ما بين بلجة فتنه تسمو غواربها على الطوفان
في كل مرباة وكل ثنية تهدار سامرة وعزف قيان
تستن عادية ويصهل أجرد وتصيح أجراس ويهتف عاني
قوم أبى الشيطان إلا خسرهم فتسللوا من طاعة السلطان
ملؤا الفضاء فما بين لناظر غير التماع البيض والحرسان
فالبدر أكر والسما مريضة والبحر أشكل والرماح دوان
والخيل واقفة على أرسائها لطراد يوم كريمة ورهان
وضعوا السلاح الى الصباح وأقبلوا يتكلمون بالسن النيران

حتى اذا ما الصبح أسفر وارتمت
 فاذا الجبال أسنة واذا الوها
 فتوجست فرط الركاب ولم تكن
 فرعت فرجعت الحنين وانما
 ذكرت مواردها بمصر وأين من
 والنفس لاهية وان هي صادفت
 فسقى السماك محملة ومقامة
 حتى تعود الأرض بعد ذبولها
 بلد خلعت به عذار شبيبتي
 فصعيدها أحوى النبات وسرحها
 فارقتها طلبا لما هو كائن
 حمل الزمان على ما لم أجته
 نقموا على وقد فتكت شجاعتي
 فليهنأ الدهر الغيور برحلي
 فلئن رجعت فسوف أرجع واثقا
 صادقت بعض القوم حتى خاني
 زعم النصيحة بعد أن بلغت به
 فليجر بعد كما أراد بنفسه
 عيناى بين ربي وبين مجان
 د أعنة والماء أحمر قاني
 لتهاب فامتنعت على الأرسان
 تحنانها شجن من الأشجان
 ماء بمصر منازل الرومان
 خلفا بأول صاحب ومكان
 في مصر كل مرنة مرنان
 شتى النماء كثيرة الألوان
 وطرحت في يمني الغرام عناني
 ألمى الظلال وزهرها متداني
 والمرء طوع تقلب الأزمان
 ان الأمائل عرضة الحداث
 ان الشجاعة حلية الفتيان
 عن مصر ولتهدا صروف زمانى
 بالله أعلمت الزمان مكانى
 وحفظت منه مغيبه فرمانى
 غشا وجاز الحق بالهتان
 إن الشقى مطية الشيطان

وكذا اللئيم اذا أصاب كرامة
فليعلمن أخو الجهالة قصره
فلربما ربح الخسيس من الحصى
شرف خصصت به وأخطأ حاسدي
عادي الضديق ومال بالاخوان
عنى وان سبقت به قدمان
بالدر عند تراجيح الميزان
مسمعاته فهذى به وقالانى

وقال أيضا مجازيا قصيدة "أراك عصى الدمع شيمتك الصبر":

طربت وعادتني الخيلة والسكر
كأنى مخمور سرت بلسانه
صريع هوى يلوى بى الشوق كلما
اذا مال ميزان النهار رأيتنى
يقول أناس إنه السحر ضالة
فكيف يعيب الناس أمرى وليس لى
ولو كان مما يستطاع دفاعه
ولكنه الحب الذى لو تعلق
على أننى كاتمت صدرى حرقه
وكفكفت دمعا لو أسلت شئونه
حياء وكبرا أن يقال ترجحت
وإنى أمرؤ لولا العوائق أذعنت
من النفر الغر الذين سيوفهم
وأصبحت لا يلوى بشيمتى الزجر
معتقة مما يضمن بها التجر
تلا لأ برق أو سرت ديمة غمر
على حسرات لا يقاومها صبر
وما هى إلا نظرة دونها السحر
ولا لامرئ فى الحب نهى ولا أمر
لألوت به البيض المبائر والسمر
شرارته بالجمر لا حترق الجمر
من الوجد لا يقوى على مسما صدر
على الأرض ما شك أمرؤ أنه بحر
به صبوة أو فل من غربه الهجر
لساطانه البدو المغيرة والحضر
لها فى حواشى كل داجية فجر

اذا استل منهم سياد غرب سيفه
 لهم عمود مرفوعة ومعاقل
 ونار لها في كل شرق ومغرب
 تمتد يدا نحو السماء خضيبية
 وخيل يرج الخافقين صهيلها
 معودة قطع الغيا في مكانها
 أقاموا زمانا ثم بدد شملهم
 فلم يبق منهم غير آثار نعمة
 وقد تنطق الآثار وهي صوامت
 لعمر كماحي وان طال سيره
 وما هذه الأيام إلا منازل
 ولا تحسبن المرء فيها بخالد

وقال في النسيب :

غلب الوجد عليه فبكى
 وتمنى نظرة يشفى بها
 يائها من نظرة ما قاربت
 نظرة ضم عليها هديه
 غرست في القلب منى حبه
 وتولى الصبر عنه فشكا
 علة الشوق فكانت مهلكا
 مهبط الحكمة حتى انتهكا
 ثم أغراها فكانت شركا
 وسقته أدمعى حتى زكا

آه من برج الهوى ان له
 كان أبقي الوجسد منى رمقا
 ان طرفى غمر قلبي فمضى
 قد تولى إثر غزلان النقا
 لم يعد بعد وظنى أنه
 ويح قلبي من غريم ما طل
 ظن بى سوءا وقد ساومت به
 يا غزلا نصبت أهدا به
 قد ملكك القلب فاستوص به
 لا تعذبه على طاعته
 غاب اليأس على حسن المنى
 فالى من أشكى ما شفى
 سلكت نفسى سبيلا فى الهوى
 بين جنبي من النار ذكا
 فاحتوى البين على ما تركا
 فى سبيل الشوق حتى هلكا
 ليت شعرى أى واد سلكا
 لج فى نيل المنى فارتبكا
 كلما جدد وعدا أفكا
 قبلة فأزور حتى فركا
 بيد السحر اضمي شبكا
 إنه حرق على من ملكا
 بعد ما تيمته فهو لكا
 فيك واستولى على الضحك البكا
 من غرام واليك المشتكى
 لم تدع فيه لغيرى مسلكا

طائر على غصن

ونبأة أطلقت عيني من سنة
 فقممت أسأل عيني رجع ما سمعت
 ثم اشرأبت وألفت طائرا حذرا
 مستوفزا يتنزي فوق أيكته
 كانت حباله طيف زارنى سمرا
 أذنى فقالت لعلى أبلغ الخبرا
 على قضيب يدير السمع والبصرا
 تنزى القلب طال العهد فادكرا

لا يستقر له ساق على قدم	فكلما هدأت أنفاسه نفرا
يهفو به الغصن أحيانا ويرفقه	دحو الصواجح في الديمومة الأكر
ما باله وهو في أمن وعافية	لا يبعث الطرف إلا خائفا حذرا
إذا علا بات في خضراء ناعمة	وإن هوى ورد الغدران أو نفرا
يا طير نضرت غنى طيف غانية	قد كُنْ أهدى لي السراء حين سمرى
حوراء كالريم الحاظا إذا نظرت	وصورة البدر إشراقا إذا سفرا
زالت خيالها غنى وأعقبها	شوق أحال على الهم والسمرا
فهل إلى سنة أن أعوزت صلة	عود نال به من طيفها الوطرا



كان رحمه الله حين ذهب الى حرب الروس (١٢٩٤ هـ —
 ١٨٧٧ م) كتب لأبناء ودّه كتباً لم تصل اليهم وظن وصولها
 وتقصيرهم عن المبادرة بالاجابة ، وقد وصل الى الشيخ حسين
 المرصفي أحد كتابين كتبهما له يوم قدومه الى مصر بعد مدة طويلة
 من كتابته ، وهذه أبياته :

يا ناعس الطرف الى كم تنام	أسهرتني فيك ونام الأنام
أوشك هذا الليل أن ينقضي	والعين لا تعرف طيب المنام
الله في عين جفاها الكرى	فيكم وقلب قد براه الغرام
قد رحم العاذل حالي فما	يرضى لذلي في الهوى بالمنام

ويلاه من ظبي الحمى إنه
 يغضب من قولي آه وهل
 لا كتبه تترى ولا رساله
 طال النوى من بعدكم وانقضت
 ارتاح ان من نسيم الصبا
 ياليتني في السلك حرف سرى
 حتى أوافي مصر في لحظة
 مولاي قد طال مرير النوى
 أنظر حولي لا أرى صاحبها
 وديدا بنا صار خافي الدجى
 يقتبل الصبح ويمضي الدجى
 ولا كتاب من حبيب أتى
 في هضبة من أرض دبريجة
 من خلفنا البحر وتلقاها
 فتلك حالي لا رمتك النوى
 جرعتي بالصمد مر الحمام
 قولي آه يا ابن ودي حرام
 تأتي ولا اللطيف يوافي لمام
 بشاشة العيش وساء المقام
 والبراء لي فيه معا والسقام
 أو ريشة بين خوافي الحمام
 أقضى بها في الله حق الزمام
 فكل يوم مربى ألف عام
 إلا جماهير وخيلا صيام
 أرجع وراء إنه لا أمام
 وينقضي النور ويأتي الظلام
 ولا أخو صدق يرد السلام
 ليس بها غير بغاث وهام
 سواد جيش مكفهر لهم
 فكيف أنتم بعدنا يا همام

وقال يجارى قصيدة أبي نواس في مدح الأمير محمد ابن الرشيد،
 وسندكر هنا قصيدة أبي نواس اتما للفايدة ثم نعقبها بقصيدة
 البارودي .

قال أبو نواس :

يا دار ما فعلت بك الأيام
عزم الزمان على الذين عهدتهم
أيام لا أغشى لأهلك منزلا
ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم
وبلغت ما بلغ أمرؤ بشبابه
وتجشمت بي هول كل تنوفة
تذر المطى وراءها فكأنها
وإذا المطى بنا بلغن محمدا
قربنا من خير من وطئ الحصا
رفع الحجاب لنا فلاح لناظر
ملك إذا علقت يداك بحبله
ملك توحد بالمكارم والعلی
ملك أغر إذا شربت بوجهه
فالمو مشتمل ببدر خلافة
سبط البنان إذا احتبي بنجاده
ان الذى يرضى الإله بهديه
ملك إذا اعتبر الأمور مضى به
داوى به الله القلوب من العمى

لم تبق منك بشاشة تستام
بك قاطنين وللزمان عرام
إلا مراقبة على ظلام
وأسمت سرح اللهو حيث أساموا
فاذا عصارة كل ذاك أاثام
هو جاء فيها جراءة إقدام
صف تقدمهن وهى أمام
فظهورهن على الرجال حرام
فلها علينا حرمة وذمام
قرر تقطع دونه الأوهام
لا يعتفك البؤس والاعدام
فرد فقيد الند فيه همام
لم يعدك التبجيل والاعظام
لبس الشباب بنوره الاسلام
فرع الجماجم والسماط قيام
ملك تردى الملك وهو غلام
رأى يقل السيف وهو حسام
حتى أفقن وما بهن سقام

أصبحت يا بن زبيدة ابنة جعفر أملا لعقد حباله استحكام
فسأمت للأمر الذي ترجى له وتقاعست عن يومك الأيام

وقال البارودي في الوزن والروي :

ذهب الصبا وتوالت الأيام فعلى الصبا وعلى الزمان سلام
تالله أنسى ما حييت عهدده ولكل عهد في الكرام ذمام
اذ نحن في عيش ترف ظلاله وأنا بمعتك الهوى آثام
تجري علينا الكاس بين مجالس فيها السلام تعانق ولزام
في فتية فاض النعيم عليهم ونماهم التبتجيل والاعظام
ذهبت بهم شيم الملوك فليس في تلعبهم هذر ولا ابرام
لا ينطقون بغير آداب الهوى سمح النفوس على البلاء كرام
من كل أبلج يستضاء بنوره كالبدر حل صفة حثيه غمام
سهل الخليفة لا يسوء جليسه بين المقامسة واضح بسام
متواضع للقوم تحسب أنه مولى لهم في الدار وهو همام
ترنو العيون اليه في أفعاله وتسير تحت لوائه الأفوام
فاذا تكلم فالرءوس خواضع واذا تناهض فالصفوف قيام
نلهو ونلعب بين خضر حدائق ليست بغير خيولنا تستام
حتى انتهينا بعد أن ذهب الصبا ان اللذادة والصبا أحلام
لا تحسب العيش دام لمترف هيئات ليس على الزمان دوام

تأتى الشهور وتنتهى ساعاتها
والناس فيما بين ذلك وارد
لا طائر ينجمو ولا ذو مخلب
فأدراهموم النفس عنك اذا اعترت
فالعيش ليس يدوم فى ألوانه
من نجرة تذر الكبير اذا انشى
لعب الزمان بها فغادر جسمها
حمرء دار بها الحباب فصورت
لا تستقيم العين فى لمعانها
تعشوا الركاب فان تبليج كأمها
حبست بأ كلف لم يصل بفنائها
حتى اذا اصطفقت وطار فدامها
وقدت حميتها فلولاً مزجها
تسم العيون بنورها لكنها
فاصقل بها صداً الهموم ولا تكن
واعلم بأن المسره ليس بخالد
يهوى الفسق طول الحياة وانها
فاطمح بطرفك هل ترى من أمة

لمع السراب وتتقضى الأعوام
أو صادر تيمرى به الأيام
يبقى وعاقبة الحياة حمام
بالكأس فهى على الهموم حسام
إلا اذا دارت عايه الحمام
بعد اشتعال الشيب وهو غلام
شباب تهافت دونه الأوهام
فلما تحف سماء الأجرام
وتزل عند لقاء الأقدام
ساروا وان زال الضياء أقاموا
نور ولم يسرح عليه ظلام
وثبت فلم تثبت لها الأجسام
بالماء بعد الماء شب ضرام
برد على شرابها وسلام
غرا تطيش ببلله الآلام
والدهر فيه صحة وسقام
داء له لو يستبين عقام
خلدت وهل لابن السبيل مقام

هذه المدائن قد خلت من أهلها	بعد النظام وهذه الأهرام
لا شيء يخلد غير أن خديعة	في الدهر تتكل دونها الأحلام
ولقد تبينت الأمور بغيرها	وأقنى على النقض والابرام
فاذا السكون تحرك واذا الخمر	د تلهب واذا السكوت كلام
واذا الحياة ولا حياة منية	تحيا بها الأجساد وهي رمام
هذا يحل وذاك يرحل كارها	عنه فصلح تارة وخصام
فالنور لو بينت أمرك ظلمة	والبدء لو فكرت فيه ختام



ولأبي نواس قصيدة أخرى مدح بها الخصيب بن عبد الحميد
 العجمي أمير مصر من طرف الرشيد، وكان قصده من بغداد :

اجارة بيتينا أبوك غيور	وميسور ما يرجي لديك عسير
فان كنت لا خالها ولا أنت زوجة	فلا برحت دوني عليك ستور
وجاورت قوما لا تزاور بينهم	ولا وصل إلا أن يكون نشور
فما أنا بالمشغوف ضربة لازب	ولا كل سلطان على قدير

وهي قصيدة طويلة وقد نظم شاعرنا قصيدة في وزنها
 ورويا، قال :

تلاهيت إلا ما يحسن ضمير	وداريت إلا ما ينم زفير
وهل يستطيع المرء كتمان أمره	وفي الصدر منه بارح وسعير

فيا قاتل الله الهوى ما أشدّه
 تلين اليه النفس وهى أبية
 نبذت له رمحى وأغمدت صارمى
 وأصبحت مغلول المخالب بعدما
 فى لسرة القوم دعوة عائذ
 لطال على الليل حتى ملته
 ألا فرعى الله الصبا ما أبره
 اذ العيش أفواف ترف ظلاله
 واذ نحن فيما بين إخوان لذة
 تدور علينا الكاس بين ملاعب
 فأحاطنا بين النفوس رسائل
 عقدنا جناحي ليلنا بنهارنا
 وقلنا لساقينا أدرها فأنما
 فطاف بها شمسية هبيبة
 اذا ما شربناها أقننا مكاننا
 وكم ليلة أفنيت عمر ظلامها
 شغلت بها قلبي ومتعت ناظرى
 صنعت بها صنع الكريم بأهله
 على المرء اذ يخالو به فيسير
 ويجزع منه القلب وهو صبور
 ونهنت مهري والمراد غزير
 سطوت ولى فى الخافقين زئير
 أما من سمع فيكم فيجبر
 وعهدى به فيما علمت قصير
 وحيا شبا بامر وهو نصير
 علينا وسلسال الوفاء نمير
 على شيم ما إن بهن نكير
 بها اللهم خدن والشباب سмир
 وريحاننا بين الكؤوس سفير
 وطرنا مع اللذات حيث تطير
 بقاء الفقى بسد الشباب يسير
 لها عند الباب الرجال تؤور
 وظلت بنا الأرض النضاء تدور
 الى أن بدا للصبح فيه قدير
 ونعمت سمعى والبنان طهور
 وجيرته والغادرون كثير

فما راعنا إلا حفيف حمائم
 تجاوب أترابا لها في نعمائل
 نواعم لا يعرفن بؤس معيشة
 توسد هامات لمن وسائدا
 كأن على أعطافها من حبيكها
 خوارج من أيك دواخل غيره
 اذا غازلتها الشمس رقت كأنما
 فلما رأيت الصبح قد رف جيده
 نخرجت أجر الذيل تها وإنما
 ولي شجة تأبى الدنيا وعزيمة
 اذا سرت فالأرض التي نحن فوقها
 فلا عجب ان لم يصبرني منزل
 همامة نفس ليس ينفي ركاها
 معودة ان لا تكف عناها
 لها من وراء الغيب أذن سمعية
 وفيت بما ظن الكرام فراسة
 وأصبحت محسود الجلال كأنني
 اذا صلت كف الدهر من غلوائه
 لها بين أطراف الغصون هدير
 لمن بها بعد الحنين صغير
 ولا دائرات الدهر كيف تدور
 من الريش فيه طائل وشكير
 تمائم لم تعقد لمن سسيور
 زهاهن ظل سابع وغدير
 على صفحتها سندس وحرير
 ولم يبق من نسج الظلام ستور
 يتيه الفتى ان عف وهو قدير
 ترد لهام الجيش وهو يمشور
 مراد لمهرى والمعاقل دور
 فليس لعقبان الهواء وكور
 رواح على طول المدى وبكور
 عن الحد إلا أن تتم أمور
 وعين ترى ما لا يراه بصير
 بأمرى ومثلى بالوفاء جدير
 على كل نفس في الزمان أمير
 وان قلت غصت بالقلوب صدور

ملكتم مقاليد الكلام وحكمة لها كركب نفخ الضياء منير
فلو كنت في عصر الكلام الذي انقضى لباء بفضل على جرول وجرير
ولو كنت أدركت النواصي لم يقل أجارة بيتينا أبوك غيور
وما ضرني أني تأخرت عنهم وففضل على بين العالمين شهير
فيا ربما أخلني من السبق أول وبرز الحيات السابقات أخير



وقال النابغة الذبياني واسمه زياد يصف المتجردة زوج النعمان
بأمره، ويقال أن النعمان مع ذلك لما سمع القصيدة غضب على
النابغة وجفاه وظن به حتى اختفى منه ثم ظهرت براءته له وعاد الى
موضعه من منادمته :

أمن آل مية رائح أو مغتد عجلان ذا زاد وغير مزقود
أفد الترحل غير أن ركابنا لما تزل برجالنا وكأن قد
زعم الهام بأن رحلتنا غدا وبذاك تنعاب الغراب الأسود
لا مرحبا بغد ولا أهلا به ان كان تفريق الأحبة في غد
حان الرحيل ولم تودع مهددا والصبح والامساء منها موعدي
في إثر غانية رمتك بسهمها فأصاب قلبك غير أن لم تقصد
غنيت بذلك أذهم لك بجيرة منها بعطف رسالة وتودد
ولقد أصاب فؤاده من حبها عن ظهر مرنان بسهم مصدر

نظرت بمقالة شادن متريب
 والنظم في سلك يزين نحرها
 صفراء كالسيرا أكل خلقها
 والبطن ذو عكن لطيف طيه
 مخطوطة المتن غير مفاضة
 قامت تراءى بين سجنى كة
 أودرة صدفية غواصها
 أودمية من مرمر مرفوعة
 سقط النصف ولم ترد إسقاطه
 بخضب رخص كأن بنائه
 نظرت اليك بحاجة لم تقضها
 تجلو بقادمتي حمامة أيكه
 كالأقحوان غداة غب سمائه
 زعم الهام بأن فاها بارد
 زعم الهام ولم أذقه أنه
 زعم الهام ولم أذقه أنه
 أخذ العذارى عقده فنظمه
 لو أنها عرضت لأشيط راهب
 أحوى أحرم المقلتين مقلد
 ذهب توقد كالشهاب الموقد
 كالغصن في غاوائه المتأود
 والأتب تنفجه بشدى مقعد
 ربا الروادف بضرة المتجرّد
 كالشمس يوم طلوعها بالأسعد
 بهج متى يرها يهل ويسجد
 بنيت بأجر يشاد وقرمد
 فتناولته واتقتنا باليد
 غم يكاد من اللطافة يعقد
 نظر السقيم الى وجوه العود
 بردا أسف لشاة بالأثمد
 جفت أعاليه وأسفله ند
 عذب مقبله شهى المورد
 عذب اذا ما ذقته قلت ازدد
 يشفى برىا ريقها العطش الصدى
 من لؤلؤ متتابع متسرد
 عبد الاله ضرورة متعبد

لنا لرؤيتها وحسن حديثها ونخاله رشدا وان لم يرشده
بتكلم لو تستطيع كلامه لدنت له أروى المضاب الصمخه
وبفاحم رجل أثبت نبتة كالكرم مال على الدعام المسند
واذا لمست لمست أجثم جائئا متحيزا بمكانه ملء اليد
واذا طعنت طعنت في مستهدف رابى الحبسة بالعبير مقروم
واذا نزعتم نزعتم عن مستحصف نزع الحزور بالرشاء المحصد
واذا يعض يشد من أعضائه عض الكبير من الرجال الأرد
ويكاد ينزع جلد من أصلى به بلواغ مثل السعير الموقد
لا وارد منها يحور لمصدر عنها ولا صدر يحور لمورد

وقد مشى البارودى على أثر النابغة وقال تلى روى قصيدته ،
وسلك فيها مسالك العرب فيما كانت تمتدح به من مباشرة الحروب
وارتياد المنايا وركوب الخيل وشرب الخمر ومزاولة النساء :

ظن الظنون فبات غير موصد حيران يكلاً مستنير الفرقد
تلوى به الذكرات حتى إنه ليظل ملقى بين أيدي العود
طورا بهم بأن يزل بنفسه سرفا وتارات يميل على اليد
فكأنما افترست بطائر حلمه مشمولة أو ساغ سم الأسود
قالوا غدا يوم الرحيل ومن لهم خوف التفرق أن أعيش الى غد
هى مهجة ذهب الهوى بشغافها معمودة إن لم تمت فكان قد

يا أهل ذا البيت الرفيع مناره
 انى فقدت العام بين بيوتكم
 أو فاستقيدوني ببعض قياتكم
 بل يا أخا السيف الطويل نجاده
 هذى لحاظ الغيد بين شعابكم
 من كل ناعمة الصببا بدوية
 هيفاء ان خطرت سبت واذارنت
 ينخفض من أبصارهن تحتلا
 فاذا أصهبن أخا الشباب سلبنه
 واذا لحن أخا المشيب قلينه
 فلئن غدوت دريئة لعيونها
 ولقد شهدت الحرب في إبانها
 تنقص المران في حجراتها
 عصفت بهاريج الردى فتدفقت
 ما زلت أطعن بينها حتى اثنت
 ولقد هبطت الفيث يجمع نوره
 تجرى به الآرام بين مناهل
 بمضمر أن كان سراته

أدعوكم يا قوم دعوة مقصد
 قلبي فرثوه على لأهتدى
 حتى ترد الى نفسي أو تدى
 ان أنت لم تحم النزيل فأغمد
 فتكت بنا خلسا بغير مهند
 ريا الشباب سليمة المتجرد
 سلبت فؤاد العابد المتشدد
 للنفس فعل القانتات العبد
 ورمين مهجته بطرف أصيد
 وسترن ضاحية الحاسن باليد
 فلقد أفل زعارة المتمرد
 ولبئس راعى الحى ان لم أشهد
 ويعود فيها السيف مثل الأرد
 بدم القوارس كالأتى المزبد
 عن مثل حاشية الرداء المجسد
 فى كل وضاح الأسرة أغيد
 طابت مشاربها وظل أبرد
 بعد الحميم سبيكة من عسجد

خلصت له اليمنى وعم ثلاثة
 فكأنما انتزع الأصيل رداءه
 زجل يردد فى اللغات صهيله
 متلفتا عن جانبيه يهزه
 فاذا ثبت له العنان وجدته
 واذا أطعت له العنان رأيتـه
 يكفيك منه اذا استحسن نبأه
 صلب السناك لا يمر بجلمد
 نعم العناد اذا الشفاد تقلصت
 ولقد شربت الخمر بين غطارف
 يتلاعبون على الكؤوس اذا جرت
 لا ينطقون بغير ما أمر الهوى
 من كل وضاح الجبين كأنه
 بل رب غانية طرقت خباءها
 قالت وقد نظرت الى فضحتنى
 نخلبتها بالقول حتى رضتها
 ما زلت أمتعها المنام غواية
 روعاء تفزع من عصافير الضحى
 منه البياض الى وظيف أبجد
 سلبا وخاض من الضحى فى مورد
 دفعا ككز سزمة الحبي المرعد
 مرح الصبا كالشارب المتغرد
 يبطو كسيد الردهة المتسورد
 يطوى المهامه فدفا فى فدفا
 شدا كالهوب الالباء الموقد
 فى الشد إلا رض فيه بجلمد
 يوم الكريهة فى العجاج الأربد
 شم المعاطس كالنصون الميسد
 لعبا يروح الجلد فيه ويتدى
 فكلامهم كالروض مصقول ندى
 قمر توسط جنح ليل أسود
 والنجم يطرف عن لواخط أومد
 فارجع لشأنك فالرجال بمرصـد
 وطويتها طى الحبيرة باليد
 حتى لقد بتنا بليلى الانتد
 ترفا وتجزع من صياح الطهد

حتى اذا نم الصبا وتتابعتم زيم الكواكب كالمها المتبدد
 قالت دخلت وما أخالك بارحا إلا وقد أبقيت عار المسند
 فمسحتها حتى اطمأن فؤادها ونفيت روعتها برأى محصد
 ونجرت اخترق الصفوف من السدى مثلثا والسيف يلمع في يدي
 فلنعم ذاك العيش لو لم ينقض ولنعم هذا العيش ان لم ينفسد
 يرجو الفتي في الدهر طول حياته ونعيمه والمرء غير مخلد
 وقال الشريف محمد الرضى يفتخر ويمدح أسلافه من أهل

البيت :

لغير العلامى القلا والتجنب ولولا العلاما كنت فى الحب أرغب
 اذا الله لم يعذرك فيما ترومه فى الناس إلا عاذل أو مؤنب
 ملكك بحلمى فرصة ما استرقها من الدهر مفتول الذراعين أغلب
 فان تك سنى ما تطاول باعها فلى من وراء المجد قلب مدرّب
 بحسبى أنى فى الأعداى مبغض وأنى الى غر المعالى محبب
 وللحلم أوقات وللجهل مثاهى ولكن أياهى الى الحلم أقرب
 يصول على الجاهلون واعتلى ويعجم فى القائلون وأعرب
 يرون احتمالى غصة ويزيدهم لوايح ضغن أننى لست أغضب
 وأعرض عن كأس النديم كأنها وميض غمام غائر المزن تحلب
 وقور فلا الألحان تأسر عزمتى ولا تمكر الصهباء بى حين أشرب

ولا أعرف الفحشاء إلا بوصفها ولا أنطق العوراء والقلب مغضب
تحلم عن ككر القوارص شيتي كأن معيد الذم بالمدح مطنب
لساني حصاة يقرع الجهل بالجمي اذا نال مني العاضة المتأوب
ولست براض أن تمس عزائي فضالات ما يعطى الزمان ويساب
غرائب آداب حبائي بحفظها زماني وصرف الدهر نعم المؤدب
تريشنا الأيام ثم تهيضنا ألا نعم البادي وبئس المعقب
نهيئك عن طبع اللئام فأني أرى البخل يؤبى والمكارم تطلب
تعلم فان الجدود في الناس فطنة تناقلها الأحرار والطبع أغلب
تضافرنى فيك الصوارم والقنا ويعجبني منك العذيق المرجب
نصحت وبعض النصيح للقوم هجنة وبعض التناجي بالعتاب تعتب
فان أنت لم تعط النصيحة حقها قرب جموح كل عنه المؤدب
سقى الله أرضا جاوز القطر ورضها اذ المزن يسقى والا باطع تشرب
ذكرت بها عهد الشباب فحسرة أفدت وقدفات الذي كنت أطلب
ويعجبني منها النسيم اذا هفا إلا كل ما سرى عن القلب معجب
سكتك والأيام بيض كأنها من الطيب في أثوابها نتقلب
وبرق رقيق الطرئين لحظته إذ الجؤ خوار المصابيح أكهب
نظرت وألحظ النجوم كليلة وهيهات دون البرق شاو مغرب
فما الليل إلا فحة مستشفقة وما البرق إلا جمرة تلهب

أمن بعد أن جلتها ورق الدجى سرعا وأغصان الأزمة تجذب
 وعدنا بها ممعومة بنسوعها كما صاغ الأرض الغراء المعقب
 كأن تراجع الحداة وراءها صفير تعاطاه اليراع المثقب
 تهز ظنوني في المآرب أربة ويجنب عزمي في المطالب مطلب
 وردنا بها ماء الظلام سواغبا ولايل جؤ بالدرارى معشب
 تنفر ذود الطير عن وكراتها وكل اذا لقيته متغرب
 ونلتد رشف الماء رنقا كأنه مع العز ثغر بارد الظلم أشنب
 أذعننا لها سر الكرى من عيوننا وسر العلى بين الجوانح يحجب
 حرام على المجد ابتسامى لقربه وما هنزنى فيه العناء المقطب
 ودهماء من ليل التمام قطعتها أغنى حذاء والمراسيل تطرب
 ولو شئت غنتنى حمام عشية ولكننى من ماء عيني أشرب
 أقول اذا خاض السمران فى الدجى أحاديث تبدو طالعات وتغرب
 ألا غينانى بالحديث فأننى رأيت ألد القول ما كان يطرب
 غناء اذا خاض المسامع لم يكن أمينا على جوابه المتجلب
 ونشوان من نحر النعاس ذعرته وطيف الكرى فى العين يطفو ويرسب
 له مقلة يستنزل النوم جفنها اليه كما استرخى على النجم هيدب
 سرى بفتح الأرض غفلا ومعلما تجذبها أيدى المطايا وتلعب
 وما شهوتى لوم الرفيق وانما كما يلتقى فى السير ظلف ومخالب

عجبت لغيري كيف ساير نجهما وسيرى فيها يا ابنة القوم أعجب
 أسير وسرجى بالنجاد مقبله وأثوى ويبقى بالعسالى مطنّب
 ومصقولة الأعطاف في جنباتها مراح لأطراف الرماح وملعب
 تجر على متن الطريق عجاجة يطاردها قرن من الشمس أعضب
 نهار بالألاء السيوف مفضض وجقو بجمراء الأنايب مذهب
 ترى اليوم محر الحواشي كأنما على الحق غرب من دم يتصبب
 صدمنا بها الأعداء والليل ضارب بأرواقه جون الملاطين أخطب
 أخذنا عليهم بالصوارم والفنا وراعى نجوم الليل حيران مغرب
 يراعون أسفار الصباح وإنما وراء لثام الليل يوم عصبص
 وكل ثقل الصدر من حاب القنا خفيف الشوا والموت عجلان مقرب
 يحجم إذا ما استرعف الكر جهده كما جمع الغدران والماء ينضب
 وما الخيل إلا كالقذاح يجيلها لغنم فاما فائز أو مخيب
 دعوا شرف الاحساب يا آل ظالم فلا الماء مورد ولا التراب طيب
 لئن كنتم في آل فھر ڪوا بكا اذا غاض منها كوكب فاض كوكب
 فنعتي كنعت البدر ينسب بينكم جھارا وما كل الكواكب تنسب
 صحبتهم خضاب الزاعبيات ناصلا ومن علق الأقران ما لا ينضب
 أهذب في مدح اللثام خواطري فأصدق في حسن المعاني وأكذب
 وما المسدح إلا في النبي وآله يرام وبعض القول ما يتجنب

وأولى بمدحى من أعز بفخره ولا يشكر النعماء إلا المهذب
أرى الشعر فيهم باقيا وكأنما تحلق بالأشجار عنقاء مغرب
وقالوا عجيب عجب مثلى بنفسه وأين على الأيام مثل أبى أب
لعمرك ما أعجبت إلا بمدحهم ويحسب أنى بالقصائد معجب
أعد لفخرى فى المقام محمدا وأدعو عليا للعلا حين أركب

قال البارودي وترجم لها بقوله : « وقال يروض القول على
روى قصيدة الشريف » :

سواى بتحنان الأغاريد يطرب وغيرى باللذات ياهو ويعجب
وما أنا ممن تأسر الخمر لبيه ويملك سمعيه اليراع المثقب
ولكن أخوهم اذا ما ترتجحت به سورة نحو العلا راح يدأب
نفى النوم عن عينيهِ نفس أبيه لها بين أطراف الأسننة مطلب
بعيد مناط الهم فالغرب مشرق اذا ما رمى عينيهِ والشرق مغرب
له غدوات يتبع الوحش ظلها وتغدو على آثارها الطير تنعب
همامة نفس أصغرت كل مأرب فكلفت الأيام ما ليس يوهب
ومن تكن العليا هممة نفسه فكل الذى يلقاه فيها محب
اذا أنا لم أعط المكارم حقها فلا عزنى خال ولا ضمنى أب
ولا حمت درعى كميت طمرة ولا دار فى كفى سنان مذرب
خلقت عيوفا لا أرى لابن حرة لدى يدا أغضى لها حين يغضب

فلست لأمر لم يكن متوقعا
 أسير على نهج يرى الناس غيره
 وإنى إذا ما الشك أظلم ليلاه
 صدعت حفا في طرثيه بكوكب
 وبجر من الهيجاء خضت عجاجة
 تظل به حمر المنايا وسودها
 توسطته والخيل بالخيال تلتقى
 فما زلت حتى بين الكر موقفى
 لدن غدوة حتى أتى الليل والتقى
 كذلك دأبى فى المراس وإنى
 وفتيان لهو قد دعوت وللكرى
 الى مربع يجرى النسيم خلاله
 فلم يمرض أن جاءوا ملهين دعوتى
 بنجيل كآرام الصريم وراءها
 من اللاء لا ياكُن زادا سوى الذى
 ترى كل محمر الجمال يبق فاعمر
 يكاد يفوق البرق شدا إذا انبرت
 فلنا الى واد كان تلاءه
 ولست على شيء مضى أتعجب
 لكل امرئ فيما يحاول مذهب
 وأمست به الأحلام حيرى تشعب
 من الرأى لا يخفى عايه المغيب
 ولا عاصم إلا الصفيح المشطب
 حواسر فى ألوانها لتقلب
 وبيض الطي فى الهام تبدو وتغرب
 لدى ساعة فيها العقول تغيب
 على غيب من ساطع النقع غيب
 لأمرح فى غى التصابي وألعب
 خباء بأهداب الجفون مطنب
 بنشر الخزامى والندى يتصبب
 سراعا كما وافى على الماء ررب
 ضواري سلق عاطل وملبب
 يضرسنه والصيد أشهى وأعذب
 الى الوحش لا يألوا ولا يتنصب
 له بنت ماء أو تعرض ثعلب
 من العصب موشى الحباثك مذهب

تراح به الآمال بعد كلالها
 فبينما نرود الأرض بالعين اذ رأى
 فقمنا الى خيل كأن متونها
 فلما انتهينا حيث أخبر أطلقت
 فما كان إلا لفظة الجيد ان علت
 او قلنا لساقينا أدرها فانما
 نقيم الى راقود نحر كأنه
 يمج سلافا في إزاء كأنه
 فلم نأل ان دارت بنا الأرض دورة
 الى أن تولى اليوم إلا أقاله
 فرحنا نجر الذيل تيهما لمنزل
 مسارح سكير ومريض فاتك
 فلما رأنا صاحب الدار أشرقت
 وقال انزلوا يا بارك الله فيكمو
 وراح الى دنف تكامل سنيه
 فما زال حتى استل منه سبيكة
 يحوم عليها الطير من كل جانب
 فيا حسن ذلك اليوم لو كان باقيا
 ويصبو اليه ذو الجحى وهو أشيب
 ربيئتنا سرى فقال الا اركبوا
 من الضمير خوط الضيمران المشذب
 بزاوة وجات في المقادير أكلب
 قدور وفار اللحم وانفض مأرب
 قهقري بنى الأيام أن يتشعبوا
 اذا استقبلته العين أسود مغضب
 اذا ما استقبلته الأنامل كوكب
 وحتى رأينا الأفق ينادى ويقرب
 وقد كادت الشمس المنيرة تغرب
 به لأنحى اللذات واللهم ملعب
 ومخدع أكواب به الخمر تسكب
 أسارىه زهوا وجاء يرحب
 فعندى لكم ما تشتهون وأطيب
 وشيب فوديه من الدهر أحقب
 من الخمر تطفو في الاناء وترسب
 ويسرى عليها الطارق المتأوب
 ويأطيب هذا الليل لودام طيب

يودّ الفتي ما لا يكون طاعة ولم يدر أن الدهر بالناس قلب
ولو علم الانسان ما فيه نفعه لأبصر ما يأتي وما يتجنب
ولكنها الأقدار تجري بحكمها علينا وأمر الغيب سر محجب
نظن بآنا قادرون وإننا نقاد كما قيد الحبيب ونصحب
فرحة رب العالمين على امرئ أصاب هواه أو درى كيف يذهب



وقال في منفاه :

ردّوا على الصبا من مصرى الخالى وهل يعود سواد اللثة البالى
ماض من العيش ما لاحت مخائله فى صفحة الفكر إلا هاج بلبالى
سلى قلوب فقرت فى مضاجعها بعد الحنين وقلبي ليس بالسالى
لم يدر من بات مسرورا بلذته انى بنار الآسى من هجره صالى
يا غاضبين علينا هل الى عدة بالوصل يوم أناغى فيه إقبالى
غبتم فأظلم يومى بعد فرقتكم وساء صنع الالى بعد إجمال
قد كنت أحسبني منكم على ثقة حتى منيت بما لم يحرفى بالى
لم أجن فى الحب ذنبا أستحق به عتبا ولكنها تحريف أقوالى
ومن أطاع رواة السوء نفره عن الصديق سماع القيل والقال
أدهى المصائب غدر قبله ثقة وأقبح الظلم صدّ بعد إقبال
لا عيب فى سوى حرية ملكت أعنى عن قبول الذل بالمال

تبعث خطبة آبائي فسرت بها على وتيرة آداب وآسال
فما يمزّ خيال الغدر في خلدي ولا تلوح سمات الشر في خالي
قلبي سليم ونفسي حرة ويدي مأمونة ولساني غير مختال
لكنني في زمان عشت مغتربا في أهله حين قلت فيه أمثالي
بلوت دهرى فما أجدت سيرته في سابق من لياليه ولا تالي
حلبت شطريه من يسر ومعسرة وذقت طعميه من خصب واحمال
فما أسفت لبؤس بعد مقدرة ولا فرحت بوفر بعد إقلال
عفاة نزهت نفسي فما عاقت بلوثة من غبار الذم أذيالي
فاليوم لارسني طوع القياد ولا قلبي الى زهرة الدنيا بميال
لم يبق لي أرب في الدهر أطلبه إلا صحابة حرّ صادق الحال
وأين أدرك ما أبغيه من وطر والصدق في الدهر أعيا كل محال
لا في سرنديب لي إلف أجاذبه فضيل الحديث ولا خل فيرعى لي
أبيت منفردا في رأس شاهقة مثل القطامي فوق المربأ العالي
إذا تالفت لم أبصر سوى صور في الذهن يرسمها نقاش آمالي
تهفو بي الريح أحيانا ويلحفني برد الظلال ببرد منه أسمال
فهي السماء غيوم ذات أروقه وفي الفضاء سيول ذات أوшал
كأن قوس الغمام الغرّ قنطرة معقودة فوق طامي الماء سيال

اذا الشعاع تراءى خلفها نشرت بدائعا ذات ألوان وأشكال
 فلو ترانى وبردى بالندى لثق نخلتى فى فرخ طير بين أدغال
 غال الردى أبويه فهو منقطع فى جوف عيناء لا راع ولا وال
 أزيغب الرأس لم يبد الشكير به ولم يصن نفسه من كيد مختال
 كأنه ككرة ملساء من آدم خفية الدرز قد علت بجسريال
 يظل فى نصب حران مرتتباً نغم الصدى بين أسكار وأصال
 يكاد صوت البزاة الفمر يقذفه من وكره بين حبابى الترب جوال
 لا يستطيع انطلافاً من غيابه كأنما هو معقول بهقال
 فذاك مثلى ولم أظلم وربما فضيلته يمسوى حزن وإعوال
 شوق، ونأى وتبريح ومعتبة بالليجة من غدرى وإهمال
 أصبحت لا أستطيع الثوب أسجبه وقد أكون وضافى الدرع سربالى
 ولا تكاد يدى تجرى شبا قلمى وكان طوع بنانى كل عسال
 فان يكن جف عودى بعد نضرتة فالدهر مصدر إدبار وإقبال
 علام أجزع والأيام تشهد لى بصدق ما كان من وسى وإغفال
 راجعت فهرس آثارى فما لحت بصيرتى فيه ما يزرى بأعمال
 فكيف ينكر قومى فضل بادرى وقد سرت حكى فيهم وأمثالى
 أنا ابن قولى وحسبى فى المخاربه وإن غدوت كريم العم والخال

ولي من الشعر آيات مفصلة تلوح في وجنة الأيام كالخال
 ينسى لها الفاقد المحزون لوعته ويهتدي بسناها كل قوال
 فانظر لقولي تجدد نفسي مصورة في صفحتيه فقولي خط تمثالي
 ولا تغررك في الدنيا مشاكلة بين الأنام فليس النبع كالضال
 إن ابن آدم اولا عقله شبح مركب من عظام ذات أوصال



الفصل الأول

صبرى فى صباه

لكل أرض أطيّار تغرد لها بين أرضها وسماؤها ، وجداولها
وأشجارها ، ولكل جميل شعراء يحملون لواءه بين شبابه وشيبه
ويسرون بهم الى الغايات فى أقطار الكمال .

كان البارودى يحمل اللواء فى الوقت الذى كان صبرى
فيه يتعلم الرمايه . درج صبرى وشب فى أيام اسماعيل وكان يميل
بنطرتة الى الشعر والأدب وقد وجد فى بيئته وهو تلميذ مايساعده
على تعطى صناعة الشعر فكان من هذه الوجهة أسعد حظا من البارودى .^(١)

(١) ولد المرحوم اسماعيل باشا صبرى فى ١٦ فبراير سنة ١٨٥٤ وتوفى فى الساعة
نصف صباحا من ٢١ مارس سنة ١٩٢٣ بالغاً من العمر ٦٩ سنة وشهرا ويومين .
وكان دخوله فى المدرسة فى ٢١ جمادى آخر سنة ١٢٨٣ هـ وخروجه من مدرسة الادارة
بعد المبتدیان والتجهيزية فى ٢٦ مايو سنة ١٨٧٣ أو ١١ شوال سنة ١٢٩١
أى فى الثامنة عشر من عمره وأرسل فى ١٧ مايو من السنة عينها تلميذا بالارسالية المصرية
بفرنسا حيث حصل فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٧٦ على شهادة البكالوريا فى الحقوق من
كلية ايكس ، وعلى الليسانس فى ١٣ أبريل سنة ١٨٧٨ ثم عين مساعدا للنيازة العمومية
لدى المحاكم المختلطة ، ووكيلا لها بالمنصورة فى ١٧ فبراير سنة ١٨٨٣ ، ووكيلا =

بدأت فى ذلك العصر حركة أدبية مباركة محورها مجلة
« روضة المدارس المصرية » التى أنشئت فى ١٥ محرم
سنة ١٢٨٧ هـ . وكانت « تظهر فى الأسبوعين مرة واحدة » تحت
إدارة رفاة بك أولا ، ثم تولى شؤونها « ناظر قلم الروضة
ومطبوعات المعارف على بك فهمى نجمل رفاة بك » وكان آخر
ظهورها فى سنة ١٢٩٤ هـ .

كانت هذه المجلة تصدر خصيصا للمدارس وكانت قبل
« الوقائع المصرية » الصحيفة الأدبية الوحيدة التى تنشر فيها
أقلام الطلبة الناشئين . جنبا لجنب مع أقلام فحول هذا العصر أمثال
رفاعة بك ، والشيخ حسين المرصفى أستاذ البارودى والمدرس
بدار العلوم الخديوية الذى كان ينشر فى هذه المجلة دروسا فى الأدب ،
وصالح مجدى ، وعبد الله فكرى ، ومحمد قدرى ، والشيخ حسين والى ،

= محكمة طنطا الابتدائية الأهلية فى ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٨٣ ، ورئيسا لمحكمة بنها الابتدائية
الأهلية فى سنة ١٨٨٥ ، ورئيسا لمحكمة اسكندرية الأهلية فى ٢٢ يونيه سنة ١٨٨٦ ،
وقاضيا بمحكمة الاستئناف الأهلية بمصر فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٩١ ، ونائبا عموميا
من الحضرة الخديوية لدى المحاكم المذكورة فى ٢١ أبريل سنة ١٨٩٥ ، ومحافظا
لنجر الاسكندرية فى ٢٧ فبراير سنة ١٨٩٦ ، ووكيلا لنظارة الحقانية فى ٣ نوفمبر
سنة ١٨٩٩ ، واستقال من الخدمة لبلوغه المرتب الكامل اوظيفته فى ٢٨ فبراير
سنة ١٩٠٧

وإسماعيل الفلكي وغيرهم فكان الشباب يجدون خير منشط لهم
في هذه المجلة التي كانت تنشر شعرهم وكانت لهم في الوقت نفسه
أستاذًا يحتذون على مثاله :

نشرت « روضة المدارس » في عامها الأول في عدد غاية
شوال سنة ١٢٨٧ هـ سنة ١٨٧٠ م قصيدة «تهنئة بالعيد الأكبر
لحضرة الخديوي الأعظم أدام الله علاه بقلم إسماعيل صبرى افندى»
وكان عمره وقتئذ ستة عشر عاما :

سفرت فلاح لنا هلال سعود	ونما الغرام بقلبي المعمود
وجلت على العشاق روض محاسن	فسقى الحياء شقائق التوريد
قسما بنور جبينها وبخالها	وسواد شعر واحمرار خدود
وبقوس حاجبها وسهم لحاظها	وبخصرها وقوامها والحيـد
ليطيب لى فى حبها ذلى كما	فى مدح إسماعيل لذ نشيدى
ومنها :	

سمح تراه اذا حلت بحيه أبدا يحن الى خصال الجود
يبدو صبرى الكبير من هذا البيت كما يبدو قرن الشمس من
خلل الغمام وقد بدأت تتفتق له المعانى الغريبة فيجتنبها، وتهادى
أمامه الألفاظ العذبة فيقتنصها، وهذه لفظة «حى» ستنتقل فى شعره
من بيت الى بيت تنقل الأقمار فى منازلها .

ومنها مخاطبا «آل مصر» :

هيا اجتنوا ثمر العلى من روضه وتفيأوا فى ظله الممدود

هذا البيت يبين لنا عن متتبع خياله ناشئا ، وقوله «يا آل مصر»

يذكرنا قوله «يا آل ودى عودوا ...» والقصيدة فى مجموعها تقليد

لكنه يشف عن شخصية فى طور التكون .

ونشر قصيدة أخرى فى ربيع الآخر سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١م)

مطلعها :

أغررتك الغراء أم طالعة البدر وقامتك الهيفاء أم عادل السمر

ونشرت «روضة المدارس المصرية» فى يوم السبت ١٥ الحجة

سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١م) :

«تهنئة للحضرة الحاديوية بعيد الأضحى من نظم إسماعيل افندى

صبرى من تلامذة مدرسة الإدارة والألسن» :

لا والهوى العذرى والوجد عذل عذولى فيك لا يجدى

إنى مع الصمد وطول الحفا باق على الميثاق والعهد

يا عاذلى أقصر وكن عاذرى ولا تطل لوى على سهدى

فشعره مهما تخيلته أظلى أبكى فى الدجى وحدى

أفديه من حلو مليح البها تاه على الأغصان بالقـد

شوان من نحر الكرى لحظه فى قتلى فاق على الحد

ماس دلالا ورنا قائللا بيض الظبي والسمر من جندى
وقد قلبى وانتى معجبا وقال لى كيف ترى قدى
وقال للورد أما تستحى منى اذا فتحت فى خدى
تغزلى فيه ومدحى لمن رقى الى العلياء فى المهد
من مثل إسماعيل آراؤه باقية تهدى الى الرشد

لقد عرّتنى هزة حين وصلت الى قوله : « تاه على الأغصان
بالقصد » والى هذا الشطر الآخر : « وقال للورد أما تستحى » لأن
كليهما ذكرنى صبرى الكبير ، وانها هزة كالتى تعرف الانسان حين
يلقى رفيق صباه بعد طول بين واختراب ويتفرس فى ملامحه حتى
يعرفه لأيا بعد توهم .

ويظهر أن صبرى بدأ من ذلك الوقت يحتل بفطنته وذكائه
مكانة فى الأدب تسترعى الأنظار فقد نشرت « روضة المدارس »
فى غرة شوال سنة ١٢٩١ هـ ١٨٧٣ م . قصيدة أشارت اليها
فى الفهرس بقولها « تهنئة عيدية من نظم حضرة إسماعيل صبرى
افندى أحد نجباء الارسالية المصرية المقيمة بفرنسا لتعلم العلوم
الادارية » ، ومهدت لها فى الصحيفة التى نشرت فيها بقولها :
« قصيدة للتفنن فى فنون الأدب حضرة إسماعيل صبرى افندى »
وهذا نص القسم الغزلى منها :

كلامكما ان كان مثل سهم	فقلبي كحصن لا يلين لرامي
اذا رميتما قتلى بغير لواحظ	دعاني فدون القصد طول صدام
وان رميتما لي باللام سلامة	أرفقكما يرضى صيال حسام
بروحى الذى لولا أغار من الصبا	عليه لما أنحرت عنه سلامى
وسقيا لدهر بالأمانى محجل	أدرنا به للانس غرة جام
فيا زمنا ما خلته غير سكرة	مضيك أبقي لى نهار غرام
إلام أقاسى ما أقاسى من الجوى	ومن معشرها موا بترك هيامى
وحتام يبدو ما أحب لنا ظرى	ودون حصول القرب ألف محام
لعمرك ذا ظلم الحسين بعينه	أرى الماء لكن لا يبل أوامى
أيا قلب كم تقوى لحمل الذى أرى	ويا جفن كم تجفون لذيد منام
وكم يا فى تفنى الزمان تغزلا	ومدح الخديوى فوق كل كلام

ألا تحس معى أن فى هذه الأبيات أثرا من آثار الحنين الذى
يساعد على نضوج الشاعرية وأن كثرة المران جعلت شاعرنا يصيب
الهدف فى هذا البيت :

فيا زمنا ما خلته غير سكرة	مضيك أبقي لى نهار غرام
وفى هذا البيت الآخر :	

أيا قلب كم تقوى لحمل الذى أرى	ويا جفن كم تجفون لذيد منام
-------------------------------	----------------------------

هذا ما وقفنا عليه من نشأة صبرى والذي يعنينا هو أنه
كان يقول شعرا يشف عن سلامة الذوق وصفاء النزعة، وقد
نشرت "الوقائع" في ٢٩ يونيه سنة ١٨٩١ م ١٣٠٨ هـ قصيدة
«لإسماعيل بك صبرى رئيس محكمة الاسكندرية» يهنيء بها
الخليوي توفيق بعيد الجلوس مطالعها :

عش للعلا مولى وذخرا	واسطع بأفق السعد بدرا
هذا جلوسك عيده	ملا الملا بشرا وبشرى
يوم بطالع يمنه	وجه الزمان غدا أغرا
ألبيسته مننا تهز	معاطف الأيام كبرا
واياب عباس كساه	جلابيا للحسن أخرى
حننت اليه تشوقا	مصرفعاد يؤم مصرا

وظهرت له حوالى هذه السنة قصيدة أخرى أذكر منها أبياتها
الأولى :

لم يدر أن ملامه أغرا كا	إذ لج في بهستانه ونها كا
ياحبذا عدل العذول لو أنه	داواك من ألم الهوى فشفا كا
قف بالديار وحى ربا دارسا	لو يستطيع إجابة حياكا
وانثر دموعك فى ثراه صباية	عل البكاء يزيل بعض جواكا

أثرى تنال من البخيلة نظيرة تأسو جراحك أو تبل صداكا
مهلا أبا العباس فى طرق العلا واستبق منها فضلة لسواكا
هل فى السماء فضيلة لم تحوها تبغى لأجل نوالها الأفاكا

هذا الشعريين عن بطء نضوج صبرى الذى بلغ سبعة وثلاثين عاما ولكنك تراه يقلد البحرى ويبحر فى غباره فى حين أن البارودى جود فى صباه ونضج قبل هذه السن ، وكان « أحمد أفندى شوقى أحد موظفى السكرتارية » فى ذلك العهد ينشر شعرا فى "الوقائع المصرية" يفضل هذا الشعر . لا أظن أن الأمر فى ذلك يرجع الى المحفوظ الذى يستمد منه بعض الشعراء قوّة السبك فيسترون بها ضعف النفس الشعرى فى أوائل الشباب أو أواخر الكهولة ، أو يرجع الى الذوق الذى يقولون أن نضوجه يحتاج الى مران طويل ، واعتقد أن الأمر يتوقف من جهة على الاستعداد الفطرى ، ومن جهة أخرى على المؤثرات الخارجية فى الحياة ، وهذه عوامل قد يجهلها الشعراء أنفسهم أحيانا .

وينحى الى أن صبرى فى هذه الشقة من العمر كان يفتح كتاب الوجود ويتلمس فيه الطريقة البكر التى لم يفتزعها قبله شاعر ولكنه لم يهتد اليها إلا بعد أن حال لون النهار وكان مساء ، بفاء شعره كالشفق المذهب يلمع نوره فى أفق الحياة عند الغروب .

الفصل الثاني

سلامة الذوق

يجدر بنا قبيل التكلم عن شعر صبرى أن نقول إن صبرى لم يلقب « بشيخ الشعراء » إلا لأنه جمع بين مزايَا ثلاث : فضل السبق في السن ، وفضل السبق في قول الشعر والتبريز فيه ، وسلامة الذوق .

وإذا كان لشعر صبرى وأغانيه أثر واضح في تهذيب الأدب العصرى لغة وشعرا فقد كان لذوقه النقد أثر لا عيب فيه إلا اختفاؤه عن أعين الجاهل اختفاء الجدول العذب في الفاف الغاب . نشأ صبرى وهو تلميذ شاب في وقت ارتقى فيه الذوق الأدبى وحسبنا أن نقول أن البارودى كان في ذلك العهد قد جود في الشعر وأن الشيخ حسين المرصفى أحد أئمة النهضة الأدبية في مصر كان ينشر فصولا في الأدب ما زالت منها صافيا يردده طلاب الأدب الى اليوم . ويظهر أن صبرى أحب شعر البحترى صغيرا بخفاء نظمه في صباه نقي الديباجة حسن النسق يشف عن رقة في الطبع والاحساس والذوق .

إذا أضفنا الى ذلك أنه أتم تعليمه فى أوروبا ودرس لغة
الافرنج وأدبهم وأن العناصر الأولى التى ألف منها ذوقه قبل سفره
كانت سليمة لا تشوبها شائبة أدركنا كيف امتاز صبرى على أهل
عصره بذوقه وكان عمدة الشعراء والأدباء يأتون برأيه .

كانوا جميعا يؤمنون داره، وكانت داره تذكرنا الأندية الأدبية
فى القرن السابع عشر فى فرنسا، تلك الأندية التى يرجع اليها الفضل
فى تهذيب اللغة الفرنسية وتجنب الكلمات الحوشية النافرة لأن
السيدات كن فيها الآمرات الناهيات يحاسبن على كل لفظة
ويتلطفن فى الخطاب .

أليس شوقى هو القائل :

أيام أفرح فى غبارك ناشئا نهج المهار على غبار خصاف
اتعلم الغايات كيف ترام فى مضمار فضل أو مجال قواف
ومطران :

أى صاحبي لقد قضى استاذنا البر الحبيب
فعرا قلادتنا - وكا نت زينة الدنيا - شحوب
وحافظ :

لقد كنت أغشاه فى داره وناديه فيها زهى وازدهر
وأعرض شعرى على مسمع لطيف يحس نبو الوثر

ولقد صدق الأستاذ مصطفى صادق الرافعي فيما كتبه^(١) :

«ولم يكن في مصر ممن يحسن ذوق البيان ويميز أقدار الألفاظ بعضها من بعض وألوان دلائلها كالبارودي وصبري وإبراهيم المويدي والشيخ محمد عبده رحمهم الله جميعا . والبارودي يذوق بالسليقة وصبري بالمعاطفة والمويدي بالظرف والشيخ بالبصيرة النفاذة . وذلك شيء ركبته الله في طبيعة صبري ولم يحصله بالدرس أكثر مما حصله بالسوس ومن أجله كان يفضل البحري على غيره» .

ومما أذكره أنني عرضت عليه مرة قصيدة كنت نظمها في العام الهجري وشرتها جريدة المؤيد سنة ١٩١٢ فاستحسن منها هذين البيتين :

مضى العام مذموم الفعال مشيما بأنة محزون ودعوة مشفق
فلا الغرب في ساح اليقين بمهتد ولا الشرق من رق الاسار بمعق

ثم قال لي : «أولى بك أن تنظم خمسة عشر بيتا من هذا الطراز بدلا من أربعين» ، من ذلك يتبين حب الرجل للاتقان . وكان كثير الإعجاب بشوقي ، يقول شوقي ينظم ، وحافظ يبني ، ومطران

يبتدع» ، ولما قال مطران قصيدته الميمية فى حرب طرابلس طرب
وكاد يحن بها جنونا وكان ينشد منها هذا البيت مرارا :
يقول للعلم الخفاق فى يده فى من الأرض ما تختار يا علم
وقابل مطران بعد ذلك فقال له : « لقد أسكرتنى ، أنك فت
الشعراء بستائة عام » .

ولقد كان صبرى يطالع قليلا كل مساء فى دواوين شعراء
الافرنج ، وكان كلما طالع قصيدة عربية أو افرنجية استكرم ثم
قطف . قرأت له ذات يوم قصيدة عينية للبحترى فأعجب أيا
إعجاب بقوله :

لو أن أنواء السحاب تطيعنى لشفى الربيع غليل تلك الأربيع
ما أحسن الأيام لولا أنها يا صاحبي اذا مضت لم ترجع

ومما كان يطرب له من شعر البحتري قوله :

وقفه بالعقيق اطرح ثقلا من دموى بوقفه فى العقيق

وقوله فى الفراق :

ولقد تأملت الفراق فلم أجد يوم الفراق على امرئ بطويل
قصرت مسافته على متروود منه لدهر صباية وعويل

وقوله في سرثية أبي سعيد :

فليهنأ الأروام بعدك إنهم
هدأوا بأطراف الدروب وناموا
امنوا وما امنوا الردى حتى انطوى
في الترب ذاك الكر والأقدام
وقوله :

وبود العدو لو تضعف الجيد ش عليهم وتصرف الآراء
وكان يعجب بقول الآخر :

يا أم عمرو جزاك الله مغفرة ردى على فرادى مثما كانا
لأبارك الله في الدنيا اذا افتترقت أسباب دنياك من أسباب دنيانا

وقول من قال :

لا يهني الناس ما يرعون من كلاء
وما يسوقون من أهل ومن مال
حسب الخليلين نأى الأرض بينهما
هذا عليها وهذا تحتها بالي

وقول ابن خفاجة :

يقابلنا الصباح ببطن حزوى فينكرنا ويعرفنا الظلام
فياطل الشباب وكنت تندى على أفياء سرحتك السلام

وقول الآخر :

هات يابرق قل حديثك عن نبى . د فحيا الإله عنى نجدا
قل وان كان ما تحدث زورا . فلقـد تبرد الأكاذيب وجدا

وكان اسماعيل رحمة الله عليه فى جميع حركاته وسكناته مثالا
عاليا للذوق يتأنق فيها من غير كلفة وتصنع كما يتأنق الربيع فى الباس
الأرض حلة عروس .

ولا ريب أن الذوق من أكبر عوامل النهضة الأدبية واللغوية
والاجتماعية لاسيما فى طور الانتقال ، وقد كان صبرى ذواقا لايدانيه
فى فن الذوق مدانى .

على أن ذوق صبرى الذى زاد صقلا ورونقا مع طول المران
يتجلى فى شعر كهواته ، وهذا شعر خالد ذاع الكثير منه على كل
لسان ، ومن تأمل فيه رأى دقة الصنع ، وصفاء الطبع ، وسمو الخيال .

الفصل الثالث

شعر الكهولة

بدأ شعر صبرى ينضج فى كهولته وقت أن كان البارودى
فى منفاه ، وكان شوقى فى صباه يجرى على الأثر « جرى المهار على
غبار خصاف » ، وقد نظم شوقى سنة ١٨٩١ م قصيدة فى مدح
المغفور له توفيق باشا مطلعها :

مضى وليس به حراك لكن يخف اذا رآك
جاء فيها :

ما همت فى روض الحمى إلا وأسكنى شذاك
والقلب مخفوض الجنا ح يهم فيه على جناك
جاراه صبرى بقصيدة مطلعها :

وجد يؤججه جفاك ولظى تسعره نواك

ولكننى لم أعر على هذه القصيدة ويقال أنها من شعره الجيد
ولعلها أول أثر من آثار النضوج الشعرى عند اسماعيل .

ومما يثبت نضوجه في هذه الآونة قصيدة أخرى نشرتها له
«الوقائع» في ٢٤ أبريل سنة ١٨٩٣ هنا بها الخديوى عباسا بعيد
الفطر، وكان وقتئذ «اسماعيل بك صبرى وكيل محكمة الاستئناف
الأهلية»، وهذا نص القصيدة :

وبقدرك الأسمى يتيه تكبرا	بعلاك يخال الزمان تبخترا
كالروض حياه الربيع فنورا	ومفانح الآباء زاد جمالها
ليل الخطوب بحسن رأيك نيرا	حسب الديار ديار مصر اذ ادجى
مولى يابذ بأن تنام ويسهرا	وكفى الرعية أن يقوم برعيها
وبدت بمتنيه خالك جوهرا	للك سيف منك أحكم صقله
ان السيوف بمصر أكرم عنصرا	شهدت سيوف الهند حين رأيته
قد رد باثرها المصمم أبترا	وعدت تقصر بأن ماضى حاته
سيحدث التاريخ عنها الأعصرا	عباس قد سست البلاد سياسة
دقت على الحكماء أن تتصورا	أنفذت حكمك بادها بمسائل
فلو ان وسطا ليس ثم لكبرا	طربت لحكمتها الشيوخ وأذعنت
للحق نهجا كاد أن يتنكرا	زيفت قول المرجفين مبينا
فأريتنا يأجوج والاسكندرا	وبنيت سدا من ذكائك دونهم
مصر على البلدان ذبلا أخضرا ^(١)	يا صاحب النيل الذى جرت به

(١) لا أظن القارئ بحاجة الى تنبيهه الى ما فى هذا البيت من جمال التصوير .

حققت آمال البلاد وجزتها
 رامتك شبلا كي تعز عرينها
 هم اذا مدت لمفتخر يدا
 وعزيمة ميمونة لو لامست
 لله كيف ركضت في طرق العلا
 لو أن غيرك سالك هضباتها
 لكن جاشك لا يمكن منهجا
 ياليت أصلا أنت خير فروعها
 ويراك تبني المجد مثل بنائه
 وتحير الدنيا بسيرتك التي
 يابن الذين سموا لأبعد غاية
 عزز بناءهم الذي قد وطدوا
 وتول تذليل الصعاب فانها
 ان الذي جعل العزائم بعض ما
 لم يخلق الله الشهامة في امرئ
 ومغالب العقبات حتما غالب
 بشرى فشهر الصوم أقبل باسمها
 ويشيبك الأجر المضاعف راحلا
 شأوا وما جرت الشباب الأنضرا
 فأبيت إلا أن تكون غضنفرها
 لا ترتضى إلا الأعز الأكبزا
 صخرنا لعاد الصخر روضا أزهرها
 فقطعتها حيث المجود قصرا
 ورأى مجاهل سبابها لتعثرها
 يفضي الى العلياء أن يتوعرها
 يوما يرد الى الحياة لينظرا
 وتذود عن حوض الجدود مظفرا
 قد سارها قدما فأكبرها الوري
 فتسمنوا القن الشواخ والذرى
 تشكر وشيده يشدك مفعرا
 مرهونة حتى تقول وتأمرها
 أوتيت قدر أن تعان وتتصرا
 إلا لخير قد أراد ودبرا
 إلا اذا طرح الثبات وأقصرا
 يهدي اليك من السلام الأعطرا
 اذ كنت أفضل من يثاب وأجدرا

شهر كما زنت الامارة ناشرا فينا لواء العادل زان الأشهر
 لله در ندا كما فاقد جرت أيامه أجرا وكفك أبحرا
 بشراك بالعيد السعيد فانه قد أم بابك راضيا مستبشرا
 ورأى بناديك البهى مهابة كتبت على جنبات عرشك أسطرا
 واهنا فان لنا هناء طيبا فى أن تسربه وحظا أوفرا

هذه قصيدة بحترية صرف ، وهى من أصفى الشعر العصرى
 جوهرها ، ومن أراد أن ينظر كيف يحاكى الفرع الأصل فليأمل
 هذه القصيدة ، وقصيدة «فرعون وقومه» ، وقصيدته التى هنا بها
 المرحوم السلطان حسين حينما أسند اليه منصب السلطنة المصرية
 وقصيدته «الى الأمير عمر باشا طوسن بمناسبة اعانته جرحى الحرب
 البلقانية» ، وقصيدته التى قالها سنة ١٩١٤ فى «حفلة تكريم
 واصف بك غالى» ، وقصيدته التى قالها فى حرب طرابلس ،
 وقصيدته التى «عزى بها السلطان حسين بفقد والدته سنة ١٩١٧» ،
 وقصيدته التى هنا بها الخديوى عباس سنة ١٩٠٨

على أن هذه القصائد ليست بحترية بأسلوبها وحده بل بالروح
 التى تشف عنها ، وهذا يدل على شدة تعلق صبرى بالبحترى ونسجه
 على منواله . وهذا البارودى قد نسج على منوال البحترى ولكنه
 لم يتعلق به تعلق صبرى بخفاء شعره يحاكى شعر البحترى فى إحكام

الصناعة ، وصقل الديباجة ، ولكن تنقصه هذه الروح التي تطل من أول شطر في قصيدة صبرى : ” بعلاك يخال الزمان بتخترا “ .

وأذكر مرة أن حافظ حدثنى في الطريق عن البحترى والمتنبى فقال : « البحترى شاعر يفتح ذراعيه في الطريق لمن يقابله ويأخذه بالحضن ، أما المتنبى فيجب أن تقف أمامه زهّار وتضرب سلام » وهذا أحسن تصوير للبحترى وروحه ، وكذلك كان صبرى في حياته وشعره .



ولكن شخصية صبرى الحقيقية نتجلى في خمس أو ست قصائد أخرى قصيرة وفي مقاطيعه التي ضرب فيها على وتر الحكمة ووتر الوجدان . وقد وصف خليل مطران الطريقة التي يجرى عليها في نظمها ، قال : « أكثر ما ينظم فلخطة تخطر على باله من مثل حادثة يشهدها ، أو خبرذى بال يسمعه ، أو كتاب يطالعه .

ولما كان لا ينظم للشهرة بل لمجاعة نفسه على ما تدعوه إليه فالغالب في أمره أنه يقول الشعر متمشياً وربما قاله بحضرة صديق وهو مائل عنه بعنقه وله بين حين وحين أنه بمثل ما تنطق لفظة

«إيه» مستطيلة . ينظم المعنى الذى يعرض له فى بيتين عادة الى أربعة الى ستة وقلما يزيد على هذا القدر إلا حيث يقصد قصيدة وهو نادر . شديد النقد لشعره كثير التعديل والتحويل فيه حتى اذا استقام على ما يريده ذوقه من رقة اللفظ وفصاحة الأسلوب أهمله ثم نسيه . وهكذا يمز به الآن بعد الآن فيجيش فى صدره الشعر فيرسل بيتيه اطلاق زوجى الطائر فيذهبان فى الفضاء ضاربين من أشطرهما بأجنحة ماثمة شاديين على توقيع العروض الى أن يتواريا وينقطع نغمهما من عالم النسيان ذلك هو الشعور للشعر .

كان صبرى فى حياته يترع كثيرا الى قول الحكمة ولكنه لم يوفق فيها كما وفق فى شعره الغنائى الذى امتاز به على جميع معاصريه بلا مرأى .

ولا أعرف له فى الحكمة عدا المقاطيع إلا قصائد "الدواة" و "الساعة" و "نجم هالى" و مرثية أمين باشا فكرى : وفى هذه القصائد تنعكس الحياة وساعاتها والوجود وصوره كما تنعكس الطلول البوالى على صفحة البحيرة الصافية، ولو أن الدنيا تمثلت شخصا لما خاطبها صبرى بأحسن من قول أبى تمام يخاطب عمورية :

ولا الحدود وان آدمين من نجل

أشهى الى ناظرى من خدك الترب

ذلك بأن صبرى شاعر جرب الحياة وذاق حلوها ومررها
 واشتبهت عيناه فى وجوه الأمم والرجال التى حلق فيها طويلا فعلا
 وجهه منها ذلك الشحوب البادى وارثم عليه ظل من الكابة
 كانت تلطفه ابتسامة شفقيه، وهل صور شاعر قبله الحياة بمثل
 قوله :

وان تجد من بيننا ساعة بجعبتها من غصص خالصة
 فإله بها طهو الحكيم الذى لم ينسه حاضره ماضيه
 وأمرح كما يمرح ذو نشوة فى قلة من تحتها الهاوية
 وهل قال أحد فى الوجود وساكنيه مثل قوله وهو من
 الأبيات الجامعة :

تعب الفيلسوف فى الناس عصرا
 وتولى السرائر الدين عصرا
 وقوله وهو من السهل الممتنع النادر :
 عبر كلها الليالى ولكن أين من يفتح الكتاب ويقرا
 ثم انظر كيف يخاطب نجم هالى :

هل تلقيت من لدن خاذل البا غى وحامى الضعيف يا نجم سرا
 أغدا تستوى الأنوف فلا بينه ظر قوم قوما على الأرض شزرا
 أغدا كلنا تراب ولا مد لك خلاف التراب برا وبحرا

أغدا يصبح الصراع عناقا فى الهوى ويصبح العبد حرا
ان يكن كل مايقولون فاصدع بالذى قد أمرت حيث عشا

أبيات تشف عن شغل الحكيم الشاغل فى هذه الحياة، عن
ذلك المثل الأعلى للحرية والإخاء والمساواة الذى أراقت الأُمم
دماءها على بابه المنكود ، ويريد شاعرنا أن يصل اليه من طريق
الموت والعالم الأبدى .

وقد تجلى هذا الشغل الشاغل فى قصيدة "الدواة" حيث
يقول :

واذا الظلم والظلام استعانا يوم نحس بأجهل الجاهلينا
واستمدنا من الشرور مدادا فاجعليه من قسمة الظالمينا

وحيث يقول :

واذا كان فيك نقطة سوء كوّنت من خبائثة كونا
فاجعليها قسط الذين استباحوا فى السياسات حرمة الأضعفينا

وحيث يقول للأتراك بعد الدستور :

الحق أبلج سلوا دون بيضته قبل السيوف سيوفا من براهين
لا تلبسوا ثوبه بين الأنام غدا ملوثا بدم القوم المساكين

ويدخل أيضا فى هذا المعنى قوله يخاطب عباس وقد صاغ

النصيحة في قالب تقرير حقيقة واقعة وهذا غاية في الأدب وحسن
السياسة :

ياليت أصلا أنت خير فروعه يوما يرد الى الحياة لينظرا
ويراك تبني المجد مثل بنائه وتذود عن حوض الحدود مظفرا
وقوله :

مستنجدا من بنى مصر الى شيم اذا رأوا ثلثة في حوضهم جبروا
ولا يفوتنا أن نقول ان في بيت صبرى :

أغدا يصبح الصراع عناقا فى الهيولى ويصبح العبد حرا
لمشهدا من أجل المشاهد التى لا يمكن عينا أن يحيط بها . ويظهر
أن شاعرنا مولع بالمشاهد الواسعة ، وهذه النزعة تتجلى فى قصيدة
”فرعون وقومه“ . من هذه المشاهد ما يتناوله الحس كقوله :

وآزرتة جماهير تسيل بها بطاح واد بماضى القوم ملا ن
ومنها ما يتناوله المعنى كقوله فى وصف الاهرام :

كأنها والعوادى فى جوانبها صرعى بناء شياطين لشيطان
وقوله فيمن شادوها :

بادوا وبادت على آثارهم دول وأدرجوا طى أخبار وأكفان
وخلفوا بعدهم حربا مخلدة فى الكون ما بين أحجار وأزمان

ولعل أجود شعر قاله صبرى فى الحكمة كان شعر الحياة
والموت ، قال رحمه الله يصف « راحة القبر » :

ان سئمت الحياة فارجع الى الأر ض تنم آمننا من الأوصاب
تلك أم أحنى عليك من الأ م التى خلفتك لا لاتعاب
لا تحف فالممات ليس بماح منك إلا ما تشكى من عذاب
كل ميت باق وان خالف العذ وان ما نص فى غضون الكتاب
وحياة المرء اغتراب فان ما ت فقد عاد سالما للتراب

حدثنى حافظ أن هذا البيت الأخير أجود معنى قاله صبرى :
وينخيل الى أن روح أبى العلاء تطل من كل بيت من هذه
الآبيات ، أليس هو القائل :

ضجعة الموت رقدة يستريح الـ

يجسم فيها والعيش مثل السهاد

ولكن أبا العلاء ينظر الى الأرض نظرة أخرى تشف عن
جوى باطن :

خفف الوطء ما أظن أديم الـ أرض إلا من هذه الأجساد

ينظر اليها نظرة الشاعر الفرنسى « الفريدوى فينى » الى

الطبيعة في قوله : « انهم يسمونك أما وما أنت إلا قبر » ، ونظرة
شوق في قوله :

عقت بنيتها ظاهرا وأظن باطنها أعما



عند الإفرنج نوع من الشعر يدعى (Lyrique) نسبة إلى (Lyre) .
وهى القيثارة ولا أدري ما الذى يمنعنا من تسميته بالشعر الغنائى فان
هذا الضرب من الشعر كان يغنى به فى القرون الوسطى وهو شبيه
بالأغاني فى الشعر العربى .

وقد تفنن صبرى فى هذا الشعر الوجدانى ونظم فعلا للغناء .
أدوارا خاصة ، منها : (الفجر لاح قوموا يا تجار النوم) .
ومن أدواره المشهورة دور للغناء قديم على نغمات العود :

مذهب بياتى

قدك أمير الأغصان	من غير مكابر
وورد خدك سلطان	على الأزاهر
دا الحب كله أشجان	يا قلب حاذر
والصمد ويا الهجران	جزا المخاطر

دور

يا قلب أدنت حميت ورجعت تندم
وصبحت تشكى ما رأيت لك حد يرحم
صدق قولى ورأيت ذل المتهم
يا ما نصحتك ونهيت لو كنت تفهم

دور

أعرض لحسبك أوراق واكتب ودون
وأبات صريع الأشواق واحسب وانحن
دا هجر وصباية وفراق يارب هون
وارحم قلوب العشاق دا شئ يحزن

وشعره الغنائى أنواع منها النوع المتقدم الذى جعل خصيصا
للغناء، ومنها ما تتخلله نزعة دينية — وقد نظم لامرتين من هذا
النوع ديوانين — مثال ذلك قول شاعرنا :

الى الله

يارب أين ترى تقام جهنم
للظالمين غدا وللأشرار
لم يبق عفو لك فى السموات العلى
والأرض شبرا خاليا للنار

يا رب أهانني لفضلك واكفني
 شطط العقول وفتنة الأفكار
 ومر الوجود يشف عنك لكي أرى
 غضب اللطيف ورحمة الجبار
 يا عالم الأسرار حسبي مخنة
 علمي بأنك عالم الأسرار
 أخلق برحمتك التي تسع الورى
 ألا تضيق بأعظم الأوزار

هذه الأبيات من خير ما قيل فى الاستعطاف والرجاء ، وهى
 من أرقى الشعر الغنائى الذى يعلو بالعاطفة الدينية الخالصة الى السماء
 كما تعلو الصلوات لله ، وما أكثر الشبه بين قوله :
 ومر الوجود يشف عنك لكي ارى

غضب اللطيف ورحمة الجبار

وقول لا مرتين :

Et j'ai monté devant sa face.

et La nature m'adit passe.

Ton sort est su blime, Il t'a vu.

«صعدت أمام وجهه الكريم ، فقالت لى الطبيعة سرفى طريقك ،»

ما أعظم شأنك ، انه رآك » .

فأنت ترى كيف التقى الشاعران فى سمو الخيال وصفائه ، على
أننا اذا قلنا ان شعر صبرى الغنائى كان شبيها بالصلاة التى تذهب
صعدا نحو السماء فقد كانت الطبيعة له معبدا ، وكانت المرأة فى هذا
المعبد «تمثال جمال» :

يا لواء الحسن أحزاب الهوى	أيقظوا الفتنة فى ظل اللواء
فرقتهم فى الهوى ثاراتهم	فاجمعى الأمر وصونى الأبرياء
إن هذا الحسن كالماء الذى	فيه للأُنفس رى وشفاء
لا تذودى بعضنا عن ورده	دون بعض ، واعدلى بين الظماء
أنت يم الحسن فيه ازدحت	سفن الآمال يزجيها الرجاء
يقذف الشوق بها فى مائج	بين بلحين ، عناء وشقاء
شدة تمضى وتأتى شدة	تقتفيها شدة ، هل من رجاء
ساعنى آمال أنضاء الهوى	بقبول من سجاياك رخاء
وتجلى واجعلى قوم الهوى	تحت عرش الشمس بالحكم سواء
أقبلنى نستقبل الدنيا وما	ضمته من معدات الهناء
واسفرى ، تلك حلى ما خلقت	لثوارى بلثام أو خباء
واخطرى بين الندامى يحلفوا	أن روضا راح فى النادى وجاء
وانطقى ينثر اذا حدثتنا	ناثر الدر علينا ما نشاء
وابسمى ، من كان هذا ثغره	يملا الدنيا ابتساما وازدهاء

لا تخافى شططا من أنفس تعثر الصبوة فيها بالحياء
راضت النخوة من أخلاقنا وارتضى آدابنا صدق الولاء
فلو امتدت أمانينا الى ملك ما كدرت ذاك الصفاء
أنت روحانية لا تدعى ان هذا الشكل من طين وماء
وانزعى عن جسمك الثوب يهن للملا تكوين سكان السماء
وأرى الدنيا جناحى ملك خلف تمثال مصوغ من ضياء

نشرت هذه القصيدة لأول مرة في "المجلة المصرية" في يونيه سنة ١٩٠١ ، وهذا ما قاله خليل مطران بهذه المناسبة : « كانت الغزليات قبل الآن فيها ما يمس الآداب العمومية من ذكر القدود والنهود والفم والعناق ورقة الخصر وكثافة الردف ولقد كان هذا من العام حتى في قصائد المسديح للملوك والأمراء وهو ما لا ترضاه الأذواق في هذه الأيام وينكره علينا أدباء الغرب . وقد سئل صاحب السعادة المفضل اسماعيل باشا صبرى نظم أبيات تنقل الى اللغة الفرنسية وتجعل في كتاب يؤلف الآن في مختار الشعر العربى قديمه وحديثه بشارات قريحته الوقادة بهذه الأبيات التى جاءت على الطريقة الصوفية من حيث سمو الخيال ونزاهة الشيمة وغرابة الوضع ولعلها أحسن ما جمع فيه بين الأسلوبين العربى والغربى . فى نظم الشعر .

يحب صبرى المرأة لأنها تمثل الجمال وهو ينظر اليها نظرة المصور
الماهر الى دمية جميلة يجد في جمالها ظلا يتزوى فيه من هجير الحياة :
ان هذا الحسن كالماء الذى فيه للأُنفس رى وشفاء

وقد يفتن الجمال المصور أو الشاعر ويسمو به الى أعلى مراقى
الخيال ، فتتمثل المرأة كأنها قطعة من النور الإلهى هبطت على الأرض
لتلقى عليها عزاء وسلاما ، وهنا يقف الشاعر موقف العابد ، وتصفو
نفسه ، وتعلو كقطعة من نور تلتقى بالأخرى ثم تتلاشيان تلاشى
الموجتين على ساحل الفناء :

لا تخافى شططا من أنفس تعثر الصبوة فيها بالحياء
فلو آمتدت أمانينا الى ملك ما كدرت ذاك الصفاء
وانزعى عن جسمك الثوب بين لللا تكوين سكان السماء
وأرى الدنيا جناسى ملك خلف تمثال مصوغ من ضياء

وأعرف لصبرى أبياتا أرق من نسيمات السحر، تكاد تبعث
ميت الهوى ، وتعيد أيام الشباب النضر، وتفجر الماء الزلال من
الصخر، قال رحمه الله شا كيا مسترحما :

أبتك ما بى فان ترجى رحمت أخا لوعة مات حبا
وأشكو النوى ما أمر النوى على هائم ان دعا الشوق لبنا
وأخشى عليك هبوب النسيم وان هو من جانب الروض هبا

وأستغفر الله من برهة من العمر لم تلقني فيك صبا
تعالى نجد زمان الهناء ونهب لياليه الغر نهباً
تعالى أذق بك طعم السلام وحسبي وحسبك ما كان حرباً

أجل ، كانت المرأة شغل فؤاده ، وقد بلغ من تعلق شاعرنا بها
أنه كان يراها في حاضره ، وكان يراها بعين الذكرى في ماضيه ،
ومن ذا الذي يذكروا روض الشباب ولا يذكروا القمارى ، فينشد :

تمسى تذكرنا الشباب وعهده حسناء مرهفة القوام فتذكر
تثب القلوب الى العيون اذا بدت وتطل من حديق العيون وتتنظر

وتارة :

أخفق فؤادى فما الذكري بفاعلة ولا بشافعة فى رد ما كانا
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمنا حمل الصبا به فافحق وحدك الآن

كان صبرى يرى المرأة فى صورة ملك ، وقد يراها غيره فى صورة
الدنيا التى قال فيها أبو نواس :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق

والتي قال فيها ابن المعتز: «وعد الدنيا الى خلف ، وبعد أمانها
الفيج ، طواحة طراحة ، آسية جراحة ، كم راقد فى ظلها قد أيقظته ،
وواثق بها قد خانتها ، حتى يلفظ نفسه ويودع دنياه» .

وكان يراها فى صورة ريحانة تحسد السماء من أجلها الأرض :

ياراحة القلب يا شغل الفؤاد صلى

متى أنت فى الحالىن دنياه

زنى الندى وسيلى فى جوانبه

لطفًا يعم رعايا اللطف رياه

ريحانة أنت فى صحراء مجدبة

من الرياحين حيانا بها الله

ان غاب ساقى الطلا أو صدأ حرج

هذا جمالك يغنيننا محياه

أليس يخيل اليك أن هذا الشعر نغمات موسيقية هببت علينا
خلسة من السماء هبوط الندى فى ليلة من ليالى الربيع ، تلك نغمات
تشف عن نفس محزونة تحن الى منازل الكمال فى ذلك العالم العلوى
كما يحن غريب الدار الى الأوطان ، وهذا الحزن أكبر مميزات الشعر
الغنائى ، شعر العاطفة والوجدان ، ولعل مطران أشار الى ذلك
بقوله :

بلغ الحقيقة شاعر ما غره الوهم الكذوب

أوفى على عذب وما هو عن محاسنها غريب

كان شاعرنا يفتش عن الحقيقة وهي ظل الرجل في دنياه
كلما تبعها أمعنت في الهرب ، قال من أبيات له يخاطب سيدة
”رعى الكسندرا :

انثرى الدر يا سمينة اسكنه بدر لا فض عقده في فيك
وأميطى عن الحقيقة ما يح يجب عنا جماها من شكوك

والشاعر الغنائى أبدا يهيم فى وادى الغرائب ، ويتخذ الجمال
ومظاهره فى هذه الحياة الدنيا سلما من ضياء يرقى به أسباب السماء .
ذلك بأن أزاهير الأرض سريعة الذبول ، ونجومها سريعة الأفول ،
وجماها سريع الزوال كالنار لا تلبث أن تحور رمادا ، وهذا الرماد
الذى يذوقه كل من أحب وجرب وعاش وشب فى حجر الجمال
يجبب الى الانسان طعم العدم والفناء ، ويدفعه الى مناجاة الموت
مناجاة الالف أليفه :

ياموت خذ ما أبقيت الأ يام والساعات منى
يبنى وبينك خطوة إن تخطها فرجت عنى

وقد حدثت لصبرى وهو محافظ الاسكندرية حوالى
سنة ١٨٩٧ روض على أثر اصطدام القطار به فى طريقه الى القاهرة
فظل غائبا عن الوجود خمسة عشر أو عشرين يوما . روى لى حافظ

أنه قابله بعد إبلاله فقال له صبرى مامعناه : «وددت أنى لم أفق
فقد ذقت مرارة الوجود» .

على أن هذا الرجل الذى كان يحب فى الموت ذلك «المتقذ
الساوى» ، كما كان يسميه لاهوتين ، ما كان أشد جزعه كلما رأى
الصراع القائم فى هذه الدنيا بين الموت والجمال ، ورأى البلى يغير
على حسن الوجوه ، والفناء يلب فى مخضر الشجر .

وهل بكى شاعر حبه للطبيعة ، وودّ لو نزل منها مكان سمعها
وبصرها ، وظل بين نحرها وصدرها ، حتى تواريه فى قبرها ، بمثل
قوله يناعى سرحة الحى :

عار عليك وهذا الظل منتشر فتك الهجير بمثل فى نواحيك
فمن معيرى جناحى طائر غرد كى أقطع العمر شدوا فى أعاليك
ثم انظر كيف رثى ابنا صغيرا للشيخ على يوسف بأبيات
ارتجلها يوم دفنه ، وقال عنها المؤيد انها "لصديق" من كبار
الشعراء :

يامالى العين نورا والفؤاد هوى والبيت أنسا تمهل أيها القمر
لا تحل أفقك يخالفك الظلام به والزم مكانك لا يحلل به الكدر
فى الحى قلبان باتا يا نعيمهما وفيهما اذ قضيت النار تستعر
وأعين أربع تبكى عليك أسى ومن بكاء الشكالى السيل والمطر

قد كنت ريحانة في البيت واحدة يروح فيه ويغدو نفحها العطر
ما كان عيشك في الأحياء مختصرا إلا كما عاش في أكامه الزهر
فارحل تشيعك الأرواح جازعة في ذمة الله بعد القبر يا عمر

لم يجد المرحوم الشيخ على يوسف في رثاء ابنه أفضل من نثر
هذا الشعر لا سيما البيتين : « في الحى قلبان ... وأعين أربع تبكى
عليك أسي » . ذلك بأن صبرى أجاب في بكاء هذا الطفل
داعية الجمال ، وقد ذوى منه ذلك الفريع المتدلى في دوحته .

وقصارى القول كان صبرى في شعره الغنائى ينشد الحب
والموت والجمال والصدقة فكان يجد فيها ريا للنفوس الظماء ،
وكانت الصدقة تنزل من نفسه منزلة الحب فقال :

ولما التقينا قرب الشوق جهده شجيين فاضا لوعة وعتابا
كأن صديقا في خلال صديقه تسرب أثناء العناق وغابا

ولا أرى رأى الأستاذ مصطفى صادق الرافعى في تعليقه على
هذين البيتين : " وهذا المعنى على ابتداعه فيه متداول وأصله لبشار
— أظن — في قوله :

وبتنا جميعا لو تراق زجاجة من الخمر فيما بيننا لم تسرب

فأبدع صبرى فى أخذه وجعل من هذه الزجاجة المنصدة
جوهرة تتألق : على أنى لا أستحسن قوله « كأن صديقنا » فما هذا
بعناق الأصدقاء .

وأرى اذا كان لا بد وأن يكون صبرى قد أخذ هذا المعنى من
أحد قبله ، وهذا مالا أظن ، فقد أخذه من (Montaigne)
« مونتينى » الفيلسوف الفرنسى فى القرن السادس عشر الذى قال
فى موقف عناق : « وما كنت أدرى أكان هو أم أنا »
(Je ne sais pas si c'est lui, si c'est moi) يشير بذلك الى
فناء الشخصين أحدهما فى الآخر .

ثم انظر الى دقة تصوير الذكري التى تتمثل فى طيف الود
وتتدخل بلطف بين الصديقين المختصمين فتكسر السهم والقوس :
اذا خائنى خل قديم وعقنى وفوقت يوما فى مقاتله سهمى
تعرض طيف الود بينى وبينه فكسر سهمى فانشيت ولم ارم
على أن هناك ضربا من الشعر الغنائى أجاد فيه صبرى ، ذلك
هو حب الديار والأوطان ، قال الشاعر ثرلين : « حب الوطن
أول حب وآخر حب بعد حب الله » ، وقال صبرى : « أحب
الحرية فى ثلاث : فى المرأة فى ظل زوجها ، وفى الرجل تحت ظل
شريعته ، وفى الوطن تحت ظل الله » . وقد يكون هذا الحب

حيننا بحثا كقوله عن لسان شوقي وهو بالأندلس (وهى أبيات غير
التي أرسلها شوقي إليه وقيل وقتئذ أن شوقي بعث بها الى حافظ) :
ياسا كنى مصر انا لا نزال على عهد الوفاء وان غبنا مقيمينا
هلا بعثتم لنا من ماء نهركم شيئا نبيل به احشاء صاديننا
كل المناهل بعد النيل آسنة ما أبعد النيل الا عن أمانينا

وقد يكون هذا الحب تقريرا مرأى لبنى وطنه على القعود عن
الدود عن حقوق البلاد ، ولكنه تقرير في قالب هنزلى نتجلى فيه
تلك النكتة المصرية اللطيفة التي تشف عن دقة الملاحظة وخفة
الروح ^(١) . أنظر الى قوله على أثر استقالة وزارة مصطفى فهمى عن
لسان بعض أعضائها ، وقد نشرت هذه المقطوعات فى أهرام
١٦ نوفمبر سنة ١٩٠٨ ، قال عن لسان « مصطفى » بتوقيع بنتاؤور :
إنى أسـتغفر الله لكم آل مصر ليس فيكم من رجال

(١) نذكر بهذه المناسبة أن المرحوم صبرى باشا نظم مقطوعات فكاهية كثيرة.
فى حوادث شخصية شتى منها ما نشر وعرف لوقته ومنها ما لا يعرفه إلا القليلون
وزهد أكثره فى عالم النسيان . فن النوع الأول ما قاله فى « مصفوع » :

أنا نسل الأولى رفـعوا بناء	يرى للنسر فوق ذراه بيت
أريش يراعى بمداد خبثي	وانى لاح لى هدف رميت
وان أحد تعرض لى بسوء	وقفت وراء صدغى واختفيت

فل غربى ما أرى من نومكم
بح صوتى داعيا مستنهضا
لم أجد فيكم قى ذا همة
رحم الله وزيرا سامه
ورضا كم بوجود الاحتلال
صارخا حتى تولانى الكلال
إن عدا الدهر عدا أوصالصال
قومه ما ليس يرضى فاستقال
وقال عن لسان عبانى :

يا جنود البر والبحر اشهدوا
ذى يدى قد مزقتها لقم
ذاك جسمى رسم الدهر على
اننى عفت تكاليف العلى
واسمعوا منى كليات فصاح
تجتنى من فوق أطراف الرياح
كل عضو منه أهوال الكفاح
بينكم والعيش فى ظل الصفاح
ملئت نفرا يداه فاستراح
رحم الله وزيرا عاملا

وقد يكون هذا الحب استنهاضا لقومه وحثا لهم على الاقتداء
بمثل حى فى أمة من الأمم الحديثة الناهضة . مثل ذلك :

نشر شوقى فى "أهرام" ١٨ ديسمبر سنة ١٩٠٨ قصيدة
فى الدستور العثمانى جاء فى ختامها :

يا شعب عثمان من ترك ومن عرب
صبرت للحق حين النفس جازعة
نلت الذى لم ينله بالقنا أحد
ما بين آمالك اللأئى ظفرت بها
حيالك من يبعث الموتى ويحييها
والله بالصبر عند الحق موصيها
فاهتف لا نورها وأحمد نيازها
ويين مصر معان أنت تدريها

ثم كتبت الأهرام في ٢١ ديسمبر سنة ١٩٠٨ ما نصه :
 « لما وصل أحد أعلام الشعر عندنا الى ختام قصيدة شوقى التي
 نشرناها يوم الاحتفال بفتح مجلس المبعوثان جاشت قريحته وقال :
 لو أنصف شاعر الأمير لأتم قصيدته بعد قوله يخاطب
 مجلس المبعوثان :

ما بين آمالك اللأى ظفرت بها وبين مصر معان أنت تدريها
 بما أقوله على لسانه ثم تناول القلم وقال ، (الأبيات
 لصبرى) :

يا مصر سبرى على آثارهم وقفى	تلك المواقف فى أسنى مجاليها
لا يؤئسبك ما قالوا وما كتبوا	بين البرية تضليلا وتمويها
إن يمنعوا الناس من قول فممنعوا	أن ينطق الحق بالشكوى ويديها
الحق أكبر من أن تستبد به	يد وان طال فى بطل تماديها
ما ضيع الله ظلمها أمة نهجت	الى المفانحز نهجا وهو هاديها
فقلدوا الأمة الكبرى وقدر كبت	متن الفخار وكان الجدد حاديها
تماسكت وهى شتى فهى واحدة	فى القصد حين رأت كثرا أعاديها
يا آية الفخر هلا تنزلين كما	نزلت ثم على مصر وأهلها
كما نجر ذيولا منك بحررها	من قبلنا الترك فى أوطانهم تها
يا عابدين لأنت اليوم مصدرها	وفى ذراك باذن الله موحيا

وقد يكون هذا الحب حثا لقومه على الاقتداء بأمة من الأمم
الكبيرة فى الأعصر الغابرة ، وهل هناك مثل أقرب إلينا من أمة
الفراعنة التى يخاطبها فرعون بقوله :

لا القوم قومى ولا الأعوان أعوانى

إذا ونى يوم تحصيل العلاوانى

ولست أن لم تؤيدنى فراعنة

منكم بفرعون عالى العرش والشأن

ولست جبار ذا الوادى إذا سامت

جباله تلك من غارات أعوانى

لا تقربوا النيل أن لم تعملوا عملا

فأؤه العذب لم يخلق لكسلان

ولهذه القصيدة تاريخ لا يعرفه إلا القليلون ، ويمجد بنا أن
نذكره فإن خطر الموضوع لا يخفى على أحد . كان الأستاذ
خليل مطران بعث بقصيدة دالية إلى محمد بك مسعود بالمؤيد من
سقاره على أثر زيارته لأهرامها ، جاء فى هذه القصيدة عن فرعون

شاد فاعلى وبنى فوطدا لا للعلى ولا له بل للعدا

مستعبدا أمته فى يومه مستعبدا بنيه للعادى غدا

وجاء فيها عن العمال المصريين الذين بنوا الأهرام :

انى أرى عد الرمال ههنا خلائقا تكثر ان تعددا
مجتمعين أبحرا منفرعين أنهم را منحدرين صعدا
صفر الوجوه ناديا جباههم كالكلأ اليابس يعلوه الندى
اكل هذى الأنفس الهلكى غدا تبني لفان جدثا مخلصا

اطلع صبرى على هذه القصيدة التى تؤيد نظرية تخالف
نظريته فنظم نونيته قائلا أن هذه البنايات لم تتم إلا على يد عمال
كانوا يطلبون الاتقان الفنى إكراما للفن لا خوفا ولا طمعا .
والحقيقة أن صبرى راعى فى نظريته ما يسمونه « بالوجهة التاريخية
الوطنية » ، أما مطران فقد نظر الى الوجهة العلمية التى يؤيدها
التاريخ فان بناء الأهرام ما كان إلا سخرة أرهقت الملايين من
المصريين وأثارت السخط فى البلاد مدة قرنين ، ونظر أيضا الى
الوجهة الاجتماعية القديمة فان الظلم من شأنه إفساد الأخلاق التى
لا تحيا الأمم بدونها .

على أن شوقى وفق بين النظريتين بطريقة شعرية فلسفية
فى قوله :

ولن هيا كل قد علا البانى بها بين الثريا والثرى تنسق

هى من بناء الظلم الا أنه يبيض وجه الظلم منه ويشرق
 لم يرهق الأمم الملوك بمثلها نخرا لهم يبقى وذكرا يعبق
 وقد نظم خليل مطران ردا على قصيدة صبرى نونية أخرى
 لم يسبق نشرها، وكان ذلك على أثر مشاهدته بعض الآثار ورؤية
 تمثال محفوظ لمسييس الثانى فى الأقصر . وفى هذه القصيدة عاد
 مطران الى نظريته الأولى لأنه يرى أن المجد لا يمس وأن عظمة
 مصر باقية سواء أكان أصل البنيان الظلم أم غيره وأن الفراعنة
 نهضوا بمصر وان كان اعتقاد الشاعر أن ضررهم كان أكبر من
 نفعهم فى جانب شخصية الأمة وتكوينها الحر، قال مطران :
 أكبر برمسييس ميتا لا يلم به موت وأكبر به حيا الى الآن
 لولا تماثيله الأخرى محطمة ما جال فى ظن فان أنه فان
 فى مصر عز فراعين فما بلغوا بها مبالغه من رفعة الشان
 ولم يتم لها فى غير مدته ما تم من فضل اثناء وعمران
 تخير الخطة المثلى له ولها يعلوفتعلو به وانخفض للشانى
 ما زال بالقوم حتى صار بينهم اله جنس تحاييه وكهان
 ورب سائمة بلهاء هائمة تشقى وتهواه فى سر وعلان
 يسومها كل خسف وهى صابرة لا صبر عقل ولكن صبرايمان
 إن بات فى حجب باءت الى نصب يلوح منه لها معبودها الجان

فبجلت تحت تاج الملك مدميها وقبلت دمها في المرمر القاني
مخلدا دون من قاموا برفعته من شوس حرب وصناع واعوان
مخالسا ذمة العليا مضطجعا من مهد عصمتها في مضجع الزاني
بحيث آب وكل الفخر حصته ولم يؤب غيره الا بحرمان
كم راح جمع فدى فردوكم بذات في مشترى سيد أرواح عبدان



كلا وعزته فيما طغى وبغى وذل من قبل الضيزى باذعان
هم الدين على عسر بمطالبة قد اسعفوه باموال وفتيان
وهم على سفه دانوا بمن نصبوا نحاوله مدينا حق ديان
فيم الا الى صنعوا انصابه درست رسومهم منذ باتوارهن اكفان
وما لاسمائهم دون اسمه دفنت شعشا منكرة في رمس كتمان
ليت البلاد التي اخلاقها رسبت يعلو باخلاقها تيار طغيان
النار أسوغ وردا في مجال على من بارد العيش في افياء فينان
اكرم بذى مطعم في جنب مطعمه ينجو الا ذلاء من خسف وخسران
يهب فيهم كاعصار فينقلهم من خفض عيش الى هيجاء ميدان
بعض الطغاة إذا جلات اساءته فقد يكون به نفع لأوطان
في كل مفتخرة تسمو الشعوب بها تفنى جموع مفاداة لأحدان

كم فى سنى الكوكب الوهاج مهلكة
 فى كل ملح لا ضواء وألوان
 لم ترق فى حقبة مصر كما رقت
 فى عصره بين أمصار وبلدان
 لما رمت كل نائى الشوط ممتنع
 بسابقين الى الغايات شجعان
 الا ترى فى بقايا الصرح كيف مضوا
 باوجه باديات البشر غران
 وكيف عادوا ورمسيس مقدمهم
 الى الربوع باوساق وغلمان

كلا الشاعرين فى قصيدته يستنبط عبر التاريخ وينظمها درسا
 نافعا لامته ، وكلاهما يحيب داعية الوطنية ويتنصر للحق والعدل
 وان اختلفت وجهتا نظرهما ، وهما متفقان فى جوهر الموضوع ،
 فى الاشادة بذكر عظمة مصر الغابرة ، وعظمة الفراعنة ، وتنبيه
 الخلف الى مجد السلف .



قلنا ان صبرى انفرد بالشعر الغنائى بين معاصريه ونزید الى
 ذلك أن الفضل الاكبر فى ارتقائه الى هذا المنصب العالى فى الأدب

يرجع الى مقاطيعه التي حلق بها في أعلى سماء ، وتمتاز هذه المقاطيع بالروح التي تشف عنها ، لا بالمعاني الغريبة أو الجديدة التي لا يفهم بعض الناس الشعر بدونها ، تمتاز بتصوير العاطفة والوجدان تصويرا صادقا لا يشوبه تعمل ، تصويرا يخاطب القلب قبل العقل ويرد الشعر الى نبعه الصافي الأول ، وهل كان الشعر الا شعورا ؟ وهل كانت تقاطيع الأعارض الا غناء .

وقد قال صبرى الشعر فتغنى به الناس ، وكانت اذنه كما قال حافظ « تحس نبو الوتر » فارضى بذلك ذوقه ، وارضى سجيته ، وأرضى الشعر ، وسيبقى شعره خالدا ما بقى في مصر قلب يخفق وشعب يسمو الى العلياء .

الفصل الرابع

مختارات

فرعون وقسومه

”لا القوم قومي ولا الأعوان أعواني
ولست ان لم تؤيدني فراعنة
لا تقربوا النيل ان لم تعملوا عملا
ردوا الحجرة كدا دون مورده
وابنوا كما بنت الأجيال قبلكم
أمرتكم فأطيعوا أمر ربكم
فالملك أمر وطاعات تسابقه
لا تتركوا مستحيلا في استحالته
اذا وني يوم تحصيل العلا واني
منكم بفرعون على العرش والشان
فماؤه العذب لم يخلق لكسلان
أو فاطلبوا غيره ريا لظمان
لا تتركوا بعدكم نفرا لانسان
لا يثن مستمعا عن طاعة ثاني
جنبنا لجنب الى غايات احسان
حتى يميظ لكم عن وجه امكان“



مقالة قد هوت من عرش قائلها
مادت لها الأرض من دعر ودان لها
لو غير فرعون ألقاها على ملاء
على مناكب أبطال وشجعان
ما في المقطم من صخر وصوان
في غير مصر لعدت حلم يقظان

لكن فرعون ان نادى بها جبلا
وأزرتة جماهيم تسيل بها
يننون ما تقف الأجيال حائرة
من كل ما لم يلد فكروا فتحت
ويشبهون اذا طاروا الى عمل
برا بذى الأمر لا خوفا ولا طمعا

لبت حجارتة فى قبضة الباني
بطاح واد بماضى القوم ملائ
أمامه بين إعجاب واذعان
على نظائره فى الكون عينان
جنا تطير بأمر من سليمان
لكنهم خلقوا طلاب اتقان



أهرامهم تلك حى الفن متخذنا
قد مر دهر عليها وهى ساهرة
لم يأخذ الليل منها والنهار سوى
كأنها - والعوادي فى جوانبها
جاءت اليها وفود الأرض قاطبة
فصغرت كل موجود ضخامتها
وعاد منكر فضل القوم معترفا
تلك الهياكل فى الأمصار شاهدة
وان فرعون فى حول ومقدرة
اذا أقام عليهم شاهدا حجر
كأنما هى والأقوام خاشعة

من الصيخور بروجاً فوق كيوان
بما يضعضع من صرح وايدوان
ما يأخذ النمل من أركان شعلان
صرعى - بناء شياطين اشيطان
تسمى اشتياقا الى ما خلد الفانى
وغض بنيانها من كل بنيان
يشنى على القوم فى سر وعلان
بأنهم أهل سبق أهل إمعان
وقوم فرعون فى الاقدام كفؤان
فى هيكل قامت الأخرى ببرهان
أمامها صحف من عالم ثانى

تستقبل العين في أنثائها صور
لو أنها أعطيت صوتا لكان له
فطبيعة الرمز دارت حول جذران
صدى يروع صم الانس والجنان



أين الألى سجالوا في الصخر سيرتهم
بادوا وبادت على آثارهم دول
وصغروا كل ذى ملك وسلطان
وأدرجوا طى أخبار وأكفان
وخلفوا بعدهم حربا مخلة
وزحروا عن بقايا مجدهم وسطا
في الكون ما بين أحجار وأزمان
عليهم العلم ذاك الجاهل الجانى
جلال أكرم آثار وأعيان
إذا هما وزنا يوما بميزان
للجهل أرجح منه في جهالة



وقال يرثى صديقه المرحوم أمين فكرى باشا :

وهبتك يا دهر من تطالب
طويت المودة في شخصه
أبعد أمين أخ يصحب
فأى وداد آمرئ أخطب
وأى شمائله أنذب
فبينى وبينك ما يوجب
من القلب أو أنت لى أقرب
وهذا لذا ابن وهذا أب
ين نديمي جذيمة لا يكذب
وإذ نحن هذا لهذا أخ
ومن قال عنا من الناظر

حسبت بأنك لي خالد
 أفي ذا الشباب وهذا الأها
 ويودي الذكاء ويقضي الوفا
 عجيب من الموت أفعاله
 بذحككم الله في خلقه
 وجدت الحياة طريق المما
 ويعثر فيه الفتى بالشبا
 ويتعب بالزاد فيه الفقيه
 ويشقى أخو الجهل في جهله
 موارد مشروعة للحيا
 أعلم عين الردي من تصيد
 ألتكامل نور الأمل
 وأوفي المكارم ما أملت
 ودان له أمل في الحياة
 طواه الردي عما فانطوى
 فيا نائيا والهوى ما نأى
 هنيئا لدار تيممتها
 وجاورها ككوثر من خلا
 فكان الذي لم أكن أحسب
 ب يموت الفتى الطاهر الطيب
 وتردى الفضيلة أو تعطب
 وعتي على فعله أعجب
 لكل أمرئ أجل يكتب
 ت وكل إلى حنقه يسرب
 ب ويدلف بالعلة الأشيب
 ر وأهل الغنى بالغنى أتعب
 ويخرج بالعالم المذهب
 ة فأى موارد الأعدب
 ب وتدرى يد الموت من تضرب
 ن وتاه به الشرق والمغرب
 وأعطي الفضائل ما تطلب
 وتم له في العلى مأرب
 به أمل مقبل نقيب
 وذ كراه في البال لا تعزب
 لقد زارها الملك الأطيب
 لك حلومع الخلد مستعذب

لدى منزل برقه خلب	تعمت فيها وخلفتنى
وقلب الصديق به قلب	وداد الصديق به حول
م ولكن هجرانه أصعب	وصعب على الحر فيه المقام
لأنت الفراديس أو أخصب	ويا تربة حل فيها الأمين
وجادك رضوانه الصيب	حسبت على رحمت الرحيم
وأنت لأذيالها تسحب	ولا زالت السحب منهلة
تخامرها مهج تسكب	وروتك منى دموع تسيل

الساعة

وأزعجتني يدها القاسية	كم ساعة ألمنى مسما
هنيئة واحدة صافية	قتشت فيها جاهدا لم أجد
فرحت أشكوها الى التاليه	وكم سقتنى المراءخت لها
لساعة أخرى وبى ما بيده	فأسلمتني هذه عنوة
جارحة الظفر الى ضاريه	ويحك يامسكين هل تشتكى
يأمن تلك الفئة الطاغية	حاذر من الساعات ويل لمن
جعلتها من غصص خاليه	وان تجد من بينها ساعة
لم ينسه حاضره ماضيه	فاله بها هو الحكيم الذى
فى قلة من تحتها الهاوية	وأمرح كما يمرح ذو نشوة
مخاللة ختالة عاديه	فهى وان بشت وان داعيت

عناقها خنق وتقيلها كما تعض الحية الباغية
هذا هو العيش فقل للذي تجرحه الساعة والثانية
يا شاكي الساعات أسمع عسى تتجيك منها الساعة القاضية

الدواة

يا دواة اجعلي مدادك وردا لوفود الأقلام حينما فحينما
وليكن كالزمان حالا وحالا تارة آسنا وأخرى معينا
أكرمي العلم وامنحي خادميه ماءك الفالى النفيس الثمين
وابذلى الصافي المطهر منه لدواة السرائر المرشدين
واذا الظلم والظلام استمانا يوم نحس بأجهل الجاهلين
واستمتنا من الشرور مدادا فاجعليه من قسمه الظالمين
واقذفي النقطة التى بات فيها غضب القاهر المذل كمين
ليراع امرئ اذا خط سطرًا نبذ الحق وارتضى المين دين
واذا كان فيك نقطة سوء ككونت من خباثة تكويننا
فاجعليها قسط الذين استباحوا فى السياسات حرمة الأضعفين
واذا خفت أن يكون من الصنخ ر جلا ميد ترجم السامعين
فانجلي بالمداد بنحلا وان أع طيت فيه المئين ثم المئين
فاذا أعوز المداد طيبيا يصف الداء دائبًا مستعين
فامنحيه المراد منا وعرفا واستطبي معونة المحسنين

واذا مهجة الحائم أسدت
فاجعلها على المودات وقفا
فاذا لم يكن بقلبك إلا
فاجعله حظي لأكتب منه
نقطة سرّها الزكي المصونا
وهيها رسائل الشيقينا
ما أتد الاخلاص للخاصينا
شرح حالي لسيد المرسلينا

الفرع الأكبر

غاض ماء الحياء من كل وجه
وتفشي الحقوق في الناس حتى
أوجه مثلما نثرت على الأجداد
وشفاه يقان أهلا ولو أديه
عمرك الله هل إسلام وداد
عميت عن طريقها أم تعامت
غرها سعادها ومن عادة السعد
فتجنت على الشعوب وشنت
نسيت في الصعود يوم التدلي
تعب الفياسوف في الناس عصرا
والورى طارد إزاء طريد
وجيوش يفل من بعضها البعض
حاذرى يا ذئاب صولة أسد
فغدا كالح الجوانب قفرا
كاد رة السلام يحسب برا
ث وردا إن هن أبدين بشرا
ن ما في الحشا لما قلن خيرا
ذاك أم حاول المسلم أمرا
أهم في مفاوز الجهل حيرى
يد يواتى يوما ويخذل دهرها
غارة في البلاد من بعد أخرى
وانتدلى بصاعد الجدة مغرى
وتولى السرائر الدين عصرا
وعقاب يمسى يطارد صقرا
وهضب كبرى تناطح صغرى
منك أقوى نابا وأنفذ ظفرا

لا تنامي يا أسد إن ذئابا
عبر كلها الليالى ولكن
أنت نعم النذير يا نجم "هالى"
ظن قوم فيك الظنون وقالوا
إن يكن في يمينك الموت فاقذف
هل تلقيت من لدن خاذل الباء
أحيط بكل شىء ومرد
أغدا تستوى الأنوف فلا ينظر
أغدا ككنا تراب ولا مد
أغدا يصبح الصرّاع عناقا
إن يكن كل ما يقولون فاصدع

لم تنم من روابض الغيل أضرى
أين من يفتح الكتاب ويقرا
زلزل السهل والرواسى ذعرا
آية أرسلت الى الأرض كبرى
ه شواظا على الحلائق طرا
غى وحامى الضعيف يا نجم سرا
كل حى وتارك السهل وعرا
قوم قوما على الأرض شذرا
ك خلاف التراب برا وبحرا
فى الهيولى ويصبح العبد حرا
بالذى قد أمرت حيث عشرا

وقال يهنئ المرحوم السلطان حسين حينما أسند اليه منصب
السلطنة المصرية :

اليوم آن لشاكر أن يجهر
ان الامارة لم تزل فى أهلها
والتاج مقصور عليهم ينتقى
والعرش إن أخلاه منهم ماجد
أحسين حبك فى القلوب محقق

بالشكر مرتفع العقيرة فى الورى
شياء عالية القواعد والذرى
منهم كبيرا للعلاء فأكبرا
ذكر الأماجد بينهم وتخييرا
قد أظهر الاخلاص منه المضمرا

فاحرص عليه فهو ملك آخر إن شئت ملكا جنب ملك أنضرا
 والملك آل اليك يحدو خطوة شوقا اليك وإن أتى متأخرا
 لم يعد في مافات بابك ناسيا بل وانيا حتى يشب ويكبرا
 عزى عن العباس أنك عمه وأجل من ساس الأمور ودبرا
 وأزال لوعة كل قلب بعده إن الدواء لما به بك قدرا
 يا ناظر الماضي وشاكر عهده والحال بين يديه أجملا منظرا
 هذى الحقائق باهرات فانته لا يلهينك طيف ماض في الكرى
 هذا ابن اسماعيل نجم طالع لهداية السارى ففى على السرى
 الملك من يمانه فى يد حازم إن أورد الأقوام وردا أصدرا
 والنيل لم يبرح على العهد الذى أخذته قبل عليه ناضرة القرى
 متهاديا بين البقاع مناجيا أرجاءها بالخصب يكتنف الثرى
 والشرع بين الناس ناه أمر ما زال حكم الله فيه موقرا
 والبيت بيت محمد قد شاده لبنيه لم يستثن منهم معشرا
 والعم أكبر حكمة ودراية بالأمر لو أن المكابر فكرا
 حال إذا نظر الأديب جمالها شكر الاله وحقه أن يشكرا

الشعر الارتجالى

أبى الجهل إلا أن يهز أريكة تقيها يد الله أن تترعزا
 فما هنز إلا كل قلب مروع يجاور قلبا فى الربوع مروعا

يكاد إذ الأنبياء رابته مرة يسيل بوادي النيل كالنيل أدمعا
ومن كاد للعباس كيذا فأنما يكيـد الى مصر وأحبابها معا
ومن يسع في مصباح نور الأمة ير الله حول النور والناس أجمعا



قصيدة وجهها الى سمو الخديوى عباس يوم عيد جلوسه
سنة ١٩٠٨ مهنئا إياه بالعيد وشاكر له نعمة العفو عن المسيجونين
في دنشواى ، وقد جاراها شوقي بقصيدة مطلعها :

أما العتاب فبالأحبة أخلق والحب يصلح بالعتاب ويصدق
وجاراه حافظ بقصيدة مطلعها :

سكن الظلام وبات قلبك ينحف وسطا على جنبك هم مقلق
ونشرت مجلة "فتاة الشرق" في ذلك العهد فصلا لأحد
الأدباء وازن فيه بين القصائد الثلاث .

وهذه قصيدة صبرى :

لو أن أطلال المنازل تنطق ما ارتد حران الجوانح شقيق
هل عند ذاك السرب أنا بعده فى الحى من أماننا نتدفق
أو أن أضاعنا على ما استودعت يوم الفراق من الجوى نتحرق
أمنازل الأتقار أهلك أسرفوا فى النأى إسراف الغنى وأغرقوا
لو أنهم قد أنصفوك منازل ما حازهم فى الكون بعدك مشرق



عيد الفداء الا سعدت بسدة أمسى يحيط بها الجلال ويحرق
هلا رأيت بعابدين مع الملا ملكا خلاثقه تضوع وتعبق
وجمعت من تلك الشمائل طاقة تزدان أياها بها وتخلق
ورجعت من نور الأمير مزودا حتى تعود وأنت زاه مشرق



أحرزت يا عباس كل فضيلة وبلغت شاوا في العلا لا يلحق
من ذا يجارى أنحصىك الى مدى وهواك سباق وعزمك أسبق
ان يرتجل عرف فأنت الى الذى لم يرتجله المالكون موفق
سدّد سهام الرأى بالشورى يحيط بك منه فى ظلم الحوادث فيلق
واسبق به واضرب به وافتح به ما شئت من باب أمامك يغلق
عوذت مجدك أن تنام وفى الحمى أمل عقيم أو رجاء مخفق
ولرب محل فى النهى متحكم قد كاد ينخرم النفوس ويوبق
أرسلت فيه نظرة ضمن الحمى والعلم نصرتها وقلب مشفق
وأخذت رأى أولى النهى مستوثقا مستوزرا وكذا الحكيم يدقق
حتى اهتديت الى الصواب ولم يزل بين الصواب وبين رأيك موثق
وأهبت فابتكر النضار سحائبها تهمل وتفتقد المحيل وتغدق
ان أمرعت تلك الموات وأورقت فيها الرياض فانما لك تورق



وأقلت عشرة قرية حكم الهوى	في أهلها وقضى قضاء آخرق
ان أن فيها بأس مما به	وأرن جاوبه هناك مطوق
وارحمتا لجنساتهم ماذا جنسوا	وقضاتهم ما دافعهم أن يتقوا
ما زال يقذى كل عين ما رأوا	فيها ويؤذى كل سمع ما لقوا
حتى حكمت بشاء حكك آية	للناس طى صحيفة لتألق
نزلت ترفرف حول كاتب نصها	زمر ما لائكة الرضى وتحلق
شكرتك مصر على سلامة بعضها	شكرا يغرب في الورى ويشرق
ذكرت لك الصفح الجميل ولم تزل	ترمى الى أمر أجل وترمق
قانون دنشاواى ذاك صحيفة	تتلى فترتاع القلوب وتحقق
هل يرتجى صفو ويهدأ خاطر	والموت حول نصوصها يتفرق
ومضاجع القوم النيام أواهل	بمعذب يردى وآخر يرهق
لن تبلغ الجرحى شفاء كاملا	مادام جارحها المهند يبرق
فاحكم بغير العنف واكسر سيفه	فالعلم أجمل والمكارم أليق



لك مصر ماضيها وحاضرها معا	ولك الغد المتحتم المتحقق
والله عونك ان ركبت الى العلا	طرقا تفضل بها الهداة وتفرق
والأمر أمرك لا يشاب بريية	والحكم حكك والإله مصدق

ياليل الصب

نشرت مجلة "الزهور" أبياتا ارتجلها أمير الشعر شوقي يعارض فيها الأبيات المشهورة التي مطلعها :

ياليل الصب متى غده أقيام الساعة موعده

وهي لأبي الحسن الحصرى الضرير المولود في القيروان والمتوفى في الأندلس سنة ٤٨٨ هجرية . فقال المرحوم صبرى باشا من الوزن والروى ، وهي أبيات نظمت للغناء :

أقرب من دنف غده	فالليل تمرد أسوده
وآلتفت تحت عجاجته	بيض في الحى تؤيده
حرب عندى لسعرها	شوق ما زلت أردده
هل من راق لصريع هوى	هل من أس يتعهده
حتى م يساوره كمد	يبلى الأحشاء تجدده
والى م يصارع ألم	ان هم يقوم ويقعده
فى القصر غزال تكبره	غزلان الرمل ونحسه
صفرت كفى منه ومضى	وقد امتلأت منى يده
كم صغت التبرله شركا	وقضيت الليل أنضده
وأشاور شوقى بل أدبى	هل أقصر أم أتصيده
مولاي أعينك من ضم	لا يرحم قلبا موقده

أدرك بحياتك من رمقي ما بات هواك يهتده
قد بان الحب لدى عينين وهذا الشوق يؤكده
«شوقي» جود في الشعور قل آمنت بأنك أوحده



وقال يرثي اسماعيل بك ماهر القاضي بالمحكمة المختلطة
بالاسكندرية الذي توفي في صيف سنة ١٩١٠ وكان رفيق صبرى
في المدرسة وعشير صباه :

أماهر كنت فيما مر أنسى فمن لى فى الليالى الباقيات
برغمى أن تقاص منك ظل وقانى حقبة لفتح الحياة
وان نضبت خلال كنت منها أعب لديك فى عذب فرات
وان صفرت يمينى من وداد غنيت به لىالى خاليات
أنهى ما حياتى إلا سلام يزورك فى المساء وفى الغداة



دمعة على بطرس غالى فى أبريل سنة ١٩١٠

لهف الرياسات على راحل قد كان ملء العين والمسمع
لهف العلا قد عطلت من سنا بدر هوى من أوجها الأرفع
تبكى المروءات على بطرس ذاك الهام المساجد الأروع
فتشت لما لم أجد مقلتي كفؤا عن الفضل ليبنى معى

فقيلى لى قد سار فى اثره	يوم دفناه ولم يرجع
يا مجرى يا دمع الملا أبحرا	أدر كهمو يا مرقئ الأدمع
يا نازلا بين وفود البلاء	أنستهم يا موحش الأربع
عنى فىك اليوم قبطية	تروى الأسى عن مسلم موجه
يهم من وجد ومن لوعة	فى الجانب الأيسر من أضاعى
ويحفظ العهد كما شاء	أحمد سمى واسم المشرع
يا من سقانى الجحيم من وده	هنا ودادى كله فاكرع
يا حامل القلب الكبير الذى	لم ينقض الميثاق قم واسمع



حرب طرابلس

بعض هذا الخفاء والعدوان	راقبى الله أمة الطليان
قد ملأت القضا غدرا وجهلا	وتسمنت غارب الطغيان
وبعثت السفين ترمى طرابلس	بحرب مشبوبة النيران
تخرق البحر والمواثيق والعهد	جهارا وذمة الجيران
سيرتها أضغان قوم لقوم	سلموا من دناءة الأضغان
من رآها تجرى توهم أن القوم	«سوا للشار للأوطان
لا ورب الأسطول ما حمل الأ	سطول جيشا الى حمى الحبشان
ان قوم الطليان أحرص من أن	يفضحوا مرتين فى ميدان

ليست الحرب للعدو الذي با
إنما الحرب للأولى حفظوا العهد
وأباحوا أبوابهم حاتميات
وأنالوهم وحقوق بنينهم
ويجهم ما لصنعهم أبطر القو
ولماذا تمخض السلم عن حرب
منح قد بذرن في شر أيد
هكذا فلتك المروءات في عصم
لا يثق بعضنا ببعض وهذا
ان تسلم على القريب فسلم
ربما أصبح العناق صراعا

ت عزيزا بالرجل والفرسان
مد فنامت جيرانهم في أمان
لمن أمهم من الضيفان
فعل أهل المعروف باللهفان
م فعمقوا ما كان من احسان
لظاهما يشوى الوجوه عوانى
كن مذ كن منبت الكفران
ر البهايل من بنى الرومان
ما أعد الانسان للانسان
في ظلال السيوف والمران
في زمان الآداب والعرفان



قصيدة ألفت في ٤ يونيو سنة ١٩١٤ في فندق شبرد في حفلة
تكريم واصف بك بطرس غالى لما قام به من ترجمة الشعر العربى
الى اللغة الفرنسية ترجمة صادقة لكتاب دعاه "روض الأزهار".
وكانت حفلة التكريم تحت رعاية حضرة صاحب السمو
الخدوي السابق عباس حلمي الثاني ، وأتاب عنه في الحضور رئيس
الديوان العالى الملكى صاحب السعادة عثمان باشا مرتضى وكانت

الحفلة برئاسة الفقيه اسماعيل باشا صبرى بصفته رئيسا لزملاء
الأدب :

س باريس مقر العلوم والعلماء	أى صوت حيته بالألم
حكمة الشيب فى ربيع الفتاء	من ترى ذلك الذى جملته
ض مطلا من منبر الخطباء	ذلك الأسمر الذى بهر البية
ب كرام الآباء والأبناء	وأماط اللثام عن أدب العر
ضع إلا لأهله من إباء	بلسان ما اعتاد من قبل أن يخ



لاسمه فى صحيفة الفضلاء	يا سجل الخلود افسح مجالا
ذكر عمر محجل الآناء	وأر الأعصر الأوائى أن ال
فناه بما هاجه من الأصداء	ذاك صوت ابن بطرس قد عمر
نعمة لم تكن لغير الوفاء	ألق بالسمع تستخفك منه
رفقوى بنجمك الرضاء	ذاك نجم أطاعته يامص
ر عيون السراة فى الظلماء	وأحليه حيث تفتقد البد
غضبة حروكم له من بلاء	كم له دون بيضة الشرق من
حق فيها بالحنة البيضاء	كم له من مواقف هز عطف ال



ء كبار والمجد ذو أعباء	ايه يا ابن الأجداد قمت بأعبا
------------------------	------------------------------

وأريت الأنام برذوى القـر بى ورأى الكريم فى الكرماء
فاستمع ما يقال حولك يا واصل فذا اليوم من ضروب الشاء
أن من طيب الشاء لزهرها تجتنيه مسامع الأكفاء



وقال يرى إسماعيل بك نجيب نجل صديقه المرحوم إبراهيم باشا
نجيب .

الا يا تجار مصر هل فيكم امرؤ يبيع على صرعى الهموم عزاء
إذا دلتى منكم على مثله فتى خاعت عليه ما يشاء جزاء
ففى الحى قوم عاكفون على لظى تذيبهم البلى صباح مساء
يخالهم الرأى سكارى من الأسى فيبكي عليهم رحمة ووفاء
لو أن قلوب الناس طوع ارادتى قلبت الأسى فى بعضهن هناء
ولو طاوعتنى كل عين قريحة لما ذاب بعض الثاكين بكاء
وعالجت إبراهيم مما أصابه وداهمه حتى ينال شفاء
مصائبك إسماعيل زعزع شاخنا وضعضع طودا راسيا وأساء
واودى بأمال بكار تصرمت برغم ذويك الباسين هباء
على قبرك المطبور منى تحية فقد ضم غصنا ناضرا وفتاء



بين الجند والفكاهة

استقالت وزارة مصطفى فهمى فى ١١ نوفمبر سنة ١٩٠٨ ،
وتألفت فى اليوم التالى وزارة بطرس غالى وأعضاؤها سعد بالمعارف ،
ورشدى بالحقانية ، وسعيد بالداخلية ، وسرى بالأشغال والحربية
والبحرية ، وحشمت بالمالية بدلا من خفري . وعين خليل باشا
حماد وزيرا للأوقاف . وقد نشر اسماعيل باشا صبرى على أثر ذلك
بامضاء بنتاؤور مقطوعات كثيرة رسم فيها صورة لكل وزير قديم
أو جديد ونشرتها جريدة الأهرام فى أيام مختلفة وإنا نختار منها
ما يأتى :

وكالة الداخلية

صورة تسي البرايا زاهيه	ماهر السلطة فى مصر لها
وتباطأت فحزت التالى	فاز بالأولى سعيد اذ جرى
نلت أولاهها ونال الثانى	لو تسرعت ووسعت الخطى

النيابة العمومية

محاكيا فى كل قسم	قد ألفت عصب اللصوص
كاهها وبكل علم	ورموك «ثروت» بالنباهة
الجاهلين أجل جرم	والعلم فى الحكم عند

فاحذرهم ان سرت فيهم سيرة اليقظ الأثم
عوفيت من قوم اذا قدروا خالوا من كل حلم

في جوف الحيتان

أين صبرى من يذكرو اليوم صبرى بعد أعوام عزله وشهوده
اسألوا الشعر فهو أعلم هــلا أكلته الأسماك طى بحوره

في المعاش

قلت يا صالح الق دل لك في جملة الدلا
قال دعنى كما أشأ أحكم اليوم فى الملا

مارتين باشا

ألفاء اذرونى ان قنعت من الورى بما حزت من فخرو ما نلت من رتب
فما عن قلى فارقت سعدا وانما تفرغت بين الناس للعلم والأدب

شكور باشا

أين شكور هل العلي ياء فى جب نفقه
أكلته البيرة اليوم ترى أم شربته

سابا باشا

أين سابا أين سابا ياترى أين سابا ذو المزايا الباهره
قال لى قوم ثقات أنهم لمحوه فى مياه القاهره

اسكندر باشا فهمى

أصلب أنت قللى حار أمرى اذا فكرت فيك وضاع حدسى
خرجت من الشريط ولم تهشم كأنك خارج من بيت عرس

* *

الى الأمير عمر باشا طوسن بمناسبة اعانته جرحى الحرب
البلقانية :

لك الامارة والأقوام ما برحت بكل على الذرى فى الكون تأتمر
لو لم ترثها لما ألفت أعنتها إلا اليك خلال كلها غرر
يا ابن الأولى لو أطوا من مضاجعهم يوما عليك لقالو : ايه يا عمر
أعدت أيامهم فى مصر ثانية حتى توهم قوم أنهم نشروا
وسرت سيرتهم حتى كأنهم اذا خطرت بأرض مرة خطروا
لله درك لم نبهت من همهم تنثنى على أهلها الآصال والبكر
وكم تعهدت جرحى من أسود وغنى ان يكشر الدهر عن احداثة كشروا
مستنجدنا من بنى مصر الى شمم اذا رأوا ثلثة فى حوضهم جبروا
مستهميا هاميا والنيل فى وجل من أن تجود به ايمانكم حذر
حتى تفاهمت الأرواح وادكرت ما بينها الأهل والحلان والأسر
وآذن البر بالسقيا وما فتئت منهم ومنك صنوف البر تنتظر
وحركت كل كف بالندى يقنة حتى تعجبت الأنهار والغدر

والناس ان قام يستسقى الكريم لهم
يا بى علاء سعيد أن يشابهه
سحائب الفضل بشرهم فقد مطروا
إلا ابن دوحته ان قام يفتخر
ما زال يحمده رائيك مذكرا
والأصل بالفرع ان حاكاه يذكر

ذكرى الشباب

تمسى تذكرنا الشباب وعهده
هيفاء أسكرها الجمال وبعض ما
حسناء مرهفة القوام فنذكر
أوفى على قدر الكفاية يسكر
وتب القلوب الى الرؤوس اذا بدت
وتبيت تكفر بالنحور قلائد
حقي يسود كبيرهن الأصغر
ويزيد في فهمها الآلى قيمة

ساعة الوداع

أترى ، أنت خاذلى ساعة التو
ويك ، قل لى متى أراك بجنبي
ديع يا قلب فى غد أم نصيرى
راضيا عن مكانك المهيجور
ساعة الين قطعة أنت قتت
للحبيين من عذاب السعير
لاتحبنى روحى الفداء لما حيك
غدا فى صحيفة المقدور

عبد بلا ثمن

يا من أقام فؤادى إذ تملكه
تفديك أعين قوم حولك ازدحمت
ما بين نارين من شوق ومن شجن
عطشى الى نهلة من وجهك الحسن

جردت كل مليح من ملاحظته لم تثق الله في ظبي ولا غصن
فاستبق للبدر بين الشهب رتبته تملكه في أوجه عبدا بلا ثمن



وقال رحمه الله حين بعث شوقي بك الى الكاتب الكبير
الأستاذ داود بركات رئيس تحرير الأهرام يتين وطلب اليه
عرضهما على الفقيد ليبدى رأيه فيهما ، فلما عرضهما عليه جادت
قريحته بثلاثة أبيات فى معنى بيتى شوقى بك ثم بتحية منه .

بيتا شوقى بك

يا سارى البرق يرمى عن جوانحنى بعد الهدوء ويرمى عن مآقينا
ترق الماء فى دمع السماء دما غاض الأسى نخضبنا الأرض باкина



جواب صبرى باشا

يا وامض البرق كم نهبت من شجن فى أضلع ذهلت عن دائها حيننا
فالماء فى مقل والنار فى مهج قد حار بينهما أمر المحييننا
لولا تذكر أيام لنا سلفت ما بات يبكى دما فى الحى باكيننا
يا آل ودى عودوا لا عدتمكم وشاهدوا ويحكم فعل النوى فينا
يا نسمة ضمخت أذيالها سحرا أزهار أندلس هبى بواديننا

بين صبرى والشريف الرضى

سمع صبرى بيقى الشريف الرضى وهما :

أرى بعد ورد الماء فى القلب غلة اليك على أنى من الماء نافع
ولانى لأقوى ما أكون طامعة اذا كذبت فيك المنى والمطامع
فقال رحمه الله بمجازاة له :

ياموردا كنت أغنى ما أكون به عن كل صاف اذا ما بات يروى
عندى لمائك والأقداح طوع عيى ملائى من الماء شوق كاد يردى



وقال فى الذكرى :

اقصر فؤادى فى الذكرى بِنافعة ولا بشافعة فى رد ما كانا
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمنا حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا
هلا أخذت لهذا اليوم أهبتة من قبل أن تصبح الأشواق أشجانا
لهفى عليك قضيت العمر مقتحما فى الوصل نارا وفى الهجران نيرانا

وكتب على صورة أنور ابن سليم سر كيس :

هذا شبابك ياسليم تزيينه تلك الخلال الغر والأخلاق
حاكاك أنور مثما حاكيتة فيما مضى فتبارك الخلاق
أنت الذى علمته نقل الخطى وأريته أن الحياة سباق



الكتاب الثالث

تاريخ الحركة الاستقلالية في ايطاليا

مقدمة

رسالة من نابغة الأدب الأستاذ خليل بك مطران :

ناط بي الأستاذ محمد صبرى نخر تقديم محاضرته الشائقة التى أسماها بموضوعها وهو " تاريخ الحركة الاستقلالية فى إيطاليا " للذين سيطالعونها مجموعة بين دفتى هذا الكتاب ، وهى تلك المحاضرة التى ألقاها على قسمين فى الجامعة المصرية فى يوم ١٠ و ٢٠ مايو سنة ١٩٢٢ ونشرتها على الأثر جريدة الاستقلال الغراء . فتلقيت دعوته بالاجابة عن رضى ، وليست الاجابة عن رضى شأنى فى كثير من مثل هذا التكليف لكننى كنت قد طالعت المحاضرة وإن فاتنى التمتع بسماعها فأعجبت بها ولماذا لم أخش سأمها ولا تعباً من كتابة المقدمة .

الأستاذ صبرى — ويعرفه الجمهور المصرى حق المعرفة — خريج السربون أكبر معهد علمى أدبى فى فرنسا بل فى أوروبا ، وهو أيضاً صاحب كتاب " الثورة المصرية " الذى صدر فى مجلدين بالفرنساوية وهذا السفر قد أتيحت لى مطالعته فوجدت فيه مصداق الأماديج المتنوعة التى تلقته بها جرائد فرنسوية متعددة وأدباء فرنساويون من عالية القوم وجملة ذوى المكانة فى عالم

البيان والتفكير، على أن فيه داعيين آخرين للشناء على المؤلف : ذلك أن الأستاذ، بتبيينه للأجانب حقائق ما جرى في تلك الأيام العظيمة بمصر قد خدم أمته في وقت من أخرج أوقاتهما خدمة لا تقوم بثمن، وأنه بقوة وطنيته المتدفقة في كل نقطة وفي كل جملة من سفره تدفق السيل بباغت لا يواقفه شيء يعترض طريقه هو الاخلاص، كان قدوة ونعمت القدوة لمن فهم من فتیان قومه بكل جوارحه أن لا أمة عزيزة بلا وطن عزيز .

على أنه ليس هنا مكان التقريظ للأستاذ صبرى بأكثر من الامناع الى ماله من المنزلة التي كسبها بواسع عرفانه وصدق وطنيته معاً، وإنما أحب قبل الشروع في الكلام على محاضراته، التي أجده حين يحورها مؤرخاً مدققاً صافي الذهن شامل النظر للحوادث عجيب الفطنة للتماثلات منها جوهرها وان تخالفت عرضاً، أن أعيد على ذهن من يقرأ هذه السطور شيئاً من نفثات قلمه أديباً محض أديب .

وهناك آية أخرى من آيات الذكاء المخدوم بالتحصيل المتدارك بالتهذيب، قال من مقال سبق نشره في الأهرام الغراء سنة ١٩١٣ تحت عنوان "دقات الساعة" ما يغني تصفحه عن التعرض لوصفه وقد ينقص الوصف أبلغ ما يكون أشياء من معاني الموصوف قال :

«تنصف الليل ومضى بعد وهنه ساعتان كما خبرتنا "ناعية الزمن"»
فقد كرت قول مدرّس العربية منذ ستة أعوام تجرّمت وترادفت
ترادف الموج في محيط السنين والأيام أن من أقسام المفعول المطلق
ما يكون بيانا لعدده نحو دقت الساعة دقتين .

«أجل، كرر الأستاذ مرارا هذا المثل فما كنت لأهتم له ولم
دقت الساعة في ذلك الأمس الدابر فكان وقع دقاتها في أذني
كمتغريدة الطائر ورنات العيدان حين كنت أرتع في نحائل الشباب
النضر وما الشباب عندي إلا زمن الجهل والغفلة يوم لم ندخل بعد
ميدان الكفاح ولم ندق صاب الحياة ولا علقمها .

«وإني لأتمثل الدهر يومئذ وهو كالصبي الغشوم يتعلم الرماية
وأنا كالدائرة التي مركزها الغرض وما الغرض إلا القلب وسهامه
دقات الساعة يرسلها فتطيش وتحلورنة القوس وهي تطلقها .

«أما وقد تبدلت الأيام وجرت جوار بالنحس بعد السعد
وشبنا من هول الزمان وصار فتانا كهلا من طوارق الحدثان وجاء
زمن اليقظة فليخفق القلب فان كل ساعة تمر ترسل اليه سهامها من
جعبة الآلام لا يشذ عن الرمية حتى إذا تبينت الخيط الأبيض من
الخيط الأسود ودرج الليل في أكفان الصباح أحسست بأن

في فؤادي اثني عشر سهما فوهبت الى نسمات الصبح زفرائي والى
نداه عبراتي» الخ .

هذا مثال من بيانه الشائق فلنجل الآن الطرف قليلا في المحاضرة .
أوجز الأستاذ صبرى تاريخ الحركة الاستقلالية الايطالية ايجازا
قضيت له عجباً لأنه أول ما شاهدته من نوعه بلساننا العربى
الشريف . من المتصدين للكتابة فيمن عرفت مجرم بلا عمد يقتل
الموضوع بتلخيصه إياه ومنهم نصف بصير يبقى من الموضوع رمقا
في جزء أو أجزاء مما اتفق له تصوّره حق تصوّره . أولئك اتخذوا
من التلخيص مطية لاركاب جهلهم أمام الجمهور مرابجا علميا .
وما لمثل هذه المهانة خلق التلخيص الذى هو كنه الأمر ولباب
البلاغة . إنما التلخيص أو الايجاز أو التحصيل عمل القادرين
المحيطين بالشئ يقتلونهم علما لا جهلا ويدركون كلياته وجزئياته
وينظرون على هدى أيا كان الجانب الذى ينظرون اليه منه فاذا وسع
ذهنهم غرضا بكل مشتملاته واعتقدوا الفائدة في تحصيله لحسن
تمثيله صوره لك من عال فوجد المطالع فيه كل شئ ولكن
مصغرا ولم يفقد الباحث عن جوهره شيئا مهما قل من ذلك
الجوهر وأخذ منه كل على قدر قريحته وفهمه ، كذلك فعل صبرى
في تحصيله للحركة الاستقلالية الايطالية ووفق ما شاء حسن الأداء

تحصيلا . صاحب هذه المحاضرة إنما وضعها خدمة لمصر فيما يفهم
بالبداهة لأنه ليس ايطاليا ولا يعنيه أن يجعل أسماء أعلامها الأحرار
وأبطالها الكبار في نظر المصريين يتغنون بها لغير ما طائل يحلى به
سوى تمجيد قوم غرباء عنهم ولكن من كياسة صبرى أنه لم يمتن
على أمته بنيته هذه بل كد وجد ودارس وراجع وحرر كتابا قيما
ممتعا مشوقا الى الاستقلال الصحيح مغريا بعظائم الأخطار مهوونا
على النفوس تحمل المشاق مهما طال بها الأمد دون الوصول الى
الضالة المنشودة ، حرره ليأخذ منه كل مصرى بلا سأم من امتداد
المطالعة ولا غرق في البحر الخضم من الأخبار التي لا تهمة كل
ماينفعه الالمام به ويكون له مرشدا ومسعدا في طريقه الى غايته
الوطنية المصرية دون سواها وبهذا قد أحسن صبرى احسانا ثانيا .

حشر صبرى جلائل الحوادث في سلسلة متصلة محكمة الربطة
ولكنه لم يفته التفصيل حيث للتفصيل قيمة الأمر الكلى بل رب
جزئية فاقت أعظم الكليات ونزلت من عهد تاريخى بتمامه منزلة
اللفظة الخاصة التي يهبط بها الالهام من عامة الكلام وههنا سأضرب
مثلا بنقل سيرة يجدر بها أن تقدم في سير الأبرار بأوطانهم ، قال يذكر
واقعة جرت لشابين ايطاليين كانا في البحرية النمساوية أوائل أيام
الثورة في بلادهم وإبان النهضة التي نهضها مازينى بتملك البلاد .

«وقد حدث أنه في عام ١٨٤٣ وجد شابان ضابطان في البحرية النمساوية من أعيان فينيسيا كانا متشبعين بتعاليم مازيني وجمعيته وكانا يعتقدان أن إيطاليا بحاجة كبرى الى مثل عال من الشجاعة والتضحية فأليا على نفسيهما أن يعطيا ذلك المثل وأن يذهبا الى جبال الآبين الجنوبية لتنظيم حرب عصابات ضد القوة الغاشمة .

«وعبثا حاول مازيني أن يقنعهما بالعدول عن رأيهما، وما عثما أن اتجها نحو الجنوب بعد أن أرسلا اليه خطتهما التفصيلية فأمكن الحكومة الانجليزية الوقوف عليها وابلاغها سرا الى حكومة نابولي الى أخذت أهبتها .

«وما كاد الضابطان يضعان قدمهما على اليابسة حتى قبض عليهما وأعدما رميا بالرصاص وهما يهتفان « فلتحى إيطاليا ! » ، وقد كان لهذا الهتاف صدى رددته إيطاليا فأصابتها منه هزة كهزة الكهرباء لأنه مثل عال للتضحية والموت فداء الوطن » .

أما لغة المحاضرة فقد جعلت كما هي في السطور الآتية سملة قريبة التناول شفاقة الظواهر عن أبعد البواطن يتبين القارئ من خلالها المقاصد بلا إعمال روية ويتأثر بمؤثرات المحرر كأن احساسهما بالبداهة مشترك وتلك غاية في البلاغة وما البلاغة إلا مطابقة الكلام لمقتضى المقام ٥

الباب الأول

عصر النهضة والثورات

١٨١٥ — ١٨٤٨

ابتدأت الحركة الاستقلالية الكبرى في ايطاليا في أواخر القرن الثامن عشر وبلغت غايتها في سنة ١٨٧٠ ، وهذه الغاية كانت تنحصر في تحقيق وحدة ايطاليا وطرد دولة النمسا المحتلة .

أما الطرق فكانت ثلاثة : الثورة ، والحرب ، والسياسة .

والأسباب التي ساعدت على تحقيقها :

(١) انتشار مبادئ الثورة الفرنسية .

(٢) وجود ما يمكن تسميته بالوحدة الروحية التي هي مادة

الشعور القومي : فاللغة واحدة ، والدين واحد ، والعوائد واحدة ،

وذكرى الماضي العظيم الذي يحن اليه واحدة .

(٣) وجود ولاية كبيرة مستقلة تحكمها أسرة قديمة وطنية

مستقلة هي ولاية سرديانية المكونة من : بيمون ، وسافواي ، ونيس
وجزيرة سرديانية .

(٤) وجود زعماء كبار في ميدان الفكر وفي ميدان العمل .
في ميدان الفكر : دانت ، الفيرى ، دازجليو ، روسيتي ،
ما نزوني ، جيورتي .
في ميدان العمل : مازيني ، كافور ، جارييلدي ، فكتور
عمانويل .

(٥) وجود محالفات أجنبية وأهمها محالفة نابليون الثالث .
ويمكن تقسيم الطريق الذي قطعتة الحركة الاستقلالية الإيطالية
الى مرحلتين :

الأولى منهما بين ١٨١٥ - ١٨٤٨ ، تغذت فيها الحركة
بالنهضة الفكرية الشعرية الجديدة التي كانت تبعث ميت الأمل
في ظلمة اليأس ، وبالحركات الثورية في أنحاء إيطاليا المختلفة
وما صحبها من سفك دم ، من نفى وسجن وتعذيب ، ولقد كان مازيني
في هذا الطور الأول ، طور شباب الحركة ، الزعيم الأكبر الذي يشخص
ويلخص الوجهة الفكرية الوجدانية الخيالية (Romantique) من
الحركة والوجهة الثورية منها .

أما المرحلة الثانية بين ١٨٤٨ — ١٨٧٠ فقد تغذت فيها الحركة بالاصلاحات النافعة وبالحروب النظامية .

وقد كان كافور في هذا الطور الثاني ، طور كهولة الحركة ونضوجها ، الزعيم الأكبر والساسس المحنك الذى يشخص الثورة العملية المنظمة التى تتخدع أعين الرقباء وتتمشى خفية فى طريق الاصلاحات والتعمير ثم تخرج منه فجأة فى صورة حرب .

الفصل الأول

إيطاليا لغاية مؤتمر فيينا

كانت إيطاليا في أواخر القرن الثامن عشر كالمانيا مقسمة إلى ولايات نتجت من تفكك الامبراطورية الرومانية في القرون الوسطى، وكان معظم الولايات في الشمال وفي الوسط في قبضة النمسا : لومبارديا، وبارم، ومودين، وتوسكانه، وكان لها فوق ذلك حماية مستترة في بعض الولايات الأخرى، وأكبر حكومة وطنية مستقلة في ذلك الوقت حكومة سرديانية وأهم أجزائها يميون. يميون واقعة في الشمال الغربي من إيطاليا تحت سفح جبال الالب، أهلها أشداء سكان الجبال يحبون العيشة الخشنة بين ممارسة الحروب، فهم جند مدرّبون، وبين تعهد أشجار الكرم والتوت .

وكان عدد سكان مملكة سرديانية يربو على الثلاثة ملايين وعاصمتها تورينو من أجمل العواصم، وكان الملك يختار حاشيته وكبار الوزراء والموظفين والضباط من الأشراف فكانوا طوع بانه .

وكان الكهنة والقساوسة أصحاب الثروة الأمرين الناهين مع الأشراف في بيمون ، لهم اليد العليا على المدارس والتعليم ، ولهم محاكم خاصة مستقلة تفصل في كل الأمور المتعلقة بالزواج والمسائل الدينية ، وقد بلغ عددهم في بيمون وحدها ٢٠,٠٠٠ قسيسا ، و ١٣,٠٠٠ راهب وراهبة ، وكانت في ايطاليا حكومات أخرى مستقلة غير حكومة سردينية ولكنها لم تكن حكومات قومية ، مثل ذلك :

حكومة البابا في الولايات المسماة "ولايات الكنيسة" وهي مارش ، والرومانية ، والابروز في شرقي وسط ايطاليا ومركزها روما ، وكان البابا رئيسا دينيا عاما للكاثوليك الطليان والنمساويين والفرنسيين وغيرهم على السواء فكان يتأثر بارادة حكوماتهم جميعا ، وليت الأمر وقف عند هذا الحد فانه لم يكتف بالسلطة الروحية بل وضع يده على السلطة المدنية وجعل الحكومة دينية بجثة في جميع مظاهرها فكان جميع الوزراء والحكام والموظفين من رجال الدين ، حكومة هذا شأنها موزعة بين مسائل الدين ومسائل الادارة ما كانت لتعنى بترقية الشعب بل أكبر همها الاستئثار بالسلطة والمحافظة عليها وجباية الأموال فانتشر الفساد خصوصا في روما وامتلأت الطرقات بالآلاف الشحاذين والكسالى والعاطلين .

فلا عجب ان رأينا بيمون في الشمال — بفضل وجود حكومة قومية فيها ووجود طبقة من الشعب نشيطة بين الأشراف والفقراء تشغل بالزراعة والصناعة والتجارة وتعطى أفضل الجند — قد أصبحت محور الحركة الوطنية في المبدأ والنهاية ، بينما كانت حكومة روما حتى آخر لحظة العقبة الكأداء التي تعوق الحركة عن اتمام دورتها .

أما في الجنوب فقد كانت ولاية نابولي وصقلية أكبر ولاية مستقلة ولكن الأسرة الحاكمة كانت أجنبية اسبانية . وزيادة على ذلك فان أرضها كانت أقل خصبا من أرض بيمون الشمالية وأهلها أقل جلدا على الحروب ودراية بها ، وأقل علما ونبوغا .

تلك مجمل حالة ايطاليا في أواخر القرن الثامن عشر قبيل الثورة الفرنسية ، كانت ايطاليا في مجموعها كمعظم دول أوروبا في ذلك الوقت ساكنة خامدة كأنها في زهول ، والصفة الوحيدة التي امتازت بها هي كما يقول المؤرخ بيتراورسى : « الولع بالتمثيل والفنون والآداب ولا سيما الموسيقى » ، وقد استخدم الفيدي (١٧٤٩ — ١٧٠٣) وهو من نبغاء بيمون الروايات التمثيلية ليوقظ شعور الطليان بقوميتهم بين عظمة الماضي البائدة وعظمة المستقبل المأمول .



وبينما كانت ايطاليا على تلك الحال مكسالا ترتع بين الدين والجهل غافلة تلهو بالشعر والنأى إذا بالثورة الفرنسية تعلن على ملاء العالم حقوق الانسان وحقوق الشعوب ، ولا شك فى أن أثرها كان عظيما فى الحركة الايطالية ، وكذلك أثر غزوات نابليون (١٧٩٦ - ١٨٠١) والاحتلال الفرنسى الذى انتهى فى سنة ١٨١٤ وتلك هى أهم أسباب ونتائج الانقلاب الذى أحدثه فى ايطاليا الثورة والاحتلال :

(١) كثرة الحروب بين نابليون والنمسيين وما صحبها من انتصارات وهزائم أحدثت هزة عامة نهبت الشعور القومى لاسيما وان الفرنسيين أثناء حروبهم كانوا يعدون الطليان بالحرية والاستقلال ، وقد تكوّنت وقتئذ فى ايطاليا أحزاب صغيرة ثورية فى ولايات مختلفة ضد الحكومات المحلية ، طالبة قسما من الحرية والإصلاحات ، معتمدة على مساعدة الجنود الفرنسية لها كما حصل فى روما سنة ١٧٩٧ حيث أعلنت "الجمهورية الرومانية" .

(٢) ١ - ضم الولايات الآتية للإمبراطورية الفرنسية :
بيمون التى كانت مستقلة - وقد هربت الاسرة الوطنية الحاكمة فى جزيرة سردينية - وجنوى ، وتوسكانة ، وبارم ، وروما .

(ب) تكوين مملكة في شمال إيطاليا من فينيسيا ، ولومبارديا ومودين ، والرومانية ، ومارش دعيت ”مملكة إيطاليا“ وعين أوجين بوهارنيه زوج ابنة نابليون حاكما لها .

ويلاحظ أن الموظفين في جميع الولايات التي ضمت لفرنسا كانوا فرنسيين ، أما في «مملكة إيطاليا» فكانوا وطنيين ، لا ريب أن اندماج خمس ولايات في هذه المملكة الجديدة ووضعها لأول مرة تحت نظام إدارة عامة موحدة مستقلة بالفعل أكبر مثل محسوس مشجع للحركة الإيطالية على تحقيق الوحدة والاستقلال .

(٣) تغيير مظاهر الحياة الاجتماعية ونظمها بفضل :

(١) إلغاء امتيازات الأشراف والقساوسة وتقرير مبدأ المساواة .

(ب) حلول مجموعة القوانين المدنية الفرنسية محل آلاف القوانين والعوائد المتناقضة في البلد الواحد وفي البلدان المتفرقة .

(ج) وضع نظام واضح للضرائب .

(د) تنظيم الإدارة وتوحيدها .

(هـ) إنشاء الطرق والجسور وغير ذلك من الأعمال

المادية الكبرى الحديثة التي ساعدت على إنماء
الرفاهية والثروة .

(و) الاهتمام بالتعليم ونشر المدارس وانحراجها من يد
القساوسة وتشجيع الزراعة والصناعة والتجارة .
ولكن فداحة الضرائب التي كانت يجبيها الفرنسيون وموت
عشرات الآلاف من الطليان الذين حاربوا قسرا في صفوفهم
في بلاد بعيدة وماتوا ضحية قضية لا يهمهم أمرها — قتل منهم
نحو ٦٠,٠٠٠ في حروب روسيا واسبانيا — ولدأ في نفوس جميع
الطبقات من قسس وأشراف وفقراء وغيرهم كراهية الحكم الفرنسي .
على أنه من العدل أن نقتر أن هذا الحكم قد أتى بالخير العميم ،
وحسبه أنه ساعد على تكوين « حياة قومية » جديدة باعتراف
المؤرخ المعاصر سيراز بلباؤ إذ قال : « إنه منذ ذاك العهد بدأ
الناس ينطقون بحب ونفخار أكثر من ذي قبل اسم ايطاليا » ،
وباعتراف مازيني إذ قتر « أن النهضة الفكرية ونماء الرفاهية الوطنية ،
والشعور بالاخوة الذي تولد من المحاربة جنبا لجنب ، كل هذه
حقائق أصبحت متجلية خصوصا بين سنة ١٨٠٥ و ١٨١٣ ، ورغما
من تبعيتنا للامبراطورية الفرنسية وخضوعنا للاستبداد السياسي ،
والحروب القاسية فان شعورنا بقوميتنا الذي تمثل في جيشنا الباسل

قوى عزائمتنا ورسم لنا على البعد وحدة إيطاليا التي هي غاية الجميع في جهاهم .

ظهور هذه الحياة القومية يعدّ أكبر ثمرة للاحتلال الفرنسي في إيطاليا، وقد انتهى في سنة ١٨١٤، وكان الحلفاء وقت محاربتهم لنابليون يعدون الطليان بالحرية والاستقلال فلما ابتسم لهم الدهر ونفى نابليون في جزيرة إلبه قلبوا لهم ظهر المحن فما كان من أحرار الطليان إلا أن اتصلوا بنابليون في منفاه طالبين إليه العودة لبناء وحدتهم بسيفه ، ولما هرب نابليون من منفاه جازف مورات وهو حاكم نابولي ومن أشهر قواد نابليون ، فألقى دلوه في الدلاء وسار بجيشه إلى الشمال لمحاربة النمسا ونادى في طريقه باستقلال إيطاليا ولكنه لقي الهزيمة والموت .

مؤتمر فيينا — بعد عودة نابليون حدثت موقعة واترلو الشهيرة ونفى نابليون ثانية في جزيرة سانت هيلين فاجتمعت دول النمسا وإنجلترا والروسيا وبروسيا وفرنسا في مؤتمر فيينا لتقرير المصير في خريطة أوروبا التي كانت الثورة الفرنسية وحروب نابليون سببا في تحويرها وتبديلها .

وكان ممثل النمسا الوزير الأول مترنخ من أكبر أعداء الثورة وأنصار النظام في النصف الأول من القرن التاسع عشر، والمراد

بالنظام بقاء البلاد على ما هي عليه من ظلم واستبداد لا سيما في الولايات التي تتكوّن منها النمسا .

وكان غرض مؤتمر فيينا الأساسي فيما يختص بايطاليا هدم نتائج الثورة الفرنسية وارجاع الحال إلى ما كانت عليه قبل الثورة (Restoration) فاقتضى ذلك تجزئة ايطاليا ثانية وتوزيع ولاياتها بين أسرتي الهابسبورج النمسوية والبوربون الاسبانية ووضعها ثانية تحت سلطان الأمراء والأشراف والاكليروس والبوليس ، وهذه أهم نتائج المؤتمر :

(١) استردت بيمون استقلالها لأنها كانت عوناً للحلفاء في حربهم ضد نابليون .

(٢) كسبت النمسا :

(أ) امتلاك ولاية لومبارديا وحل مملكة ايطاليا .

(ب) نشر نفوذها بواسطة أمراء نمسويين في توسكانة ، مودوين ، وبارم .

(ج) تعهد فرديناند — وهو من أسرة البوربون وحاكم نابولي الجديد — بأن لا يمنح شعبه حرية أكثر من الحرية التي تتمتع بها ولاية لومبارديا النمسوية .

وبالاجمال بسطت النمسا نفوذها من جديد على إيطاليا .
ولكن المؤتمر ارتكب غلطة كبرى إذ اتبع رأى مترنخ
الذى كان يعدّ إيطاليا « شكلا جغرافيا » ولم يقيم وزنا لمبدأ
القومية الذى أعلنته الثورة الفرنسية وبدأ يتأصل فى الأمم كافة
وفى الطليان .

وارتكب الملوك والأمراء الذين رد المؤتمر اليهم عروشهم التى
ثلثتها الثورة الفرنسية والاحتلال الغلطة عينها فلم يحسبوا حسابا
لتطور السكان، وكان أكبر همهم هدم ما شاهده الفرنسيون من عمل
نافع والرجوع بالبلاد إلى الوراء . بلغ من حنقهم على الفرنسيين
أن دمرت "حديقة النبات" فى تورينو لأنها من صنع الاحتلال
الأجنبى، واضطر المجلس البلدى الى بناء كنيسة فوق الجسر الممتد
على نهر البو حتى لا يكون نصيبه الهدم وهدمت فى روما مصابيح
الاضاءة لنفس السبب .

ولم يكن من الطليان بعد أن ذاقوا بعض ثمار الحرية
إلا التفكير فى أمرين :

(أولهما) طرد الغاصب النمساوى الذى ينشر بينهم العيون ويحكمهم
بالبوليس والقوة الغاشمة .

(ثانيهما) التخلص من ظلم الأمراء الأجانب أو الوطنيين الذين يحولون بينهم وبين التمتع بالحرية الفردية والاجتماعية ويقفون أمامهم سدًا في طريق الإصلاحات . ولأجل تحقيق هذه الغاية اضطر الطليان الى تكوين الجمعيات السرية وبدأت فكرة الثورة تختمر في رؤوسهم وتمخض عن حركات ثورية متفرقة الى أن حان الزمن وظهرت في أجلى مظهر لها عام ١٨٤٨ حيث ثارت معظم شعوب إيطاليا .

قلنا إن الثورة الفرنسية أرادت تحرير الفرد وتحرير الشعوب المظلومة وقد بذرت بذورها في أوروبا فكانت تنمو ببطء أو على عجل حسب استعداد البلدان وتهيؤ الظروف ، وكانت لها مظاهر ثلاثة :

- (المظهر الأول) قيام الشعوب ضد ملوكهم المستبدين ومطالبتهم بالحرية والدستور كما حدث في فرنسا واسبانيا والنمسا .
- (المظهر الثاني) قيام الشعوب المظلومة ضد الدول الأجنبية المحتلة لها وتكوين وحدتها كما حدث في إيطاليا .
- (المظهر الثالث) قيام شعوب لتحقيق وحدتها فقط كما حدث في ألمانيا .

ولأجل مقاومة مظاهر الثورة والعمل على قتلها تحالفت الدول الكبرى وكان عميدها مترنخ عدو الثورة اللدود الذي صرح بأن «السياسة العصرية في أوروبا يجب أن يكون أساسها الراحة» ومعنى الراحة الجمود وعرقلة التقدم .

وقد كانت نتيجة المؤتمر في أوروبا تعطيل سير الحركات الوطنية أو القومية الحرة وتحويلها الى حركات ثورية عنيفة كما حصل في اسبانيا سنة ١٨٢٠ وفي فرنسا سنة ١٨٣٠ و ١٨٤٨ وقد كان لهذه الثورات الأجنبية صدى في إيطاليا اذ قامت هناك حركات ثورية استفاد منها «مترنخ» وجعل الدول تقرّر مبدأ «التدخل المسلح» في الممالك التي تحدث فيها اضطرابات ضد النظام وبالتعاون بواسطة جيوشها على قتل كل حركة .

الفصل الثاني

الحركات الثورية

قام بالحركات الثورية في ايطاليا بين سنة ١٨٢٠ و ١٨٣٠ جمعية الكربوناري ، وبين سنة ١٨٣٠ و ١٨٤٨ مايني وجمعياته « ايطاليا الفتاة » ، ثم دخلت الثورة في طور نظامي عملي في صورة حرب .

جمعية الكربوناري — إن النظام الجديد في ايطاليا بين سنة ١٨١٥ و ١٨٢٠ وما اشتمل عليه من مساوئ — كاستئثار القساوسة بالتعليم ووضع حقوق جمركية تعرقل التجارة بين الولايات وارجاع الامتيازات — أغضب الأحرار الذين كانوا عقدوا آمالهم على نابليون لتحرير بلادهم ، وقد أدى ذلك الى تقوية جمعية الكربوناري وانضمام الكثيرين اليها حتى أصبحت لحزب وطني .

وكان الكربوناري مهندس سنة ١٨٠٧ منتشرين في جنوب ايطاليا ، ومعظمهم من فخامى الكلابر (Charbonniers) ، هربا من يوسف بوناپرت الذي كان يضطهدهم ومن الاحتلال الفرنسي ، وكانت غايتهم من حيث استقلال البلاد مهمة ، وذلك لأن الفكرة

الاستقلالية عندهم كانت متولدة من كراهية الظلم على أن كراهية الظلم عندهم لم تكن وليدة التربية السياسية أو التربية الوطنية بل كانت وليدة التربية الدينية والمبادئ الروحية (Mysticism) التي كانت خليطاً بين الماسونية وفلسفة القرن الثامن عشر، ومن مآثور أقوالهم : « إن المسيح أول فريسة للظالمين » فكان الصليب منصوباً في جميع ألواجههم ، وكان نظامهم أشبه بنظام الماسونية ، يشرف اللوج الأعظم في روما على ألواجههم العديدة .

وقد انتشر نفوذ الكربوناري شيئاً فشيئاً في بلاد الشمال حيث تكون حزب اصلاحي تحت رئاسة كونفالونيري : أوجد هذا الحزب المراكب التجارية وأدخل آلات النسيج والحجاز وغيرها من طرق الاصلاح ، وأنشأ في سنة ١٨١٩ مجلة "كونسلياتوري" وهي لسان حال النهضة الأدبية الجديدة "الرومانتيزم" التي بها يتحرر الفرد من قيود الماضي وتبرز شخصيته ، ولكن السلطة النمساوية لم تحتمل وجودها وصايرتها فاضطر الحزب الى العمل في الخفاء واضرام نار الثورة والاتصال بالكربوناري جنوباً .

ثورات سنة ١٨٢٠ و ١٨٢١ - كان فرديناند ملك نابولي مستبداً مكروهاً من جميع الطبقات لاسيما الجيش حيث وجد الكربوناري معظم أنصارهم .

ما كادت تحدث في اسبانيا الثورة العسكرية للطالبة بالحرية والدستور وتصل أنباؤها الى نابولي — وبينهما روابط قديمة متينة — حتى هب الضابطان موريللى وسلفاتى على رأس فرقة من الفرسان يطلبان ملكا وطنيا ودستورا (٣ يوليه سنة ١٨٣٠) : فى أقل من ثلاثة أيام امتدت الثورة على مسافة عظيمة بين كاتيناتا وبازيليكاتا وكان فى أفيلينو وحدها ١٢٠٠٠ جندى دستورى، خلاف ٥٠٠٠٠ جندى آخر تحت قيادة بيب (Pepe) ، عضو الكريونارى، وكانت هذه الجنود قبل الثورة مخصصة لمقاومة قطاع الطرق واللصوص .

رأى الملك فرديناند الخطر المهدق به فقبل منح الدستور وتنازل عن الحكم لولى العهد، ثم تألفت وزارة جديدة لم يكن فيها من حزب الثورة إلا القائد بيب فتج نزع مستمر بين الوزارة والكريونارى ستستفيد منه النمسا .

وفى يوم ١٤ يوليه ثارت جزيرة صقلية التابعة لنابولى مطالبة بالانفصال عنها وبالدستور، ولكن هذه الثورة كانت حربا مدنية أكثر منها قومية نظرا لانقسام أهل صقلية على أنفسهم .

وفى أثناء ذلك كان عدو الثورة والحرية مترنخ يرغب ويزيد ويدعو الدول الى الاجتماع والتدخل لتوطيد دعائم النظام بينما كان

أهل نابولي في شغل شاغل من أمورهم الداخلية التي ارتبكت
للسبب الآتية :

(١) عدم الثقة بالملك الأجنبي .

(٢) استبداد حزب الثورة الكربوناري ورغبته في الحلول محل
البرلمان .

(٣) وجود أعضاء كثيرين في البرلمان تطن في رؤوسهم
مشاريع الإصلاحات ولكن تنقصهم التجارب .

(٤) وجود وزراء غير أكفاء يتعدون عن الشعب ويتقربون
إلى الملك ومترنخ خوفا من الثورة في الداخل والغزوة من الخارج
أما الشعب فكان من جهته مترددا بين الثورة ضد الملك وضد
النمسا والتعرض لخطر الغزو وبين السكوت والتعرض لخطر ضياع
الدستور .

وسرعان ما اجتمعت الدول بناء على دعوة مترنخ في ليياخ
وقررت إرسال جيش في نابولي قضى على الثورة والدستور (٢٣ مارس
سنة ١٨٢١) .

ولكن في نفس الوقت الذي انطفأت فيه ثورة نابولي في الجنوب
قامت ثورة أخرى في الشمال في يميون حيث انتشر الكربوناري

خصوصا بين طبقات الجيش وكان اتصافهم بالأمير شارل ألبريولى
العهد مشجعا لهم .

وأول شوب الثورة فى الاسكندرية فتورينو، وأهم مطالبها
«دستور كالدستور الاسبانى وتكوين « مملكة ايطاليا» التى كان
أنشأها نابليون بحيث تمتد على جميع أنحاء ايطاليا، وكان زعيم الثورة
الجرىء سانتاروزا .

أجاب الملك على ذلك بأن تنازل عن الملك لأخيه شارل فيليكس
الذى كان غائبا فى مودين ، وفى أثناء غيابه عين الأمير شارل البير
صديق الكربونارى وصيا فاتهز هذه الفرصة ومنح الدستور وحلف
اليمن ، ولكن الملك شارل فيليكس استنكر الدستور عند عودته وطلب
إلى اسكندر ملك روسيا أن يمدّه بجيش لمقاومة الحركة فأعلن وزير
الحربية فى العهد الجديد سانتاروزا زعيم الثوار أن الملك أسير
النمساويين وسار بالجيش والطلبة المتطوعين للقاء الجيوش الأجنبية .

ولسوء الحظ هزمه النمساويون فى نوفار فهرب الزعماء فى جنوى
والخارج ، وحكم بالاعدام على ٢٠٠ نفس ورفت ٢٢٠ ضابطا
وأغلقت جامعتا جنوى وتورينو لأن أساتذتهما وشيبتهم لعبوا دورا
كبيرا فى الحركة ، وأخذت النمسا تبث الارصاد فى جميع أنحاء ايطاليا
وتشدد الرقابة على الصحف والكتب والأغاني حيث كانت تمنح كلمة

« الحرية » (Liberte) وتستبدل بها كلمة الطاعة (Loyaute) ، ثم عملت على إقامة الدعاوى السياسية وتسميم الجوّ أملاً في قتل الحركة خصوصاً في لومبارديا وفينيسيا وحكم بالاعدام على كثيرين من الزعماء الوطنيين في البلدان المختلفة بحجة التآمر ، وبلغ من تدخل النمسيين في جميع شؤون الولايات الإيطالية في ذلك الوقت أن قال أحدهم : « أن الطليان يأكلون من النمسا حتى في خبزهم »

ولكن هذه الاجراءات الاستبدادية كانت خير سداد تثبت فيه الحركة نباتاً طيباً .

وقد نقل الكربونارى بعد فشل ثورة نابولى مركزهم من الجنوب وجعلوا لوجههم الأعظم في باريس ومن هناك اشتغلوا على بعد . وكان مترنخ بين سنة ١٨٢١ — ١٨٣٠ يطغى ويستبد بحجة الدفاع عن العروش في إيطاليا فترتب على ذلك أن الملوك والأمراء بدأوا لا يطبقونه واتصلوا سرا بالكربونارى للتخلص من الحكم النمسى ، وبدأت الحركة تنتشر ثانية في الرومانية والولايات التابعة للكنيسة . التي كانت بعيدة عن الثورة ، وما كاد يحل عام ١٨٣٠ حتى كان الكربونارى ، وهم في باريس ، قد أعدوا حركة ثورية منظمة في شمال إيطاليا ووسطها .

ثورة سنة ١٨٣١ — كانت الحركة السياسية في إيطاليا بين سنة ١٨٣٠ و ١٨٣٠ ضعيفة تئن تحت مظاهر الضغط والاستبداد وكان الكربونارى طريدين مشردين في كل مكان فلجأ منهم عدد كبير الى الولايات التي لم تحدث فيها الثورة: وهى مودين وبارم وولايات الكنيسة في وسط ايطاليا وأسسوا فيها جمعيات سرية .

ولما حدثت ثورة سنة ١٨٣٠ انتهزت هذه الجمعيات فرصة موت البابا بيوس الثامن في السنة عينها واتفقت على القيام بالثورة وتنصيب ملك مكان البابا في روما فأحس بذلك حاكم مودين وأمر بالقاء القبض على المتآمرين في مملكته وعلى زعيمهم مينوتى فنار جميع المتآمرين الآخرين في ولايات الكنيسة ونجحوا في تكوين حكومات جديدة بموظفين مدنيين حلوا محل القساوسة ، واشترك الجيش وكثيرون من الموظفين في الحركة فعمت في مدة لا تتجاوز الثلاثة أسابيع الولايات الشرقية : وقد أعلنت الحكومة المؤقتة في بولونيا عاصمة مودين التي كانت منبع الحركة بفضل جامعها انتهاء سلطة البابا المدنية وإجراء انتخابات عامة فانتخبت جمعية وطنية قصدها ثواب من جميع ولايات الكنيسة — مما دل على قومية الحركة — اجتمعوا وأعلنوا أنفسهم ” جمعية ثواب

المقاطعات الحرة بإيطاليا“ ولقبوا المقاطعات الشائرة المجتمعمة
 “بمقاطعات إيطاليا الموحدة“، وسرعان ما تدخلت النمسا وبددت
 شمل هذه الولايات وأرجعت الحال الى ما كانت عليه واكتفت
 الدول التي اجتمعت وقتئذ بارسال مذكرة الى البابا تنصحه باحداث
 اصلاحات منعا للشورة ، ولكن البابا لم يعمل بنصيحتها واستأجر
 فرقتين من العساكر السويسرية وأعد جيشا من المتطوعين لمحاربة
 جميع مظاهر الحرية والتقدم ، وبلغ به الأمر أنه كان يعد التلغرافات
 والسكك الحديدية وجميع مستحدثات القرن التاسع عشر أعمالا
 عدائية ضد الكنيسة .

ذلك مجمل الحركات الثورية في سنى ١٨٢٠ ، و ١٨٢١ ،
 و ١٨٣١ ويلاحظ :

- (١) أن هذه الحركات الثلاث كانت تسير على نهج الثورات
 الأجنبية في اسبانيا وفرنسا فلم يكن لها طابع وطنى أو قومى جلى .
- (٢) أن الحركتين الأوليتين فى نابولى وبيمون كانتا
 عسكريتين أكثر منهما شعبيتين ، أما الثالثة التى حدثت فى ولايات
 الكنيسة بالوسط فكانت سلمية بحتة ، وقد امتدت الحركات

الثلاث على أقاليم واسعة من إيطاليا ولكن امتدادها كان سطحيا
غير عميق .

(٣) أن الفكرة الاستقلالية لم تنضج بعد والفكرة الدستورية
أيضا ، ورغم ذلك فإن فكرة الوحدة القومية بدأت تتجلى
بطريقة جزئية محسوسة تبشر بالمستقبل سواء كان ذلك في الشمال
حيث كانت أمنية الغالبية من الطليان تكوين "مملكة إيطاليا" من
جديد ، أو في الوسط حيث ثارت ولايات الكنيسة وانضم بعضها
إلى بعض تحت اسم "مقاطعات إيطاليا الموحدة" .

ولكن النمسا القوية صاحبة النفوذ والسلطان حالت دون
تحقيق هذه الفكرة ، خصوصا وأن عدم وجود برنامج وطني
محدود للكربوناري لم يكن من شأنه تقوية الحركة وتعميمها بطريقة
جدية شعبية ، أضف إلى ذلك عدم وجود زعيم وطني بالمعنى
الصحيح .

كانت الخلافات حول البرنامج الوطني كثيرة هذه أهمها :

(١) هل ستكون إيطاليا مملكة واحدة تندمج فيها جميع
الولايات الإيطالية أو مملكتين مثلا إحداهما في الشمال والأخرى
في الوسط ، أو هل ستكون إيطاليا مجموعة ولايات متحدة ؟

(٢) هل ستكون حكومة إيطاليا المقبلة ملكية أو جمهورية؟

(٣) هل سيعتمد الطليان على أنفسهم أو على مساعدة أجنبية

من الخارج؟

كل هذه مسائل كانت تجول في نفوس الطليان المفكرين قبل

أن ينزل مازيني وجمعيته في الميدان .

الفصل الثالث

ما زيني

ولد ما زيني في عام ١٨٠٥ في مدينة جنوى وكان زمن الدراسة مولعا بالآداب الوجدانية الخيالية (Romantique) وكان محبا لبلاده بكل ما وهبه الله من قوة وعافية فاندمج صغيرا في الكربوناري وسرعان ما قبض عليه بحجة التآمر وألقي في السجن ، وهناك أخذ يفكر مليا في الحركة وكان واقفا على دخائلها فساقه ذلك الى التنبه الى أسباب ضعفها التي تنحصر في عدم ارتكازها على الشعب الذي هو عمود كل حركة قومية ، وعدم وجود غاية واحدة وطنية بحيثة تحل محل صيغ الكربوناري المبهمة ، وقد رأى انه لن تستمد الحركة قوتها من الشعب ، إلا اذا بدئ بتعليمه وغرس العقيدة الوطنية في فؤاده .

قضى ما زيني ستة أشهر في السجن ثم نفى الى مرسيليا وهناك شرع مع بعض قرنائه من الشبان المنفيين في تأسيس جمعية "ايطاليا الفتاة" .

في أثناء ذلك تولى شارل البير صديق الكربوناري في صباه الملك في بيمون فشخصت اليه جميع الأبصار ولا سيما الأحرار، فاعتنم مازيني هذه الفرصة وأرسل اليه كتابا ينم عن شجاعته ووطنيته العالية يبلغ العشرين صفحة طبع خلصة وتداولته الأيدي في جميع أنحاء إيطاليا، وكان يشتمل على برنامج الجمعية الجديدة وإننا نجتزئ منه بما يأتي :

« لم يعد الشعب يقنع بالقليل من المنح ، وإنما يريد أن يعترف بحقوقه الانسانية التي حيل بينه وبين التمتع بها زمنا طويلا ، إنه يريد الحرية والقانون والاستقلال والوحدة ، وهو اليوم مقسم منقسم مظلوم ، ولقد يعز عليه ويؤلمه أن يسمع الزائر الأجنبي يدعو أرضه أرض أموات ، وأن تجرع كأس العبودية الى آخر نقطة فقد آلى على نفسه أن لا يحملها ثانية الى شفتيه فليكن الملك ذلكم البطل المحامي عن قضيتنا في بيمون وفي ايطاليا جميعها .

مولاي :

« إذا لم تكن لك يوم القيت اليك مقاليد الحكم من غاية سوى البقاء في دائرة من الذلة والمسكنة ، دائرة الملوك الذين تقدموك فظل مكانك وطأطأ الرأس تحت عصا العدو .

«أما إذا سمعت في نفسك صوتاً يناديك أنك ولدت لغاية
كبرى فاتبع ذلك الصوت ، فإنه صوت النبوغ والالهام ، صوت
إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها .

مولاي :

«إن إيطاليا جميعها تنتظر كلمة منك ، كلمة واحدة تهب نفسها
لك ، فانطق بهذه الكلمة وكن على رأس هذه الأمة ، وليكن شعارك
وشعارها : الوحدة والحرية والاستقلال ، ثم أعلن حرية الفكر
وصرح بأنك المطالب بحقوق الشعب المنادي بها ، الباعث إيطاليا
من لحدها ، وشيد المستقبل واجعل اسمك يتألأ في جبين عصر
جديد ، وليكن يومك فاتحة ذلك العصر وما عليك إلا أن تسلك
السبيل التي تتفق مع إرادة الأمة وأن تثبت وتصبر فالنصر
لا بد لائقك .

مولاي :

«إذا فعلت ذلك التففنا حولك وفديناك بأرواحنا وسقنا تحت
لوائك الولايات الإيطالية ، وبيننا لاخواننا ومواطنينا من أيا الوحدة
وسعيننا في فتح اكتاب عام ، وعلت في كل ناد تلك الصيحة التي
تخلق الجيوش .

ضم شتاتنا ، يامولاي ، وابن وحدتنا فاننا لا شك غالبون .
 ذلك هو النداء الذي صم الملك أذنيه عن سماعه ، ولكن الشعب
 أصاخ له وجرى الناس للاندماج في جمعية "إيطاليا الفتاة" التي كان
 هذا النداء بيانا عاما لخطتها .

أما البرنامج المرسوم فيتلخص في النقاط الآتية :
 الغاية — تحرير إيطاليا من الاستبداد الخارجي والداخلي
 وتكوين وحدتها في ظل حكومة جمهورية .
 الوسائل — نشر التعليم والثورة في وقت واحد بواسطة حرب
 العصابات المسلحة (Guerilla) اذا اقتضت الضرورة .
 الشعار — الله والشعب .

الراية — في جهة منها : الوحدة والاستقلال ، وفي الجهة
 الأخرى : حرية ، إخاء ، مساواة .

هذا برنامج الجمعية ، أما الصلة الحقيقية التي كانت تربط
 أعضاءها بعضهم ببعض فهي صلة العقيدة الوطنية ، تلك العقيدة
 الايجابية التي كانت تدفعهم إلى تحقيق مطمح سام هو وحدة إيطاليا
 واستقلالها ، فلم تكن سلبية كعقيدة الكر بوناري التي تعمل على
 تقويض دعائم الظلم القائم ولا تفكر فيما يجب عمله بعد ذلك .

وكان مازيني يعتقد في فائدة الحركات الثورية — وان كانت في الظاهر غير مثمرة — ويقول : « إنني صوت يصيح العمل » ولكنه أمام قوى النمسا المنظمة لم يستطع القيام إلا بمؤامرات وحركات عديمة الجدوى في مجموعها .

على أننا لا يجوز أن ننسى أنه نجح في نشر المبادئ الوطنية وتعميمها بين طبقات الشعب بقوة الشجاعة والعقيدة والاخلاص التي كان يحبها الشعب ويخضع لسلطانها .

وقد أنشأ حوالي سنة ١٨٣٢ جريدة لنشر الدعوة لمبادئه وجمعياته كانت تهرب وتوزع سرا في إيطاليا فلم يمض زمن طويل حتى تكونت فروع كثيرة للجمعية في جنوى ولغورن وسواهما من مدن إيطاليا الكبرى ، وكان ذلك كما يقول مازيني « انتصار المبادئ » فان هذه الحقيقة المجردة — وهي أنه في مدة ما كان أقلها قامت جماعة صغيرة من الفتيان لا تملك شيئا فوجدت نفسها على رأس جمعية قوية تطاردها سبع حكومات — دليل على أن اللواء الذي تحمله هو لواء الحق » .

وفي أغسطس سنة ١٨٣٢ طلبت حكومة فينونا نفي مازيني من فرنسا فاختفى عاما في مرسيليا وغادرها سنة ١٨٣٣ الى سويسرا وفي سنة ١٨٣٦ نفي من سويسرا فقصده إنجلترا التي كان يعدها وطنًا

ثانياً وذاق فيها صنوف الآلام ، وكان وهو في فقره المدقع يرسل الكتب والرسائل الى خلائه واتباعه في إيطاليا ويدير الحركة من بعيد .

ولكنه والحق يقال لم يبلغ النجاح الذي كان عمله خليقاً به لأسباب عديدة أهمها :

- (١) بعد مازيني عن مركز الحركة .
 - (٢) عدم حسابه حساباً كافياً للحقائق فكان يخيل اليه أحياناً في سورة غضبه انه في إمكانه أن يسير شعب إيطاليا تحت لواء الثورة ما بين غمضة عين وانتباهتها .
 - (٣) التجاؤه الى المؤامرات التي كان يبغضها الكثيرون والتي اضطر اليها اضطراراً .
 - (٤) صعوبة إيجاد حركة عامة في وقت واحد بسبب تيقظ النمسا وتفرق الولايات وعدم وجود «مركز قيادة عام» .
- كل هذه العوامل جعلت الجمعية بصفتها قوة عاملة منظمة ضعيفة النفوذ ولكنها كانت كبيرة بصفتها مبدأ سامياً اعتنقته النفوس ، بل لقد كان ضعف هذه الجمعية في معظم الأحيان سبباً في تعزيز المبدأ الذي تمثله وتقويته قال مازيني : « إن الطريق الوحيد الى الانتصار هو طريق التوضيح والثبات في التوضيح » .

وقد حدث أنه في عام ١٨٤٣ وجد شابان ضابطان في البحرية النمساوية من أعيان فينيسيا كانا متشبعين بتعاليم مازيني وجمعيته وكانا يعتقدان أن إيطاليا بحاجة كبرى الى مثل عال من الشجاعة والتضحية فأليا على نفسيهما أن يعطيا ذلك المثل وأن يذهبا الى جبال الأبينين الجنوبية لتنظيم حرب عصابات ضد القوة الغاشمة .

وعبثا حاول مازيني أن يقنعهما بالعدول عن رأيهما ، وما عتا أن انجها نحو الجنوب بعد أن أرسلا اليه خطتهما التفصيلية فأمكن الحكومة الانجليزية الوقوف عليها وابلاغها سرا الى حكومة نابولي التي أخذت أهبتهما .

وما كاد الضابطان يضعان قدمهما على اليابسة حتى قبض عليهما وأعدما رميا بالرصاص وهما يهتفان « فلتحيا إيطاليا ! » .

وكان لهذا الهتاف صدى رددته إيطاليا فأصابها منه هزة كهزة الكهرباء لأنه مثل عال للتضحية والموت فداء للوطن ، على أن إخفاقهما وموتهما تلك الميتة العاجلة الشنيعة أحدثا رد فعل في النفوس أضر بسمعة مازيني وجمعيته التي أخذت تضمحل خصوصا في ذلك الوقت الذي بدأ الطليان يشعرون فيه بضرورة الالتجاء الى وسائل أخرى غير وسائل التآمر أو الحركات الثورية الانفرادية التي كانت تكلف كثيرا وتنتج قليلا .

ويمكننا أن نقول إنه منذ سنة ١٨٤٣ بدأ نجم مازيني في الأفول وأخذ المعتدلون من مفكرين وساسة أمثال جيورتي وبالبو وكافور يسكون بزمام الحركة الوطنية فدخلت بفضلهم في طور تحقيق وإصلاحات سادت فيه السياسة العملية الحكيمة الى الغاية .

على أننا اذا ذكرنا المعتدلين وفضلهم على الحركة فان ذلك لا ينسينا فضل مازيني ، وكما أنهم مدينون له فانه مدين للكاربوناري فالكاربوناري أول من حارب الظلم باسم العدل السماوي ومازيني أول زعيم كبير قام في وجه الغاصب النمساوي ، الذي يشخص الظلم ، باسم الوطنية الصحيحة ، باسم المبدأ الذي غرسه في نفوس الطليان وحوله الى عقيدة ثابتة عند شبانهم وشيوخهم متطرفيهم ومعتدليهم على السواء ، فلا عجب اذا لقبوه « بنبي الوطنية » .

وقد أعطى مازيني لأمتة المثل الأعلى للاخلاص والتضحية فانه رغما من كونه جمهوريا صميا كان متسامحا مع خصومه وقد أثبت نفسه أن ترغم الناس على اتباع مذهبه تاركا اختيار شكل الحكومة النهائي الى ما بعد الوحدة التي هي الغاية الكبرى ، يقول مازيني : « أننا سنطأطئ الرؤوس ونقبل أى شكل للحكومة يختاره الشعب بتصويت عام لأنه من واجب الرأى الفردى أن يخلى السبيل أمام رأى الأمة » .

بهذه الحكمة الوطنية العالية صان مازيني الوحدة التي كان يسعى في تحقيقها والتي كانت لا تقوم إلا على أساس من وحدة القلوب ومنع الانقسام أن يمتد إليها .

وهو أول من سعى لجعل فكرة الوحدة والاعتماد على النفس جزءا جوهريا أساسيا من الحركة الاستقلالية ، ومن كلامه :
« إن طرد النمساويين المكروهين أول غرض لنا فلا مناص اذن في القريب العاجل من حرب دموية لا رحمة فيها .

« ولا يجوز لنا أن نعتمد على الحكومات الأجنبية أو على مجهودات السياسة ، ويجب أن نطرح جانبا جميع الآراء المتعلقة باتحاد الولايات (Fédéralisme) أو بالاستقلال بدون الوحدة فان غاية " ايطاليا الفتاة " تحقيق الوحدة ، ولا يصح أن يلتف الطليان إلا حول راية واحدة ، راية ايطاليا جميعها » .

وكل ما يعاب عليه مازيني هو أنه كان خياليا أكثر منه عمليا وكانت تعاليمه الوطنية في معظم الأحيان تلبس الألفاظ الدينية والأخلاقية المتداولة ، مثل ذلك تعريفه لجمعية ايطاليا الفتاة : « أنها رابطة اخاء بين الطليان الذين يعتقدون في نظام من الواجب والتقدم ، والذين يعتقدون كل الاعتقاد أن ايطاليا ستصبح أمة ،

والذين سيعملون جهدهم لبناء إيطاليا من جديد أمة مستقلة ذات سيادة يتمتع بنوها بالحرية والمساواة» ولعل هذه الألوان الدينية التي طليت بها مبادئ مازيني هي أثر من آثار تعاليم الكربوناري والآداب الوجدانية الخيالية التي ولع بها صغيرا .

ومهما كان من الأمر فقد صرح مازيني بأن المسألة مسألة دينية وكان لا بد أن تكون كذلك في ذلك العصر الذي كانت فيه الروح المادية «المكيافيلية» متسلطة على النفوس قاتلة لكل عاطفة شريفة وكل تعلق بالمبادئ العالية التي هي منبع الحياة والتجدد عند الأمم إذ كانت إيطاليا مجموعة أفراد وولايات يسعى كل منها في سبيل مصالحته الخاصة الضئيلة .

ولا شك في أن مازيني أدى إلى أمته أصدق الخدمات بالصيغة الدينية التي ظهرت فيها معظم مبادئه فقد أكسبها ذلك قوة وساعد على تعميمها وغرسها في نفس الشعب لاسيما في وقت كانت فيه الحركة في طور الشباب ، طور الحماسة والحمية ، طور الهمتاف باسم الوطن ، ولكن الذي يمكن أن ينتقد عليه هو أنه لم يتطور مع الحركة التي تطورت ونضجت ، ولم يغير أساليب العمل فظل إلى آخر حياته يعمل على خلق الحركات الثورية والمؤامرات ، وأصبح نائرا بل متأمرا بعد أن كان في البداية زعيما وطنيا .

فطن كافور للأمر من زمن فكان يعتقد سنة ١٨٣٠ أن
إيطاليا لم تنضج بعد للثورة فقام للعمل حوالى سنة ١٨٤٣ هو
وجماعة من المعتدلين متفقين مع مازيني فى المبدأ الذى ساعد على
تأصله فى النفوس مختلفين معه فى الوسائل .

وكان جل غرضهم وهم مفكرون معتدلون وساسة عمليون
بعيدو النظر أن يدخلوا الثورة فى طريق اعتدال وإصلاحات علما
بأن هذا الطريق وحده هو الذى يوصل الى الثورة الصحيحة
المنظمة التى لا تقهر .

الفصل الرابع

المعتدلون (١٨٤٣ - ١٨٤٨)

هيمنت جمعية الكربوناري على الحركة الاستقلالية بين سنة ١٨١٥ و ١٨٣٢ وجمعية إيطاليا الفتاة بين سنة ١٨٣٢ و ١٨٤٣ ، ثم اضمحلت هذه الجمعية الأخيرة وحل مكانها بين سنة ١٨٤٣ و ١٨٤٨ جماعة المعتدلين أو المصلحين وعلى رأسهم زعماء ثلاثة : جيوبرتي ، دازجليو ، بالبو ، وجميعهم من رجال الفكر والعمل فأصبح بفضلهم للمعتدلين الذين كانوا منتشرين في إيطاليا من زمن شخصية محترمة ورأى يعتد به وصاروا أشبه بحزب يسير الناس تحت لوائه .

كانت الحركة في هذا العهد تتنازعها قوى ثلاث : الاصلاحيون ، والرجعيون ، والمزينيون .

كان الحزب الرجعي مكونا من الأشراف واليسوعيين في الولايات المختلفة ، وكانوا هم الأيدي التي تستعملها النمسا في الخفاء لمحاربة الحركة وقتلها ولذلك أطلق عليهم اسم "الحزب النمساوي" .

أما المزيّنون فقد كانت الحركات الثورية الفردية التي بدأ الناس يميلون عنها سببا في إضعاف شأنهم وتقوية حزب المعتدلين ، ذلك لأن العدو كان يستفيد منها فيحتل البلاد بحجة النظام ويسفك الدماء ويشدد الرقابة ، وكانت هذه الحركات في مجملها مظهرا من مظاهر الشجاعة التي لا يصعبها الرأي الحازم .

أما المعتدلون أو المصلحون فكانوا متفقين مع المتطرفين في مبدأ الاستقلال ، لا الوحدة ، لأنهم ما كانوا يعتقدون في امكانها وجل مطمئعهم تكوين « ولايات متحدة مستقلة » ، وكانوا متفقين مع المزيّنين في مبدأ الاعتماد على النفس لا المحالفات الأجنبية (Italia fara dâse)

ولكن الوسائل تختلف اختلافا بينا فالمعتدلون يعملون في دائرة القانون على التوفيق بين الأمراء والشعب باللين والرفق وحضهما على السير معا في طريق الإصلاحات فباتحادهما في العمل تقوى الحركة ، ويهيأ الشعب أحسن تهيئة للقيام في وجه العدو ، وتحل الثورة الشعبية الموحدة الغاية محل الثورات المحلية العديدة الحدودى التي تنسى الغاية القومية الكبرى .

وكان المعتدلون متشبعين بمبادئ مازينى الوطنية التي تركت أثرا واضحا في كتاباتهم ، وهم قوم عمليون يستغلون كل نتيجة يصلون اليها بالحيلة والطرق السامية المشروعة .

واليهم يرجع الفضل في التجاء الأمة الى الوسائل السلمية العلنية كالصحافة والمظاهرات والمؤتمرات العلمية التي انتشرت في هذه الآونة وكانت من أكبر العوامل التي عممت الحركة بعد أن كادت تختنق في كهوف المؤامرات السرية ومغاراتها ونشرتها بعد أن كانت مطوية طريذة الأمراء الوطنيين والتمسويين على السواء بفعلتها لتطور تطورا لم يسبق له مثيل في مدة لا تتجاوز الأربعة أعوام بين سنة ١٨٤٣ و ١٨٤٨ سنة الحرب الثورية القومية .

وكانت معظم المؤتمرات العلمية تحت رعاية الأمراء يؤمها الطليان من كل جانب للبحث في أحسن الطرق لترقية الشؤون الزراعية والعلمية والاجتماعية ، ولكن البحث كثيرا ما تطرق الى الأمور السياسية العامة فانقابت المؤتمرات الى برلمانات قومية بالمعنى الصحيح ^(١) .

ومن بين الإصلاحات التي كانت الشغل الشاغل في ذلك العصر مد السكك الحديدية لربط الولايات بعضها ببعض نظرا لأهميتها المادية والسياسية من حيث انماء الرفاهية وتكوين الوحدة .

(١) عقد مؤتمرات في بيز سنة ١٨٣٩ ؛ وتورينو سنة ١٨٤٠ ؛ وفلورانس سنة ١٨٤١ ؛ وبادو سنة ١٨٤٢ ؛ وليك سنة ١٨٤٣ ؛ وميلانو سنة ١٨٤٤ ؛ و نابولي سنة ١٨٤٥ ؛ وجنوى سنة ١٨٤٦ ؛ وفينيسيا سنة ١٨٤٨

وكان حزب المعتدلين الاصلاحيين حوالى سنة ١٨٤٣ ينقسم الى شعبتين : الشعبة الاولى وعلى رأسها الفيلسوف جيوبرتى كانت تولى وجهها شطر روما والبابا ، والشعبة الثانية وعلى رأسها بالبو وآزجليو كانت تولى وجهها شطر ملك ييمون شارل ألبير .

وكانت الشعبتان تعملان معاً لاكتساب عطف البابا والأمراء وأشراكهم فى الحركة الاصلاحية .

جيوبرتى (١٨٠١ - ١٨٥٢) - كان جيوبرتى رئيس القساوسة الأحرار فى صغره من أتباع مازينى وكان يكتب فى مجلة "إيطاليا الفتاة" . انتهى من تورينو سنة ١٨٢٣ فقصد بروكسل وألف فيها كتاباً قيمة كان لها أثر عظيم فى تطور الحركة ، ففى سنة ١٨٤٣ ظهر له كتاب انتشر بين جميع الطبقات عنوانه "أقلية الطليان الخلقية والمدنية" ، فكرته الأساسية التوفيق بين الدين والمدنية الحديثة ، وقد امتدح المؤلف فيه البابا ورجاه أن يكون زعيم الحركة الاصلاحية ، ومن أقواله : «بالارادة وصادق العزيمة يمكننا أن نصبح من غير هزات وثورات فى طبيعة شعوب العالم» وكان يقول كما زينى : «انه لمن العار أن يئأس المرء من عشرين مليون رجل» وبالجملة أراد جيوبرتى أن يؤلف بين النظريات الثورية والحقائق الكائنة .

سيزار بالبو — أحد أتباع جيوبرتى ألف في السنة
عينها (١٨٤٣) كتابا اسمه : "آمال إيطاليا" ولكنه لم يضع آماله
في روما بل في تورينو، ومن أقواله : « لا حياة بغير الاستقلال
القومى وأن بقاء الغاصب الأجنبى فى ولاية واحدة كاف للقضاء
على كرامة الولايات الأخرى وإفساد أخلاق الأمة جميعها » وكان
بالولا بيأس ويقول كما زينى وجيوبرتى : « ان أمة مكونة من
عشرين مليون نفس أمة لا تقهر اذا اتحدت وكان لها أخلاق » .

أزجليو — روائى شهير من بيمون ومن أكبر أنصار
ملكها شارل ألبير ذهب الى الرومانية فى سنة ١٨٤٥ ودعا الناس
الى الالتفاف حوله وترك الحركات الثورية السرية والمطالبة الجهرية
بالاصلاحات ، وقد وضع رسالة شهيرة عن "حوادث الرومانية
الأخيرة" ذكر فيها الحوادث الثورية العنيفة التى حدثت بعد مغادرته
تلك الولاية والقمع الاستبدادى الذى صعبها .

وفى هذه الرسالة ندد أزجليو بحكومة البابا وحكومة النمسا
ونصح الشعب أن يلجأ فى كل فرصة الى الاحتجاجات العلنية
السلمية فان التآمر فى وضع النهار أنفع وأفضل لكسب رأى العام
الذى ما آتحد فى المطالبة بشىء إلا وناله ، وعلى هذا رأى العام
وحده يجب على حكومة البابا أن تتركز اذا أرادت البقاء . وكان

لكتابات أزجليو أتركبير في تكوين « الرأي العام » وفي صقله وتهذيبه .

ولما مات البابا جريجوار السادس عشر انتخب فيراتي أوبيوس التاسع بدلا من لامبريشيني الذي كان يرشحه الحزب النمساوي فعم السرور في كل مكان وغان الناس أن البابا المصالح الذي كان يحلم به جيو برتي هبط ايطاليا خصوصا وأنه بدأ حكمه بالعفو العام فرجع الى وطنهم ٧٠٠ من الأحرار المنفيين والمسجونين تلهج له ألسنتهم بالدعاء، ومهما كان من الأمر فمن الثابت أن البابا الجديد لعب في الحركة الاستقلالية بين يونيه سنة ١٨٤٦ وديسمبر سنة ١٨٤٧ دورا كبيرا فكان لا يكاد يمر يوم بدون مظاهرات وديتاف للبابا ، وأنتعشت النهضة الإصلاحية في الولايات المختلفة فأعدت مشاريع إصلاحات كبيرة في يمون واكتب أهل الرومانية من ولايات الكنيسة بمبالغ عظيمة لفتح المدارس وتشجيع التعليم فانزعجت النمسا وهددتها بالاحتلال، وكان اشتراك البابا في الحركة، نظرا لمركزه الديني في العالم وفي ايطاليا، أكبر مشجع لللك شارل ألير على الدخول في زمرة المجاهدين وأتباع سياسة قومية إصلاحية أنت بانخير العميم في يمون، وقد سار ليوبلد الثاني أمير توسكانة

على نفس النهج وحقق مطالب شعبه وأهمها حرية الصحافة وإصلاح الإدارة .

في أثناء ذلك كان مترنخ يرسل المذكرات التهديدية وما عثم أن احتل فيراري بجنوده فاحتج الطليان في جميع الولايات على هذا العمل الذي كان لطمة لكرامتهم القومية ، ولما عقد المؤتمر الزراعي في سنة ١٨٤١ تلا الكونت كاستاجنيتو في الجلسة الأخيرة كتابا جاءه من الملك شارل البير يقول فيه : « اذا من الله علينا بحرب استقلالية كنت وحدي على رأس جيشها ، وما أجمل ذلك اليوم الذي ترن فيه صيحة الحرب في سبيل استقلال البلاد » فرد عليه المؤتمر وطلب اليه أن يضع نفسه على رأس الحركة وأن يستل في الحال سيف الاستقلال من غمده .

وفي ذلك الوقت — أي في سنة ١٨٤٧ — تطورت الحركة وانقلبت من حركة إصلاحية إلى حركة دستورية ، ولذلك أسباب ثلاثة :

(١) ان المعتدلين كانوا في مبدأ الأمر مستسلمين طوعا أو كرها أملا في كسب الأمراء ، ثم حلت الجراءة محل الاستسلام وهي نتيجة التطور الطبيعي .

(٢) ان حزب الرجعيين وخصوصا الموظفين منهم في روما

والولايات الأخرى كانوا يعرقلون تنفيذ القوانين الإصلاحية فكانت تظل معظمها في الدائرة النظرية بدون تطبيق ، ومن ثمة كانت الحاجة الى برلمان يراقب السلطة التنفيذية .

(٣) ان الإصلاحات التي عملت لم تكن كافية فكان لا بد من وجود برلمان للقيام بجميع أنواع الإصلاحات الضرورية .

وقد أسس كافور في سنة ١٨٤٧ ، وكان عمره وقتئذ ٣٧ عاماً ، بالاشتراك مع بالبو وسانتاروزا وكاستيلي وغيرهم في تورينو جريدة البعث (Risorgimento) وكانت لسان حال النهضة الحديثة التي تنحصر أغراضها في إظهار مزايا النظم الدستورية والمطالبة بها لتهيئة البلاد للانقلاب المنتظر ، في استقلال إيطاليا ، والتوفيق بين الأمراء والشعوب ، والتحالف بين الولايات الإيطالية .

في سبتمبر سنة ١٨٤٧ ثار الأحرار في رجيو ومسيني بجزيرة صقلية التابعة لولاية نابولي صائحين : « ليحيى بيوس التاسع ! ليحيى الدستور » وسرعان ما امتدت الثورة واضطر فرديناند الى منح الدستور .

ولما عقد الصحفيون في جنوى في أوائل سنة ١٨٤٨ اجتماعاً حضره عدد كبير من رجال السياسة لتعظيم مطالب أهل جنوى المتعلقة بالحرس الوطني وطرد اليسوعيين قام كافور بكل

بحرأة وقال : ان «الذى يجب عليكم أن تطالبوه قبل كل شيء هو الدستور فالدستور وحده هو الذى يوطد دنائكم السلطة باعطائه إياها قاعدة جديدة تتفق مع روح العصر» وايد جميع الاصلاحيين كافور ولكن شارل البير تردد زمنا ثم منح الدستور فى ٤ مارس وعين بالبو زعيم المعتدلين وصديق كافور رئيسا لأول وزارة دستورية .

وفى توسكانة قام الشعب بمظاهرات كبيرة للطالبة بالدستور فتمنحه ليوبولد الثانى فى ١١ فبراير سنة ١٨٤٨ ، وقامت المظاهرات فى روما أيضا وأرسل سكان ولايات الكنيسة من متطرفين ومعتدلين آلاف الامضاءات للطالبة بالدستور متبعين فى ذلك خطة الزعيم الارلندى أوكونل الذى كان يستند الى العرائض والمظاهرات السلمية والرأى العام ، وأخيرا منح البابا الدستور فى ١٥ مارس .

والخلاصة أن الحزب الاصلاحى نجحت سياسته فى يهون وتوسكانه وروما حيث قامت حكوماتها على قواعد دستورية وبدأت السلطة المدنية تحل محل السلطة الدينية التى كانت تعرقل الاصلاحات .

وكان لهذه الحركة الاصلاحية صدى كبير فى الولايات الخاضعة للنمسا لاسيما لومبارديا حيث كان زعيم المعارضة فى ميلانو الجمهورى الكبير مانان رجلا عمليا يحب النظام ويعتقد أنه لا يمكن

القيام في وجه النمسا إلا في حالة شوب حرب أوربية وأن المعارضة السلمية المنظمة تربي الشعب وتضمن احترام أوروبا لاطاليا وكان «وهو قانوني واقف على أسرار القانون ودقائقه يريد أن يثير النفوس بالطرق القانونية وأن يسوقها بحركة نظامية مستمرة الى نقطة تمكن فيها الحماسة المتولدة من الظروف من خلق الثورة» .

وكان رادسكى قائد جيوش الاحتلال في ايطاليا وقتئذ يمتنى أن ياجأ الطليان الى وسائل العنف ليتخذ منها ذريعة لسحقهم وهو القائل : « أن ثلاثة أيام دموية تريحنا ثلاثين عاما » .

وقد اجتهد أهل ميلانو انتقاما لأنفسهم من الظلم النمساوى في تقليد أهل بوسستون وطريقة مقاطعتهم للبضائع الانجليزية ، فصمموا على مقاطعة الدخان في رأس السنة الجديدة لضرب المالية النمساوية ضربة جديدة وإعطاء مثل عال من التضحية لأن الطليان كانوا جميعا مولعين بتدخين السيجار .

ولما جاء اليوم المضروب خات الشوارع من المدخنين فوزعت السلطة النمساوية على جنودها كميات وافرة جدا من السيجار وأمرتهم بالسير في الشوارع ونفخ الدخان بكثرة في وجوه المارة ، فلما أعيتهم هذه الحيلة أعملوا الحراب في العمال وهم عائدون الى منازلهم وأطلقوا الرصاص على عزل من السلاح ، وتكررت هذه

المناظر الوحشية في مدن أخرى كجافى وبادو وسجين الزعيم مانان وكثيرون من الأحرار فاستمرت مظاهرات الاحتجاج ليل نهار ضد الحكومة واستقال عدد كبير من الموظفين وعبثا حاولت الحكومة أن تجد آثار مؤامرة «انها كانت» كما يقول أزجليو، مؤامرة شعب بأسره .

وبالجملة كانت الولايات الإيطالية على العموم قبل حرب سنة ١٨٤٨ الاستقلالية في حالة ثورة، وكان الرأي العام قد اشتد ساعده للطالبة بالدستور والحرية والاستقلال .

في فبراير سنة ١٨٤٨ حصلت الثورة الباريسية وخاع لويس فيليب الذى اشتهر هو ووزيره جيزو باتباع سياسة الجحود، سياسة عدو العصر مترئخ، فكان لاعلان الجمهورية الثانية ونجاح الثورة أثر كبير في تحريك الثورات الكامنة في نواحي أوروبا .

وفي ١٧ مارس ثار الشعب في فينا " حصن الاستبداد " ووصلت الأنباء مساء الى فينسيا فهاج الشعب وأخرج مانان من السجن وكوّن حرسا وطنيا للحفاظة على النظام، وثارت في اليوم نفسه ميلانو وأقيمت المتاريس في كل مكان، ونشبت بين لومبارديا جميعها وبين النمساويين حرب عنيفة اضطرتهم الى التقهقر الى خط المنسيو .

وفي ٢٢ مارس نادى مانان زعيم الثوار فى فينيسيا بانتهاء
الاحتلال الأجنبي واعلان الجمهورية .

وقد تحمس أهالى بيمون من أول ساعة لنصرة اخوانهم فى لومبارديا
وفينيسيا فكتب كافور فى جريدة البعث يقول : « أمام حوادث
لومبارديا وفينيسيا لا يجوز أن نتردد لحظة واحدة ، واننا نحن أصحاب
الذكاء الهادئ الذين تعودنا العمل بمشورة العقل لا بدافع الأهواء
والعواطف نرى من واجبنا أن نصرح مطمئين أنه لم تبق إلا
سبيل واحدة للأمة ، للملك : تلك سبيل الحرب العاجلة » .

وفى يوم ٢٩ مارس وضع شارل البير نفسه على رأس الحرب
الثورية وأصدر بيانا الى شعوب لومبارديا وفينيسيا يقول فيه : « لنا
الثقة بالله الذى وهب لاطاليا بيوس التاسع والذى أيقظها وجعلها
تعتمد على نفسها » .

وسرعان ما سالت سهول لومبارديا الشمالية بالآلاف المتطوعين
يأتون أفواجا من الولايات المختلفة ، وقد أرسل أمير توسكانه بلاغا
الى جنوده يقول فيه : « أيها الجنود : إن قضية استقلال ايطاليا
المقدسة سيفصل فيها فى سهول لومبارديا ، وقد اشترى أهل ميلانو
حريتهم بدمائهم ، وهاهى جنود بيمون تسير تحت لواء مليكها ، وان
أبناء ايطاليا وورثة عظمة السلف من العار عليهم أن يظلوا

في منازلهم في هذه الساعة العصبية ، فامضوا سراعا وضموا صفوفكم الى صفوف المتطوعين تحت راية واحدة » .

وقد بادرت ولايات لومبارديا وفينيسيا ويارم ومودين وأعلنت بتصويت عام انضمامها الى ولاية ييمون .

ولكن مما يؤسف له أن الشقاق دب في صفوف الأمة وتسربت روحه الى الجيش لأن أنصار مازيني من جمهوريين وديموقراطيين كانوا في ميلانو مثلاً يخترضون السكان على التصويت ضد الانضمام الى ييمون ومليكمها وجروا على سياستهم تلك حتى بعد التصويت والعدو واقف على الأبواب ، ولت الأمر وقف عند هذا الحد ، فإن البسايا ظل على الحياد ، وأنحر أمير نابولي إرسال الجيش الذي وعد به ، وحل البرلمان في ١٥ مايو سنة ١٨٤٨ وكان أول من خان الثورة .

وفي ٥ أغسطس سنة ١٨٤٨ هزم شارل البير تحت أسوار ميلانو فأرادت المدينة تجديد ثورة مارس ولكن القواد أجمعوا رأيهم ضد الحرب فعقد ملك ييمون الهدنة وأخذت صحف الديموقراطيين والمتطرفين ترميه بالخيانة وتطعن عليه فأصدر الملك بياناً جاء فيه : « اننى لا أجهل التهم التى يريد البعض أن يدنس اسمي بها ولكننى أترك الحكم للتاريخ العادل ، ولطالما خفق قلبي

لاستقلال إيطاليا ولكن إيطاليا لم تثبت الآن أن في مقدورها أن تعتمد على نفسها. أي شعوب إيطاليا! كونوا أقوياء في هذه النكبة الأولى واستغلوا النظم النيابية الحديثة العهد ، وثقوا بملككم فإن قضية الاستقلال لا تزال قائمة» .

حدثت بعد ذلك حركات ثورية في روما حيث فر البابا هاربا الى مدينة جيت بولاية نابولي في ١٤ نوفمبر سنة ١٨٤٨ فأجريت في غيابه انتخابات لاختيار شكل الحكومة الجديد بواسطة جمعية وطنية ، وفي ٥ فبراير سنة ١٨٤٩ انعقدت الجمعية وكانت الغلبة فيها للمتطرفين الذين قزروا إعلان الجمهورية .

وكان الطليان عموما وخصوصا الجمهوريون في الولايات وفي بيمون يلحون صباح مساء في استئناف الحرب فأعلنت في ٣٠ مارس سنة ١٨٤٩ وهزم القائد النمساوي رادتسكي الملك شارل البيرشر هزيمة في نوفار فما كان من الملك إلا أن ترك صوب لجانه لفكتور عما نويل الثاني الذي ستحقق إيطاليا على يديه وحدتها واستقلالها .

وبعد نكبة نوفار أراد البرلمان الروماني تقوية الحكومة فسلم مقاليد السلطة التنفيذية الى مازيني ، وسافي ، وأرميليني ، ولكن البابا استنجد بنابليون الثالث رئيس الجمهورية الفرنسية الذي كان

في هذا الوقت يعمل على كسب ثقة الجيش والقساوسة ليعاونوه على هدم الجمهورية بجاء أودينو على رأس جيش فرنسى واحتل روما بعد أن دافع جارييلدى عنها دفاعا مجيدا (٣ يولييه سنة ٤٩). وظلت فينيسيا وحدها تقاوم النمسا حتى النهاية مقاومة خلده التاريخ لها ولزعيمها الأكبر مانان أجمل الذكر .

ونتلخص أسباب فشل ثورة ١٨٤٨ - ١٨٤٩ فيما يأتى :

(١) ان إيطاليا دخلت الحرب القومية قبل أن تتم الاصلاحات وقبل أن يتيسر للبرلمانات الجديدة أن تصلح الحكومة وتخرج منها جميع الموظفين الرجعيين الذين كانوا ألد أعداء الثورة والإصلاح .

(٢) ان بقاء البابا على الحياد بعد أن كان معقد آمال الجميع وبعد أن هتف باسمه الأمراء والشعب قبل الحرب وفي أولها كان ضربة قاسية لها .

(٣) ان إيطاليا التى دخلت الحرب لم تكن إيطاليا الكهلة الناضجة بنت التجارب والسياسة ، بل كانت إيطاليا الفتاة التى تمكن خيالها السامى من فؤادها فغلبها على أمرها .

وسرعان ما عجلت النمسا بعد انتصارها ببسط نفوذها على البلاد حتى خيل للبعض أن إيطاليا فى سنة ١٨٤٨ ما زالت فى موقف

سنة ١٨١٥ ، والحقيقة أن إيطاليا في أواخر القرن الثامن عشر كانت بفضل شعرائها وأدبائها الوطنيين وبفضل المبادئ التي أعلنتها الثورة الفرنسية على ملأ العالم كالجنيين وسقط الظلام ، ولكنها في نهاية الاحتلال الفرنسي سنة ١٨١٤ وجدت حياة قومية جديدة فنزلت هذه الطفلة الى الوجود فتجاهل مترنخ في مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ وجودها ، ثم ثارت في سنة ١٨٢٠ وفي سنة ١٨٢١ وفي سنة ١٨٣١ تحت لواء الكربوناري فأثبتت أنها تريد أن يعترف بوجودها ، ثم جاء مازيني وغرس في فؤادها المبدأ وحوله الى عقيدة ثابتة فعملت "إيطاليا الفتاة" على تحقيق خيالها السامي وتقلدت سيفها في أنحريات شبابها سنة ١٨٤٨ فهزمتها النمسا ولكن هذه الهزيمة كانت تجربة كبرى وكانت نتائج هذه التجربة ثلاث :

(١) ان مبدأ الاعتماد على النفس الذي أعلنه مازيني واعتنقه شارل البيركان لا بد وأن يسير جنباً لجنب مع مبدأ الاعتماد على محالفة أجنبية — وهو ماسيسعى في تحقيقه كافور بين ١٨٤٩ و ١٨٥٩

(٢) ان مبدأ الاستقلال قبل الوحدة ، الروحية على الأقل ، لا يصلح ، ولا بد من ترك فكرة النظام الاتحادي .

(٣) أصبحت ييمون بحكم الفعل بين ١٨٤٩ و ١٨٥٩ الولاية الوحيدة المستقلة الدستورية فبينما كانت الحركة الرجعية تطارد

الأحرار والحرية في كل ولاية كانت يميون ملجأ لعشرات الآلاف من أبطال الثورة المنفيين (يقال إنهم كانوا خمس سكان مدن يميون) وكان برلمان يميون خير ضمان للتقدم والرقى : كل ذلك جعل الأسس التي ستقوم عليها إيطاليا الحرة متينة في يميون .

(٤) ظهر عدم صلاحية فكرة مازيني الأصلية القائلة بثورة ٢٠ مليون إيطالي بواسطة حرب العصابات ، لأن ثورة سنة ٤٨ التي قام بها الشعب بأسره وبلغ عدد الجيش فيها من نظاميين ومتطوعين ٨٠٠٠٠ لم تنجح ، وكان عدم وجود نظام متين يحل محل النظام الذي ترتب له الوطنية من أكبر عوامل الهزيمة ، فوجب من ذلك الوقت العمل على تنظيم الجيش بعدد وعديد وإدخال الثورة في طريق الوحدة المتأسكة ، في طريق العمل الصامت الذي لا يعلن عن نفسه ، في طريق السياسة التي تحتال ، في طريق الإصلاحات الاقتصادية التي هي دعائم الاستقلال السياسي ، حتى تخرج منه الثورة في صورة حرب منظمة أدواتها جيش منظم .

الباب الثاني

عصر الحروب والاصلاحات

قطعت الحركة الاستقلالية مرحلتها الثانية بين سنة ١٨٤٨ و ١٨٧٠ : في العشر سنوات الأولى بين ١٨٤٨ و ١٨٥٩ نضجت الحركة ودخلت بفضل مساعدة نابليون الثالث في طور تحقيق .

الفصل الأول

القوى الرئيسية في الحركة

لأجل تفهم المرحلة الثانية نبتدى بكلمة اجمالية عن القوى الفكرية الرئيسية في الحركة : هذه القوى يمثلها مازيني وجيوبرتي ، وفكتور عمانويل ، وكافور ، ومانان ، ولافارينا ، وجاريلدي ونابليون .

مازيني — أصبح مازيني بعد سنة ١٨٤٨ صعب الاحتمال صعب القياد لأنه لا يتطور فبينما كان الطليان يعقدون آمالهم على

يمون وجيشها ظل مازيني متعنتا في التمسك بوسائله الثورية وعدم الانتظار هو وأنصاره الذين ما فتئوا يرمون ملوك يمون بالخيانة والتهاون في حقوق البلاد ، والواقع القول أن نفوذ مازيني قضى عليه بعد ثورة ٤٨

جيـوبرتى — تطوّر جيوبرتى بعد ثورة ٤٨ ووضع في سنة ١٨٥١ كتابا جديدا في "النهضة" (Rinascimento) فيه تركه لسياسته السابقة التي كانت ترمى الى جعل البابا زعيم الحركة واعتنق مبدأ سيادة مملكة سردانية بصفتها الأساس الذي لا بد منه للاستقلال الايطالى ، وكان لهذا الكتاب أثر كبير في السياسة العامة .

فيكتور عمانوئيل — هو الذى أمضى صلح سنة ١٨٤٩ ، وقال فى أثناء مفاوضاته مع رادتسكى : « إننى بدلا من قبول هذه الشروط أفضل ضياع ألف تاج ، إن اليمين التى حلفها أبى لا بد أن أحافظ عليها ، وإن بيتى ليعرف طريق المنفى لا طريق العار » هذا هو خلق الرجل الذى كان من أكبر بناة الوحدة والاستقلال أما سياسته فقد أعلنها فى أول بيان أصدره الى شعبه : « كل مجروداتنا يجب أن توجه الى تضيييد الجروح

التي أصابت بلادنا وتقوية دعائم النظم النيابية» ، وقد نجح في توطيد المملكة وانتشال التاج من الوهدة التي كان فيها .

كافور — يكاد يكون كافور أكبر ساسة القرن التاسع عشر، سياسته عملية تغتم كل فرصة وتتجنب بواسطة الإصلاحات الثورة في الداخل ، وتعمل في الوقت نفسه على تهيئة الثورة الصحيحة ضد الأجنبي المحتل تحت ستار السلم والنظام ، وهو الذي كوّن مملكة إيطاليا الشمالية سنة ١٨٥٩ بمساعدة فرنسا ، وإليه يرجع الفضل الأكبر في بناء وحدة إيطاليا .

مانان — مانان من أكبر رجال ثورة ٤٨ اشتهر فيها بدفاعه الخالد الذكر عن فينيسيا ، وكان جمهوريا صميا من أنصار الثورة في دائرة القانون والحكمة . نفى في باريس بعد سنة ٤٩ فعاش فيها وذاق أنواع الفقر ، وهو أول من وضع برنامجا مرسوما للحركة فصرح للصحافة في ١٩ مارس سنة ١٨٥٤ « بأن استقلال إيطاليا ووحدتها غير منفصل أحدهما عن الآخر يكفلان لها راحتها وطمأنينة أوروبا » .

وكان مانان سنة ٤٩ يريد جمهورية مكونة من ولايات متحدة مستقلة ولكنه وهو رجل عملي يضحى بأرائه الشخصية في سبيل

الصالح العام تطوّر ولما بلغه أن نابليون يرغب في تعيين ابنه لميراث
ملكها على نابولي كتب الى الصحف في ١٥ سبتمبر سنة ١٨٥٥ يقول :
«إذا كانت إيطاليا الجديدة لا بد أن يكون لها ملك فيجب أن
يكون ملك ييمون» .

فنانان هو رافع لواء الوحدة لتندمج تحته جميع الأحزاب في حزب
قومي واحد ، واليه يرجع الفضل في إقناع كافور في سنة ١٨٥٦
باتباع برنامجه الوطني المحدود الذي يتلخص في هاتين الكلمتين :
«إيطاليا وفكتور عمانويل» .

وقد أسست تحت رعايته وهو في منفاه في سنة ١٨٥٧
«الجمعية الوطنية» (Société-Nationle) التي لعبت دورا كبيرا
في الحركة زمتنا طويلا .

لا فارينا — كان لافارينا من رجال ثورة صقلية
في سنة ٤٨ وكان رأيه المقاومة الى النهاية فنفي في ٢٣ أبريل
سنة ١٨٤٩ ، وألف في سنة ١٨٥٦ — بمناسبة دسائس نابليون
في نابولي رسالة عنوانها «ميراث والوحدة الايطالية» أيد فيها —
بالرغم من كونه جمهوريا — برنامج مانان ، برنامج الوحدة والاستقلال
قبل كل شيء .

ولافارينى من أكبر الرجال المتحركين العاملين فهو الذى لم شتات حزب مانان فى "الجمعية الوطنية" التى كان هو سكرتيرها ، وبفضل نشاطه صار للجمعية لجان فرعية فى أنحاء إيطاليا المختلفة وأمكنها أن تمسك بزمام الحركة .

جاريبيلى — كان وطنيا مخلصا من أنصار حرية الشعوب وهو رجل السيف الذى ضم جنوب إيطاليا الى شمالها .

نابليون — لعب نابليون الثالث رئيس جمهورية فرنسا وامبراطورها دورا كبيرا فى الحركة الإيطالية مدة ٢٠ عاما . كانت سياسته مملوءة بالمتناقضات خليطا بين الخيالات والعمليات وهو من أكبر الرجال الذين عملوا على تطبيق مبدأ القومية فى أوروبا وخصوصا فى إيطاليا ولكنه شوّه هذا المبدأ بوقوفه فى طريق وحدة إيطاليا — أقول الوحدة لا الاستقلال — لتكون الدولة المجاورة لفرنسا ضعيفة مقسمة ، وبوضع يده على نيس وسافواى ثمنا لمساعدته .

وقد لعبت يمين بعد ثورة ١٨٤٨ أكبر دور فى الحركة ، وتاريخها فى العشر سنوات الأولى هو تاريخ الحركة التى رفع لواءها هؤلاء الزعماء وأولهم كافور .

الفصل الثاني

كافور (١٨١٠ — ١٨٦١)

ولد كافور في تورينو حاضرة بيمون في ١٠ أغسطس سنة ١٨١٠ واشتغل بالسياسة حوالى سنة ١٨٣٩ ، وقد اعتقد من وقت حدوث ثورة يوليسه الباريسية في مزايا الملكية الدستورية التي هي وسط بين حكومة مستبدّة وحكومة جمهورية ، ودرس في شبابه المسائل الاقتصادية والزراعية في فرنسا وانجلترا وعاد سنة ١٨٤٧ الى تورينو حيث انضم الى المعتدلين الاصلاحيين وأسس جريدة البعث للطالبة بالدستور الذي كان هو أكبر عامل على ايجاده وتوطيد دعائمه .

وبالرغم من فشل ثورة ٤٨ — ٤٩ فانه لم يئأس وكان يقول : « إن مستقبل ايطاليا مكفول ما بقى الدستور في بيمون » وانتخب عضوا في أول برلمان وكان أكبر همه تأييد وزارة أزجليو في سياستها الاصلاحية ، واشتهر في سنة ١٨٥٠ بخطبته البرلمانية المتعلقة بقوانين « سيكاردى » وهذه القوانين هي بدء النزاع الكبير الذي دام عشرين عاما بين ملك بيمون زعيم السلطة المدنية وبين البابا زعيم السلطة الدينية .

أما سبب النزاع القائم فيتلخص في افتئات السلطة الثانية على الأولى فان البابا كانت له ولايات في ايطاليا هو الأمر الناهى فيها وكانت روما ، بسبب استئثار القساوسة واليسوعيين بالسلطة المدنية ومحاربتهم الإصلاحات ، بؤرة الحركة الرجعية ، وفوق ذلك كان القساوسة والرهبان في جميع الولايات الأخرى حكومة داخل الحكومة ، ففي بيمون مثلاً كان عددهم يبلغ ١٨٠٠٠ ، وكان للكنيسة وحدها الحق في تطبيق القانون عليهم في محاكمها الخاصة وحق مراقبة التعليم وما شاكل ذلك من الامتيازات المعرّقة للإصلاح ، وكان دخلها $\frac{1}{10}$ من دخل الحكومة مما دعا الى تدمير الأهالى وكان لا بد من وضع حدّ لتلك الحال : أرسل فكتور عمانويل الكونت سكاردى الى البابا فأبى أن يحدث أقل تغيير في العلاقات بين الكنيسة والحكومة في بيمون فما كان من الحكومة إلا أن ألغت أكبر محكمة للكهنة وكثيراً من الامتيازات ، وألقى كافور تأييداً لهذه السياسة في ٧ مارس سنة ١٨٥٠ خطبته الشهيرة التي جاء فيها :

«إذا أردتم أن نتجنبوا الثورة فاعملوا الإصلاحات في ميعادها ، ولا تظنوا أنها تزعزع العرش الدستوري فالأمر على الضدّ ، إنها تقويه وتمكّنه في أرض الوطن حتى اذا هدّدتنا الثورة ثانية كان

العرش الدستوري هاديا والتفت حوله جميع القوّات الحية في إيطاليا وسار على رأس هذه الأمة الى الغاية الكبرى .

وفي أكتوبر سنة ١٨٥٠ عين كافور وزيرا للزراعة والتجارة. مكان سانتا روزا فعمل على تنفيذ إصلاحات كبيرة لإنماء رفاهية البلاد واهلاء شأنها ونظم الجيش والأسطول، ومد السكك الحديدية، وعقد معاهدات تجارية مع فرنسا وبلجيكا وسويسرا وألمانيا كانت عاملا كبيرا في تنشيط التجارة وزيادة الثروة وكانت أول خطوة في سبيل المحالفات السياسية .

وفي سنة ١٨٥٢ عين كافور بعد استقالة أولى تبعها سياحة في الخارج وزير يمون الأول فرسم برنامجا في خطبة له : «على يمون أن تبدأ بترقية نفسها فتهيئ لها في أوروبا وفي إيطاليا مكانة رفيعة تتناسب مع مطامعها، ولتكن سياستها المقبلة واحدة في غايتها مرنة متنوعة في وسائلها فيما يتعلق بنظام الجيش والسياسة الدولية والمسائل الدينية» .

ولأجل تحقيق هذه السياسة كان كافور يسعى في :

(١) نشر عوامل التقدم والنهضة في يمون تحت ظل الحرية والدستور والنظام .

(٣) عدم الظهور في أوروبا بمظهر زعيم ثوري لأن أوروبا كانت تكره الثورة خصوصا وان النمسا كانت تدعى أن ييمون ملجأ مشعل النار في أوروبا .

كان كافور في داخل ايطاليا يحارب فكرة الثورات المحلية الانفرادية التي تفتح الأعين ولا تأتي بثمرة تذكر ، ولكنه كان في الوقت نفسه يعمل على الاستفادة منها سياسيا في الخارج فيتهم النمسا بأن سياستها الخرقاء تهدد السلام في ايطاليا وتولد الثورة فيها .

(٣) العمل على جعل تورينو مركز الحركة في ايطاليا جميعها فكان في خطبه يذكر ايطاليا كلما ذكر ييمون ، وكان يظهر في صورة المحامي عن الطليان المظلومين في الولايات المختلفة ، وكان يسهل لآلاف المنفيين في ييمون طرق المعيشة سواء كان ذلك باعطائهم كراسي في الجامعة أو وظائف في الحكومة ، وكان في الوقت نفسه متصلا في السر بجميع قوى الثورة المنظمة في ايطاليا ويشجعها ويدير حركاتها في الخفاء .

(٤) التقرب من الدول والتحالف مع فرنسا لمساعدة ييمون على طرد النمسا من شمال ايطاليا .

وكانت مسألة المحالفة أساسية في سياسة كافور ليضمن النجاح

أمام النمسا الكشيرة العدد والعدد ، فلما حدثت الحرب الشرقية في القرم وأرادت إنجلترا وفرنسا محاربة روسيا سعتا في إشراك بيمون معها ووعدتها إنجلترا باقراضها مليون جنيه فقبل كافور بشرط أن تكون بيمون ممثلة في جميع المؤتمرات التي تعقد بسبب الحرب وبشرط أن تعتبر بيمون حليفة لا مأجورة ، ولم يتمكن كافور من انفاذ خطته الحرية الا بفضل وقوف فكتور عمانويل بجانبه ضد المعارضة التي كانت تعد عمله جنونا ، وقد أرسل كافور لأمير مور منظم الجيش الى القرم ومعه ١٧٠٠٠ جندي أبلوا بلاء حسنا فيه شرف ونفخار لبلادهم .

وفي سنة ١٨٥٦ عقد "مؤتمر باريس" ومثل فيه كافور بيمون فاحتل فيه بفضل سياسته الحكيمة المتفوقة مكانة أعلى من المكانة التي تتناسب مع ولايته الصغيرة ، ورسم للمؤتمر أثناء انعقاده ضرورة الظلم السائد في ولايات البابا وفي ولاية نابولي وصرح « بأن السبب الأساسي هو النمسا عدوة استقلال إيطاليا والخطر الذي يهدد كيان الأمة الوحيدة الحرة فيها ، تلك الأمة التي لي الشرف بتمثيلها » .

ورغما من تأييد النمسا وإنجلترا لكافور أبي ممثل النمسا أن يعد بأجراء أي اصلاح في إيطاليا .

وبعد انفضاض المؤتمر قدم كافور مذكرة الى ممثلي فرنسا وانجلترا الكونت فالفسكى واللورد كلارندن ألقى فيها كل المسؤولية على النمسا المتعنتة التي تعمل بسياستها على خلق الثورة في ايطاليا .

ولا يفوتنا أن نذكر في هذا المقام أن النمسا بين سنة ١٨٤٩ وسنة ١٨٥٦ كانت مهيمنة على جميع ايطاليا وقد عقدت مع أمراء ولايات الوسط معاهدات تنحّول لها حق التدخل بالقوة عند حصول ثورة من السكان وحق احتلال البلاد في حالة حرب .

حاول نابليون الثالث أثناء انعقاد المؤتمر مساعدة كافور على الخروج منه بمكسب مادي كضم بعض البلاد الايطالية الى بيمون فلم يفلح ، على أن هذا المؤتمر يعتبر ، رغمًا من ذلك ، نقطة أساسية جديدة في تاريخ بيمون ارتكزت عليها المسألة الايطالية في الأفق الأوربي ، واعترفت الدول عمليًا بوجودها ، فصححت بيمون مركزها ، بصفتها صاحبة الحق في الدفاع عن الطليان الذين هضمت النمسا حقوقهم ، وتقرر مبدأ شرعية الثورة التي لجأ وسيلجأ اليها الطليان ثانية تحت لواء بيمون لهدم الظلم القائم .

لما عاد كافور الى بيمون خطب في مايو سنة ١٨٥٦ خطبة قال فيها : «ان القضية الايطالية أصبحت الآن أمام محكمة الرأي

العام» فاحتججت النمسا ضدّ ادعاء كافور التكلم باسم إيطاليا واتهمت الوزير الجسور بالتحريض على الثورة .

وقد كان لعمل كافور في المؤتمر أثر عظيم في نفوس الأحرار في ولايات إيطاليا فأرسلت إليه ولاية البابا مدالية ذهبية مكتوبا عليها بيت شعر لبتزارك معناه : « ما تصنع هنا هذه السيوف الأجنبية العديدة ؟ » .

وكانت النمسا في آخر سنة ١٨٥١ أرادت تغيير سياستها فأرسلت الى مملكة لومبارديا وفنيسيا ما كسميليان حاكما عليها لإجراء بعض الإصلاحات ولكن ذلك ما كان ليهدي ثائرة الأحرار الذين قال بأسانهم مانان وهو في منفاه في باريس : « إننا لا نطلب الى النمسا أن تكون أكثر رحمة بنا من ذي قبل وإنما نطلب اليها أن تتجلى عن ديارنا » .

استمرّ كافور بعد عودته من المؤتمر في تنفيذ سياسته فبنيت حصون جديدة في الاسكندرية ، ودعت جريدة وطنية في تورينو الى فتح اكتاب عام لشراء ألف مدفع توضع في حصونها فوردت مبالغ جسيمة من الطليان في جميع أنحاء العالم ، وفتح سرداب مون سيني وهو أجل الأعمال النافعة ، وأصلحت أرصفة ميناء جنوى فتجددت رفاهيتها ، وبلغ ما مدّ من السكك الحديدية

بين سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٥٨ — ٩٩٠ كيلوم ، ونظم الجيش والأسطول .

كان مانان زعيم فينيسيا في باريس يقول : « إن في ايطاليا قوتين حيتين : جيش بيمون والرأى العام » ولا شك في أن سياسة كافور كانت تدور حول هاتين النقطتين اذ بينما كان يعد الجيش في بيمون ويزيده عمل جهده ليحوطه بقوة الرأى العام الايطالى ، هذه القوة الأدبية التى لا بد منها لتحقيق الغاية .

ولكن لأجل كسب الرأى العام كانت الحاجة شديدة الى قوة منظمة روحها العقيدة والالهام : كانت هذه القوة ممثلة أحسن تمثيل في مانان وفي "الجمعية الوطنية" التى أنشئت في تورينو تحت رعايته وكانت كافور اطاع على سرها عند تأسيسها بواسطة لافارينا ، شعار هذه الجمعية : « الاستقلال والوحدة ، طرد النمساويين والبابا » وكان كافور يرى كل صباح قبل طلوع الفجر لافارينا ويتفق معه على خطة السير .

وفي سنة ١٨٥٧ عين بالافيسينو صديق مانان وناشر مبادئه في ايطاليا رئيسا للجمعية وجارibaldi وكيلا لها ، فأكسبها اسم بطل مونتفيديو وقوة وحياة بين طبقات الشعب .

وفي يناير سنة ١٨٥٨ جرت حادثة "أورسيني" الذي حاول أن يقتل نابليون الثالث في طريقه الى الأوبرا زاعما أن خلاص إيطاليا متوقف على موت ذلك الرجل المستبد ، ويظهر أن هذا الحادث أثر في نفس الامبراطور فاعتزم أن العمل ودعا كافور للقائه سرا في بلومبيير بجبال الشوج في ٣٠ يولييه سنة ١٨٥٨ واتفق معه شفويا على مساعدة ييمون بجيش قدره ٢٠٠٠٠٠ ضد النمسا بشرط ألا تكون الحرب نخبة فكرة ثورية إذ لا بد من مبرر سياسي في أعين الدول ، وبشرط أن تضم سافواي ونيس الى فرنسا .

من ذلك الوقت استخدم كافور "الجمعية الوطنية" لنشر الدعوة لليمون وجمع المتطوعين من جميع أنحاء إيطاليا استعدادا للحرب المقبلة ، وأشار كافور على الجمعية منعنا لكل خلاف بابدال شعار الاستقلال بالوحده ولعل هذا التغيير كان في الظاهر ، وفي سنة ١٨٥٨ قدم لافارينا جاريلدى الى كافور ليكون واقفا على ما يحدث وليأخذ أهبطه .

وكان الأثر في الولايات وخصوصا في لومبارديا تغتلى فيهم الوطنية ويتربعون بفارغ الصبر حرب الحرية والاستقلال .
وفي أثناء استقبالات رأس سنة ١٨٥٩ أظهر الامبراطور لسفير النمسا في باريس أسفه لأن العلائق بين البلدين ليست

حسنة كما كانت من قبل فكان لهذا التصريح في الدوائر السياسية مغزى كبير .

وفي ١٠ يناير ألقى الملك خطبة أعدها له كافور بمناسبة افتتاح البرلمان جاء فيها : «إن الحالة ليست خالية من الأخطار وإنما وإن كنا نحترم المعاهدات ولكننا لا يمكننا أن نصم آذاننا عن صيحة الألم (Grido di Dolore) التي تصعد إلينا من بلاد بعيدة في إيطاليا .

« أقوياء في بلادنا ، واثقين بعدالة قضيتنا ، ها نحن أولاء نترقب بالحكمة وصادق العزم أمر الله سبحانه » .

كان هاتين الكلمتين "صيحة الألم" صدى ردده إيطاليا واهتزله الرأي العام من كل جانب .

ولكن نابليون بدأ يتردد تحت تأثير الدول وطلب إلى كافور المجيء للقاءه في باريس (٢٦ مارس) ورجاه أن لا يعجل بالحرب نخشى كافور أن تفلت الفرصة من يده وهتده بخوض غمار الحرب وحده وبإفشاء أسرارهم مما قاله له : « عندنا اليوم قوة أدبية تعدل جيشا ، إذا فقدناها لم نجد من يردها إلينا » ، هذه القوة الأدبية التي يعنيها كافور هي قوة الرأي العام .

ومن ثمة كان شغل كافور الشاغل لإيجاد "المبرر السياسي" الذي اشترطه نابليون ، وكأنما أرادت النمسا أن تتكفل هي بخلقه إذ طلبت الى بيمون إيقاف التسليح فأخذ كافور في مراوغتها ومضايقتها بأساليبه السياسية الدقيقة حتى ضاق ذرعها وأرسلت في ٢٣ أبريل الى حكومة بيمون بلاغا تتقدم اليها فيه بترع السلاح في الحال والرد في مدة لا تتجاوز ثلاثة أيام .

كان هذا البلاغ بمثابة إعلان حرب وغلطة سياسية كبرى حملت النمسا وزرها ، روى أن كافور قال عند استلامه البلاغ لبعض أصدقائه : «قضى الأمر وكتبت لنا صحيفة في التاريخ ، فلنمض الى العشاء» .

وفي ١٣ مايو تقابل الملك في جنوى مع الامبراطور الذي جاء «ليحرر إيطاليا من جبل الالب الى الادر ياتيك» ، وفي ٤ يونيو انتصر الحلفاء على النمسا في ماجنتا ودخلوا ميلانو في الثامن منه ، وفي يوم ٢٤ انتصروا انتصارا كبيرا في سولفرينو وسان مارتينو ، وهنا وقفت رحي الحرب فجأة وذهب نابليون على غرة للقاء الامبراطور فرنسوا جوزيف في «فيلا فرانكا» حيث عقدت بينهما هدنة تقتر بمقتضاها ضم لومبارديا الى بيمون وترك فينيسيا للنمسا .

آلم هذا النبأ الغير المنتظر جميع أحرار الطليان في فينيسيا ومودين

وتوسكانه وعدّ كافور هذا العمل من الامبراطور خيانة وحاول أن يقنع الملك بعدم الموافقة على شروط الهدنة فلم يفلح فاستقال ومضى الى مزارعه في اليرى ، ويقال أن هذه أول مرة تغلب فيها سلطان الغضب على ذلك العقل الراجح .

ذهب كافور بعد ذلك الى سويسرا وهناك وسمّع برنامجا وجعله كبرنامج مانان : « إنهم يتهموننى — يقول كافور — بأننى رجل ثورى ولكن يجب قبل كل شئ أن نسير الى الأمام ، ونسّير » .

ولما عاد الى وطنه وكانت "الجمعية الوطنية" قد تكونت من جديد — بعد انحلالها فى أول الحرب لترك زمام الحركة لحكومة ييمون — أخذ يعمل بواسطتها على نشر الدعوة فى إلميا وتوسكانه للانضمام الى ييمون .

وفى ٢٠ يناير سنة ١٨٦٠ دعاه الملك لرئاسة الوزارة إجابة لرغبة الرأى العام ، ويمكن القول بأن كافور بعد صالح فيلافرانكا مسك بزمام الثورة صراحة وعدا بها عدوا جريئا فى طريق الوحدة والاستقلال ، عانه على ذلك تقرير نابليون فى الصلح مبدأ عدم التدخل ، واحتجاج إنجلترا على سياسة النمسا وسعيها فى جذب الحركة الايطالية اليها لا سيما وأن الطليان أصبحوا ساخطين على فرنسا ،

وقد عرف كافور كيف يستفيد من الخلاف بين الدولتين وأجرى في الحال استفتاء عاما (Plebiscite) في ولايات الوسط تأكيذا لمبدأ القومية الذي نادى به نابليون وارضاء له فأعلنت ولايات توسكانه والرومانية ومودين وبارم بواسطة جمعيات منتخبة انضمامها الى مملكة الشمال في ظل عثمانييل .

وفي ٢٤ مارس سنة ١٨٦٠ أمضى كافور — والأسي ملء فؤاده — مع مندوب فرنسا معاهدة تعطي سافواي مهد الأسرة الحاكمة ونيس وطن جارييلدي الى فرنسا بشرط أن يوافق سكان المقاطعتين والبرلمان الايطالي على ذلك ، وفعلا تمت هذه الموافقة في أبريل فدل الطليان بهذه التضحية على تشبعهم بالروح السياسية العالية .

كافور وجارييلدي — أخذت أنظار الطليان بعد اندماج ولايات الشمال والوسط في مملكة واحدة نتيجة الى الجنوب ، وبينما كان البابا يحشد الجند تحت قيادة لامورسيير استعدادا للطوارئ ، وفرنسوا الثاني ملك نابولي يتهاى لمساعدة البابا لاسترداد الولايات المفقودة أشعل المزيزيون نار الثورة في مدينة بالرم بجزيرة صقلية فاتفق لافارينا سرا مع كافور على إرسال حملة الى الجنوب يرأسها جارييلدي وأمدّه بالمال اللازم وبعدد كبير من بنادق

الحكومة ، وقد بذل كافور جهده في تغطية مسئولية حكومة ييمون أمام الدول المحتجة .

ويحذر بنا الآن أن نقول إن كثيرا من المزيين كانوا يتوهمون أن كافور ليس من أنصار الوحدة الذين يعتمد عليهم ، والحقيقة أن سياسة كافور كانت عملية متنوعة بحسب الظروف فإذا رأى أن في إمكانه مثلا الذهاب في طريق الوحدة الى مدى أبعد مما كان يعتقد لم يتردد لحظة واحدة ، وكافور هو الذي قال بعد معاهدة فيلا فرانكا : «إنهم ممنعون من بناء إيطاليا بالسياسة من الشمال وسأبنيها بالثورة من الجنوب» .

وفي مساء ٥ مايو غادرت حملة جارييلدى المسماة "حملة الألف" مدينة جنوى الى بالرم التي كانت خير عون للشائرين ، وفي يولية امتدت الثورة في صقلية وقلبت حكومة البوريون فيها ، وأعلن جارييلدى فيها دكتاتوريته باسم الملك فكتور عمانويل فأعلن نابليون استيائه فأوعز كافور الى الملك بإرسال كتاب رسمي الى جارييلدى ينصحه فيه بالعدول عن عبور بوغاز مسيني ، ولكن كافور في الوقت نفسه أرسل في السر الى جارييلدى بواسطة صديقه القائد برسانو كتابا يقول له فيه : «انه لا يجوز الوقوف في منتصف الطريق» وسرعان ما عبر جارييلدى البوغاز في ليلة ١٩ أغسطس .

وفي أثناء ذلك كان كافور يعمل بكل الوسائل على خلق الثورة في مملكة نابولي مستعينا بسفير يمين فيها ، وفعلا ثارت ولايتها واضطر ملكها فرنسوا الى الفرار في مدينة جيت في ٦ سبتمبر ١٨٦٠ وفي غد ذلك اليوم دخل جارييلدي نابولي دخول الفاتحين والناس بين مهلل ومكبر .

ولما كانت الدول هائجة تحتج أرسل كافور الى جارييلدي ينصحه بالتعجيل باعلان ضم مملكة نابولي الى يمين لتكون الدول أمام امر واقع فأبى جارييلدي ، الذي كان وقتئذ ألعبوبة المزينيين المحيطين به ، بحجة أنه يريد إنقاذ روما أولا — مع علمه بوجود جيش احتلال فرنسي فيها — واسترداد نيس من فرنسا .

ولقد صدق ما نروني إذ قال : « إن الذي يعطى لسياسة كافور هذا الشأن الأول هو أنها جمعت بين التبصر وعدم التبصر » وهل أدل على ذلك من كون كافور لما رأى أن سياسة جارييلدي وحزب الثورة قد تنكبت سبيل الحكمة وأصبحت تهدد القضية فقرر في الحال — رغما من المركز الدولي الدقيق — أن تمسك حكومة يمين نفسها بزمam الثورة لتحسن سياستها وتوصلها الى غايتها . وفي أقل من عشرين يوما في سبتمبر خرج جيش يمين من

الحدود واحتل ولايتي مارش وأومبريا من ولايات الكنيسة وهزم جيش البابا ، وقد اقتنع جارييلدى أخيرا بضرورة الضم وبعد تصويت عام في مملكة نابولي وصقلية أعلن أهلها الانضمام الى ملكية فكتور عمانويل في ٦ أكتوبر سنة ١٨٦٠ وقضى على حكم البوربون فيها .

وكانت إنجلترا هي الدولة الوحيدة التي اغتبطت بانتصار الثورة الايطالية فبعث وزير خارجيتها الى السفير الانجليزى في تورينو بكتاب ذكره المؤرخ بيترورسى في مؤلفه جاء فيه : «يجب أن نعترف بأن الثورة الايطالية سيست بروح تسامح واعتدال لا نظير لها، فان سقوط الحكومات القائمة لم يعقبه كالعادة انطلاق سورة غضب شعبي ، ولم نتغلب في بلد ما آراء الديموقراطيين المتطرفة بل حال الرأي العام دون مظاهر المغالاة التي نصحب كل انتصار شعبي ، ولقد دققت حكومة جلالة الملك النظر في مقدمات الثورة الايطالية ونتائجها فلم تجد فيها ما يبرر التأنيب الشديد الذى وجهته حكومات النمسا وفرنسا وروسيا الى أعمال ملك ييمون، وإن حكومة جلالة الملك لتفضل أن ترى ذلك المنظر الرائع ، منظر شعب يعلى بناء حريته ويوطد دعائم استقلاله وسط عطف أوروبا ودعواتها الطيبات » .

وفي أواخر أكتوبر قصد فكتور عمانويل مدينة نابولي فذهب
جارييلدي للقائه في طريقه ببلدة في إقليم كازرتا ثم ذهبها معا الى
نابولي ودخلاها في ٧ نوفمبر بين الهتاف والتهليل ، وهناك أعطى
ذلك الجندي العظيم مثالا عاليا للوطنية الصادقة اذ سلم القيادة الى
ملك بيمون وعاد وحده للانزواء بجزيرة كابريرا .

وبعد ذلك أتم الجيش النظامي العمل الذي قام به المتطوعون
فاحتل الجهات والحصون القليلة الباقية .

وفي فبراير سنة ١٨٦١ اجتمع في تورينو أول برلمان ايطالى ،
وفي ١٤ مارس نودي بفكتور عمانويل "ملك لايطاليا" فأصبح
حاكما على ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ نفس .

فينيسيا وروما — لم يبق الآن أمام الطليان لتحقيق
وحدتهم واستقلالهم الكامل إلا فينيسيا وروما وهما مشكلتان
صعبتان لأن الأولى منهما تستدعى حربا جديدة مع النمسا بدون
نابليون الذى كان تحت تأثير الاكليروس عدو الوحدة ، والثانية
وعرة الطريق نظرا لمركز البابا في العالم الدينى ووجود جيش
فرنسى في روما .

أخذ كافور لأجل حل مشكلة فينيسيا يفكر في محالفة جديدة

وكان قد أرسل في سنة ١٨٦١ الفونس لامرمورا الى غليوم ملك بروسيا ليخبره « بأن الطليان اعتادوا على اعتبار بروسيا حليفة طبيعية لهم » ، و زيادة على ذلك فان كافور في تلك السنة عينها التقى مع زعيم الثورة المجرية في سنة ١٨٤٩ كوسوت وتحالفا على تحرير المجر وفنيسيا معا من قبضة النمسا .

أما المشكلة الثانية فيظهر أنه اعتمد في حلها على السياسة وأساليبها المرنة .

في ١٠ أكتوبر سنة ١٨٦٠ أعلن كافور في البرلمان « أن روما التي ورثت مجد ٢٥ قرنا لا بد وأن تصبح عاصمة مملكة إيطاليا » . وتناقش البرلمان في المسألة لغاية ٢٧ مارس فألقى كافور في ذلك اليوم خطبته الشهيرة التي أعلن فيها مبدأ « الكنيسة الحرة في الحكومة الحرة » وأيد البرلمان الوزير الكبير في خطبته .

ولكن بينما كان كافور يعمل على إتمام البناء مرض فمات في ٦ يونيو سنة ١٨٦١ مبكيا عليه من مواطنيه الذين جمع شملهم ورفع لواءهم وجعلهم أمة ، وبعد موت ذلك الرجل الذي قال عنه مازيني : « إنه وطني في صميم الفؤاد » ، وقال عنه سير روبرت بيل « إنه أكبر رجل قاد أمة في طريق الحرية » سار الوزراء الذين خلفوه — وما أبعد المدى — على النهج الذي رسمه لهم .

وفي ١٥ سبتمبر سنة ١٨٦٤ اتفقت فرنسا مع إيطاليا على جلاء الجنود الفرنسية عن روما بشرط أن لا يتعرض لها وأن يجعل الطليان عاصمتهم فلورانس ، وقد تم ذلك سنة ١٨٦٥ وهى السنة التى احتفلت فيها إيطاليا من أقصاها الى أقصاها بالعيد المئوى السادس لميلاد دانت أول شاعر إيطالى كان له أثر فى الحركة الاستقلالية .
ولما كان بسمارك يريد طرد النمسا من ألمانيا سعى فى الاتفاق مع إيطاليا فتحقت بذلك فكرة كافور وأمضيت مخالفة سرية بين روسيا وإيطاليا فى ٩ أبريل سنة ١٨٦٦

ابتدأت الحرب فى ٢٠ يونيه فهزم الطليان فى البر والبحر ولكن انتصار بروسيا ساعدهم على الخروج من الحرب بالغنيمة ففى ١٤ أغسطس أمضيت معاهدة براج التى سامت النمسا بمقتضاها فينيسيا الى نابليون الثالث الذى قرّر بصفته وسيطا تركها لإيطاليا بشرط موافقة السكان ، وقد وافقوا بالاجماع فى ٢١ و ٢٢ أكتوبر سنة ١٨٦٦

اهتم الطليان بعدئذ بحل مشكلة روما التى تعقدت منذ القانون الذى كان أصدره البابا فى ديسمبر سنة ١٨٦٤ ضد حرية الصحافة وحرية التعليم وجميع مظاهر التقدم الحديث ، ولما يئس الطليان من سياسة اللين ذهب جارييلدى مع فرقة من المتطوعين

للهجوم على روما رغما من تهديد نابليون بالتدخل لحماية البابا. فاضطرت الحكومة الى القبض عليه فتمكن من الهرب وعاد ثانية. قاصدا روما والتقى بالفرنسيين في طريقه فسالت الدماء وهزمت حماته واضطرت الحكومة الايطالية من جديد الى إرساله الى كابري .

وعبثا حاول الطليان اقناع نابليون بالترشح عن موقفه إزاء المشكلة الرومانية، صرح روهرو وزير فرنسا في ذلك الوقت بأن فرنسا « لن تتحمل أى اعتداء على شرفها وعلى الكاثوليكية وان إيطاليا ستجد فرنسا في طريقها الى روما يوم تغزو ولايات البابا » .

فلم يكن بد من الانتظار حتى حرب السبعين وسقوط الامبراطورية ، وقد كتب فكتور عمانويل ثانية الى البابا يرجوه رجاء بنويا أن يتخلى عن السلطة المدنية فلم يقبل ، فعول الملك على الالتجاء الى القوة ، وفي ٢٠ سبتمبر كانت الجنود الايطالية في روما نفسها ، فبادر سكان ولايات البابا باعلان انضمامهم الى حكومة فكتور عمانويل في ٢ أكتوبر سنة ١٨٧٠ وزالت بذلك أكبر عقبة في طريق الوحدة التي كانت أساس الحركة الاستقلالية في إيطاليا .

الكتاب الرابع

الفصول

دقات الساعة

الآن وقد عسعس الليل وهمس النسيم في آذان الربى وأخذ الكرى بمعاقد الأجفان طويت الكتاب طلبا للهجعة كي أصبح موفور البدن فما كنت أطفئ المصباح وتأخذني سنة من النوم حتى أرنت الساعة الدقاقة فنابتني رعشة ونبا بي المضجع ونفى السهاد أثارة من الكرى عقلت بأجفاني بعد ما هجع الطير والحيوان .

تتصف الليل ومر بعد وهنة ساعتان كما خبرتنا "ناعية الزمن" فتذكرت قول مدرّس العربية منذ ستة أعوام تجرّمت وترادفت ترادف الموج في محيط السنين والأيام إن من أقسام المفعول المطلق ما يكون بيانا لعدده نحو : «دقت الساعة دقتين» .

أجل ، كرر الأستاذ مرارا هذا المثل فما كنت لأهتم له ولم دقت الساعة في ذلك الأمس الدابر فكان وقع دقاتها في أذني كتغريدة الطائر ورنات العيدان حين كنت أرتع في خمائل الشيباب النضر وما الشباب عندي إلا زمن الجهل والغفلة يوم لم ندخل بعد ميدان الكفاح ولم ندق صاب الحياة وعلقمها .

والذى لا تمثل الدهر يومئذ وهو كالصبي الغشوم يتعلم الرماية
وأنا كالدايرة التى مركزها الغرض ، وما الغرض إلا القلب ، وسهامه
دقات الساعة يرسلها فتطيش وتحاورنة القوس وهى تطلقها .

أما وقد تبدلت الأيام وجرت جوار بالنحس بعد السعد وشبنا
من هول الزمان وصار فتانا كهلا من طوارق الحدثان وجاء زمن
اليقظة فليخفق القلب فان كل ساعة تمر ترسل اليه سهمين من جعبة
الآلام لا يشذ عن الرمية حتى اذا تبينت الخيط الأبيض من الخيط
الأسود ودرج الليل فى أكفان الصباح أحسست بأن فى فؤادى
اثنى عشر سهما فوهبت الى نسمات الصبح زفرائى والى نداء
عبرائى .

لو لم يكن فى دقات الساعة إلا ذكرى بما مر من نهار الحياة
وتهديد بما سنلقاه لقلت حسبي بذلك الماء ، وما أنس لا أنس قول
بعض الغافلين : « علام تبكى الماضى وتحنّ اليه بعد ما نفضت
يديك من ترابه ، ورجع المشيع ، وفى الآتى كفاية » .

أجل ، رجعنا فراغ الأيدى ملاء القلوب ، ولو علموا أن
المستقبل إن هو إلا جزء من الماضى ، وأنا اذا بكينا الماضى فانما
نبكى على المستقبل ، وان الغد أخو اليوم ، والساعة أخت الساعة

والدهر أبو الجميع ، وقد تحالفت جميعا على الغدر لقالوا معنا إنا لله
وإنا إليه راجعون .

تروعنى دقات الساعة وأشعر منها بوحشة وانقباض وينحيل
إلى أنها صدى أقدام عدو شديد البأس صعب المراس خلقه الله
شفافا كالهواء ، كما خلق بعض الحيوان بلون الصخر والرمال ، إلا أن
الأمر على الضد فالأول يتخفى ليصيد والثاني أجل أن لا يصاد
وما نشعر إلا وقد أصمى سهمه في الساعة الأخيرة فأجهز على البقية
الباقية : ذلك هو الموت ، فانا لله وإنا إليه راجعون .

الأهرام في ٩ أكتوبر سنة ١٩١٣

موليير

غدا ١٤ يناير يحتفل رسميا في السربون وفي فرنسا من أقصاها
الى أقصاها بذكرى مولير الذى ولد فى ١٥ يناير سنة ١٦٣٢

وستمثل فى مسرح "الاوديون" بباريس حتى آخر هذا الشهر
كل ليلة رواية لمولير، أما باقى المراسم فى باريس والمقاطعات
فستمثل على الأقل فصلا كل مساء .

وفى شهر أبريل تقام حفلات الذكرى فى أنحاء أمريكا كلها
فوجب علينا ، نحن المصريين ، أن نحى ذكراه لأنه ليس نابغة
الفرنسيين فحسب ، بل أحد النوابغ الذين يفخر بهم العالم بجميعهم
ماء تحدر من غمام واحد ان افترق نسبهم ألف بينهم أدب أقاموه
مقام الوالد .

وما أصدق كلمة الفيلسوف تين فى كتابه الفذ عن "لافونتين
وقصصه" إذ قال : «إن مولير ولافونتين هما غير مدافع العبقرىان
اللذان يمثلان أحسن تمثيل الفكرية اللاتينية والروح الفرنسية
الأصلية» . ومعنى ذلك أنك تجد فى قصص لافونتين — التى ترجمها
عثمان جلال وسماها العيون اليواقظ — وفى روايات مولير — وقد

ترجم منها الى العربية الشيخ متلوف ومدرسة النساء ومدرسة الأزواج
والزواج القهـرى — أكبر علامات النبوغ اللاتينى وهى الوضوح
وحسن الترتيب وأكبر مميزات الروح الفرنسية (Esprit gaulois) ،
وهى تشبه الروح المصرية المولعة بالمزاح ، المستهترة فى الظاهر بكل
شئ ، الهازلة فى مواطن الجد وربما كان هزلها جدا ، تلك الروح
التي اذا حملتها من الحوادث أثقلها ابتسمت ففرجت عن همها وكان
ذلك منها عنوان الجلد والثبات ، الضاحكة أمام الموت .

وهل أدل على نبوغ أمة من هذه النكات التي تفيض بها
المجالس وتقع من نفوس الحضور مواقع الماء من ذى الغلة
الصادى فطالما حوت الحكمة العالية التي يغوص عليها الكاتب
والشاعر أو الوصف الجامع البليغ لحادث من الحوادث أو لرجل
من الرجال أو لحالة من الأحوال أو لأمة من الأمم .

تلك المعانى الجلية التي تتخاطب الروح قبل الأذن هى ثمرة
الذكاء الفطرى والتجارب والمشاهدة ، وهذه الصفات الثلاث
اجتمعت فى موليير فأحسن تعهدها واستثمارها فعم خيرها وحصادها
فاذا أردنا أن نتفهم قليلا سر ذلك النبوغ العظيم وجب علينا أن
نستعرض عصر موليير وحياته وأعماله .

عصر مولير :

عاش مولير في باريس (١٦٥٨ - ١٦٧٣) فقضى فيها
 أعوام المجد الوارفة ظلاله وذاق مر العيش وحلوه في وقت كان فيه
 لويس الرابع عشر يرتع في بجوحة الشباب وشباب الملك فلقد كان
 العصر الأول (١٦٦٨ - ١٦٧٥) من حكمه هادئا مطمئنا لم تذكر
 صفاءه ويلات الحروب وفادح الدين وما أشبهه بأوائل حكم
 اسماعيل .

كان الملك وأتباعه من حاشية وأعيان لاهين بين الناي والعود
 وكان الشعب على دين أمرائه يلهو بما يسوقون اليه من أعياد
 وأفراح ، وكان مولير مقربا من الملك فترج مع الغواة بدلوهم وكان
 خير من لها ومتع بالحياة ، ولكن عصارة لهوه كانت ألما ، فانه وهو
 اللبيب الثاقب البصر قلب طرفه في ذلك المجتمع فاخترق نظره تلك
 المحجب الكثيفة ، المدهونة بالطلاء ، الملونة بالرياء ، فاذا الحية كامنة
 في الرياض ، واذا عامر النفوس كان خرابا ، واذا المجتمع كالبعي قد
 انطوت نفسها على الحقد والبغضاء ولكنها تقبل عليك في أحسن
 حلة تضحك وتغنى .

وقد صور مولير ذلك المجتمع أحسن تصوير في قالب هنزلي
 يشف عن ألم دفين ، ومما ضاعف الألم أن مولير لم ينكب بحياة

المجموع الذى كان حوله ، فحسب بل فى حياته الفردية ، فى داره ومعاشه إذ خانت زوجته ومات له طفلان فضرب الأسى على جميع أوتار فؤاده لاسميا فى آخر العمر وقد مال ميزان النهار واشتبه الأمر .

حياة مولير :

ولد جان باتست بوكلان فى باريس فى ١٥ يناير سنة ١٦٢٢ وكان أبوه جان بوكلان تاجر أبسطة وخادما فى غرفة الملك ، وقد تعلم فى صغره مبادئ الفلسفة والحقوق ، ولكن علمه الصحيح كان ثمرة التجارب والمشاهدة ، وكان فى شبابه شديد الميل الى التمثيل فتعلق به ، ويقال أنه صحب لويس الثالث عشر فى سياحته فى جنوب فرنسا سنة ١٦٤٢ وتعرف فى طريقه بالمشكلة "مادلين بيجار" التى عشقها زمانا ثم تزوج ابنتها .

ولم تكن مادلين محودة السيرة ولكن مولير افقتن بها وتبعها أينما حلت وأسس معها فى باريس سنة ١٦٤٣ "المرسخ الشهير" ولكنه لم يوفق فى عمله فذهب الى مقاطعة "الجويان" حيث انتظم هو ومن معه فى سلك جوق التمثيل الذى كونه الدوق "ديپرنون" ثم ذهب فى سنة ١٦٥٣ الى مدينة ليون وأخذ يتنقل بعدئذ بين المقاطعات الفرنسية ومدنها الكبرى كليون ومونبلى وافينيون ودييجون وجرينوبل للتمثيل الهزلى تارة أمام الأمير

والأميرة دى كوتنى ، وأخرى أمام مجالس المديريات التى كانت
تجتمع من وقت لآخر، وكانت فى زمن انعقادها بحاجة الى اللهو
والسرور .

فى سنة ١٦٥٨ عاد مولير ومادلين بجار وجوقهما الى باريس
فشملهما أخو الملك بعنايته ومدّهما بماله وقوته ، فما كاد ينصرم عاما
حتى مثل مولير أمام الملك والجمهور الباريسى رواية " المتصنعات
السخيفات " (Les Precieuses Ridicules) وهى أول صورة
لمجتمع ذلك العصر رسمها مولير وشهر فيها بالنساء اللواتى كن
يتكلفن فى مشيتهن وخلقهن وحديثهن ، وكانت هذه الرواية أول
كوميديا حقيقية تمثل الحياة المرئية المحسوسة ، وفاتحة عصر روائى
جديد .

وفى سنة ١٦٦٤ تزوج مولير بابنة صاحبه مادلين واسمها
" ارماند بجار " وكانت فى العشرين من عمرها ، أما زوجها فقد
جاوز الأربعين .

وكان هذا الزواج مدعاة للقليل والقال ولا شك أن هذه
الغلطة قد نغصت على مولير حياته فكانت فى الخارج مطعنا ظفر
به أعداؤه وهم كثر وفى الداخل مبعثا للأسى والألم لا تنضب له
عين . ولقد خانت زوجه وبقيت فى عزلة عنه أربعة أعوام كاملة

فأتى على مولير حين من الدهر كان يتجلد ويسعى جهده في نسيان
آلامه وأحزانه مرخيا لنفسه العنان طورا في ميدان العمل ، وطورا
في ميدان اللهو والتصايب كما يفعل رجال المراسخ ولكنه في آخر
عمره وقع صريع الحزن والمرض .

روى جريمارست في كتابه " حياة مولير " أن مولير أفضى
لصديق له سنة قبل موته (١٦٧٢) بما يأتي :

« لقد تزوجت بدون تبصر فاستحق كل ما أصابني ، إن امرأتى
خفيفة مجرى الروح ، لعوب ، مولعة بإظهار رشاقتها وكل ذلك
يولد في نفسى القلق واليقظة المتناهية على الرغم منى ، تلك المرأة التى
هى أرحم منى عقلا مائة مرة تريد أن تمتع بالحياة ، وهى تسلك
سبيلها معتمدة على طهارة نفسها لاتعبأ بإرادتى واحتياطاتى فما أشد
لوعتى وأحزانى ، ولطالما سعت جهدها كالنساء كافة فى اجتذاب
ثناء الناس وإعجابهم ، وليس لها غرض خاص ، فكانت تضحك
من ضعفى » .

وفى ١٧ فبراير سنة ١٦٧٣ — أى ثلاثة أيام قبل موته —
كان مولير يشكو ويتوجع أمام امرأته : « طالما كانت حياتى
ممزوجة على السواء بالألم والسرور كنت أخالنى سعيدا ولكن اليوم
وقد أعيانى الداء ، ولم أجد ساعة حلوة فيها عزاء وسلوى ، أرانى

مضطرا الى ترك باب الرجاء وليس في مقدورى الآن احتمال
صدمة الآلام المتتابعة التى لا تفتأ تهجم على ، ولكم تألم الانسان
قبل أن يفارق الحياة ، وهأنذا أشعر بأنى أخطو آخر خطوة بينى
وبين الموت .

ورغما من مرضه فان مولير فى ذلك اليوم طلب أن تمثل
للمرة الرابعة رواية "المريض الخيالى" فأرادت زوجته أن تمنعه
فأجابها : « ماذا تريدن ؟ أن هناك خمسين عاملا فقراء يتكسبون
قوت يومهم فما يصنعون حال امتناعنا ، وهل تريدن أن أحرمهم
من القوت يوما واحدا ؟ » .

وسواء أكان الدافع الحقيقى الى ذلك الرحمة المتدفقة من فؤاده
أم حب العمل كما يقول اميل فاجيه « فان مولير كان غنيا وكان
فى امكانه دفع أجر اليوم للخمسين عاملا بدون تحمل المشقة والعناء »
فمن الثابت أن مولير كان محبا للعمل وكان كبير النفس رحيا .

ولقد تغلب الداء عليه أثناء التمثيل فحملوه الى منزله فأخذ يقيء
دما الى أن صعدت أنفاسه الأخيرة فى ٢١ فبراير سنة ١٦٧٣

تلك حياة مولير المترعة بالألم والعمل فلقد ألف فى ثلاثة عشر
عاما ما يزيد عن خمس وعشرين رواية أكثرها من الخالطات

والإنسان ، كما يقول الفريد دى موسيه ، تلميذ أستاذه الألم ،
وكذلك الشعوب لا يهذبها ولا ينضج مواهبها إلا الألم .

فاذا كنا اليوم نحى ذكرى مولير فاننا نعطي بتلك الذكرى
للشعب المصرى المشل الأعلى للعمل الباقي الذى تنتجه التجارب
والآلام ، والانتباه الى حقائق الحياة دقيقة وجليلة ، وبالحد على
الشدائد ، والصبر على المكاره .

وما أحوجنا اليوم الى إحياء ذكرى ذلك الرجل العظيم الذى
عاش فعمل ولم يئأس ، ومات فأخذنا من موته معنى الحياة .

الأهرام فى ١٤ يناير سنة ١٩٢٢

مصر حيرى

من المؤلم جدًا أن يدقق الانسان النظر فى حالة مصر اليوم
فهمما حملنا أنفسنا على حسن التفاؤل بالمستقبل ، ومهما حاولنا الوصول
الى استنباط حسن العاقبة مما يحيط بنا من الحوادث ، فالحقائق
التي تصدمنا اليوم ، والتي صدمتنا أمس وأول أمس ، ربما تضعف
فيها روح الأمل ، ولقد أصبح الكثيرون منا على مذهب بعض
الفلاسفة المحدثين الذين لا يرجون كثيرا من الحياة الدنيا ، ولكنهم
أقوياء النفوس والعزائم لا يثنىهم ضعف رجائهم عن العمل .

أجل ، ليكن شعارنا العمل فى ظلمة الأمل ، فالعمل خير مؤنس
فى تلك الوحشة ، وأخلق بمن وطنوا النفس على احتمال أذى الدنيا
فى سبيل أصعب الغايات من أن يعملوا فصعب العلا فى الصعب .

ولقد كان أحد قيصرة الدولة الرومانية ، ولعله سبتيم سيفير ،
يقول « لنعمل » (laboremus) ، وكان لقوله مغزى كبير فى ذلك
الوقت الذى رأى فيه بعينه تلك الدولة العظمى وقد ظهرت فيها
عوامل الفساد ، ودبت فيها روح الانقسام ، ورأى بعينه فى وجهها

تسرب المشيب خلال بقايا الشباب ، فما كان أشدّ لوعته ولكن
ما كان أكبر شجاعته وهو يقول : « لنعمل » .

أجل ، لنعمل مهما داخل الشك نفوسنا ، ولنعمل للعمل
فى ذاته ، للعمل الصامت الذى يستمدّ وحيه من الواجب ، للعمل
المتج الذى لا ينتظر جزاء ولا شكورا ، للعمل الصحيح الذى
ينتسب الى الوطنية الصحيحة .

وإن من يرجع البصر كرة فى حالتنا فى الداخل والخارج لا يسعه
إلا أن يأسى على مافات ، ويتوجس خيفة من الغد ، وما مثل مصر
اليوم إلا مثل السفينة ألحت عليها الأنواء والرياح من كل جانب
فهى مضطربة حائرة ، والمصريون فى أثناء ذلك ، بدلا من أن يفكروا
فى نجاتهم ويعملوا على خلاصهم فى ذلك المضطرب الواسع ، تتجاذبهم
الشهوات الحزبية وتلعب بهم لعب النكباء بالعود حتى ضاقت
عليهم الدنيا بما رحبت ، وأصبح أفقهم أضيق من سم الخياط لأنه
أفق رسمته لهم السياسة الشخصية التى تسدّ على الناس سبل الحق
الفسيحة ، وتضلّهم من حيث لا يشعرون .

وكل منهم يريد أن يكون ربانا ، وكل منهم اذا رفع اللواء رأيته
تحت اللواء زعيما ، وكان لابد أن يسود النظام وسط هذه الفوضى ،
النظام كما نفهمه نحن — لا كما يفهمه الخصم — النظام الذى يجمع

الكلمة ويوحد الغاية والذي لا تقوم له قائمة إلا اذا كان هناك تيار من رأى العام قوى منظم لا ينشعب عند كل ملمة، ولا يحدث فيه فلولا كل مضلل خداع .

وليتق الله حملة الأقلام في مصر فان على أكتافهم تقع المسؤولية الكبرى ، وليحاسبوا ذمتهم على كل سطر وكل كلمة يخطونها لأن مصر تتجاز ساعة عصيبة في تاريخها ، قرب كلمة تهوّر أو كلمة استسلام أدخلت السم في عقلية فريق من الأمة فألحقت بها ضررا بليغا .

فمن الاستسلام المنكر أو ما يشبهه قول بعضهم أن ليس عندنا جيش ولا أساطيل نرغم بها الخصم على ردّ ما اغتصبه من حقوقنا ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم فاننا نعلم ذلك علم اليقين ، والخصم أيضا يعلم ذلك ، ولكنه لا يمكنه أن يتجاهل أبد الآبدين إرادة أمة ، وقد مضى الزمن الذى يعيش فيه المحتل قرير العين منعم بالال وسط شعب يريد أن يعيش حرا .

ومن الاستسلام المنكر أن نسكت على الضيم بحجة أنه مؤقت وأن نتجاوز عن كل ما تفعله المحاكم العسكرية وقد وضعت الحرب أوزارها من ثلاثة أعوام خلت وهى باقية تدور رحاها ، أو أن نسكت على كل قانون يعجل بصدوره بحجة أن الدستور لا ريب فيه ، وأنه كفىل بنقض ما أبرم اذا اقتضى الأمر ، وما دروا

أن ذلك مضادّ للفكرة المعقولة القائلة بتمهيد الطريق للدستور ،
 ذلك الطريق الذى ملئ الآن حصا وشوكا ، وما دروا أنهم بذلك
 ينزلون على درج من التراخى الى وهدة الاستسلام المطلق الذى
 يهدد الروح الوطنية بالاضمحلال شيئا فشيئا فما نشعر إلا وقد
 تلاشت نواة المعارضة الصحيحة فى النفوس الأبية المعتدلة من
 الجانبين .

ومن التهور المنكر أن يقوم فريق من الكتائب الخياليين الذين
 رجعوا بأنفسهم فى صفوف المعارضة ويتمهوا بلجنة الدستور بأنها
 "لجنة رجعية" وأنها تسير على النهج الذى رسمته طاب السياسة
 الانجليزية ، ولو أنصفوا أنفسهم وأمتهم لكافوا أنفسهم مؤونة
 البحث والاحتكاك قليلا بأعضاء اللجنة — وهذا أقول واجبات
 الصحفى المرشد الأمين — وعرفوا اذا كان "كليشيه" التسمية
 التى أطلقوها عليهم حقا أو باطلا .

إننا لاننكر أن فى لجنة الدستور أعضاء رجعيين يؤثرون عاجل
 اللذات على آجلها ، ويعرضون لخطر الجسيم مصالحنا القومية الخالدة
 فى سبيل مصالحهم الشخصية الضئيلة الزائلة ، ولكنهم قليلون
 يعدّون على الأصابع والأمة رقية على ما يعملون .

ومما يؤسف له أن فى صفوف المعارضة أناسا يتظاهرون

بالوطنية وهم ليسوا على الدستور أقل خطرا من هؤلاء الرجعيين ،
أولئك نفر تارة يعملون على الايقاع بين لجنة الدستور وبين الأمة
بانتقادهم أشياء عرضية في النصوص لا جوهرية ، انتقادا أقرب
الى التضليل بالرأى العام منه الى الحقيقة ، وتارة يريدون الايقاع
بين اللجنة وجلالة الملك بحجة أن الدستور في بعض المواطن يفتات
على حقوقه كأن سيادة الأمة التي على رأسها الملك لتعارض مع حقوق
جلالته ، أو كأن جلالته تجهل أنه كلما عظمت سيادة الأمة التي
يمثلها وتحققت عظمت هي في أعين شعبها وفي أعين الأجانب .

دعونا يا قوم من الشخصيات واتقوا الله في بلدكم فان الوطنية
الحقة تقضى علينا أن نجعل الدستور يمر سليا وسط العاصفة التي
أثارها أهواؤنا الحزبية ، فان في جميع البلاد الغربية تشتجر الأحزاب
وتتنازع على الوسائل وتتطاحن ، ولكنها وسط الجلبة والضوضاء
والصراحة المطلقة قد تكتم أمورا دقيقة ترى في إذاعتها أو في وضعها
هدفا للجدل والمناقشة إضرار بالصالح العام .

وخطة الرأى العام هذه في هاتيك البلاد هي خير دليل على
وجود روح النظام في الرأى العام ، فما أحوجنا الى هذه الروح
وما أحوج هذا البلد الى المرشدين الأمناء .

الذكريات

للحياة غاية لا بد أن تنتهي إليها ، فما أقصرها وإن شئت فقل
إنها وجود في حكم العدم ، على أننا إذا نظرنا إلى مسافة العمر التي
قطعناها ، بمنظار "الذاكرة الحساسة" التي هي القلب ، راعنا طولها
وقلنا ما أطول الحياة !

وكأنني بها تزداد طولاً على مر المدى ، ذلك بأن الأيام والليالي
عند مرورها يخيل إلينا أنها على وتيرة واحدة ، حتى إذا ولت
وتقادت قليلاً ظهر كل يوم منها ، في مرآة الذاكرة ، في صورة
مختلفة عن صورة اليوم الآخر ، وأوجد هذا الاختلاف مسافة بين
اليوم وأخيه فتعددت المسافات ، وأصبحت الساعة يوماً ، واليوم
شهراً ، والشهر عاماً .

ذلك بأن لكل إنسان في الواقع ، في اليوم الواحد ، حالة بل
حالات نفسية خاصة تتأثر بمظاهر الحياة الخارجية التي تتبدل
تبدل أوقات النهار دون أن نحس بها ، ثم تتكوّن من مجموع هذه
الحالات صورة شخصية يومية للإنسان تختلف عن صورة الغد ،
ولهذا السبب نظن أننا اليوم غيرنا بالأمس ، وأننا في هذا العام غيرنا

فى العام الماضى ، وأنا أصبحنا غرباء عن أشخاصنا السابقين رغما
من قرب العهد .

وقد يزداد هذا الاختلاف والتباين اذا حدثت حوادث كبرى
كالخروب والثورات لأنها توجد انقلابا فى مظاهر الحياة الخارجية
يؤثر فى النفس ، ولذلك ترى الأوروبي الذى عاش الحرب وعانها
يخيل اليه أنه قد مضى على سنة ١٩١٣ ، سنة السلم ، قرن
كامل ، وترى المصرى بعد الثورة غيره قبلها ، وكأن هناك شخصين
مختلفين .

ومما يساعد على إطالة مسافة الماضى شدة حساسية الذاكرة
اذا كانت متصلة بالقلب ، وكثرة الذكريات المؤلمات ، وليت
شعرى من منا لا يذكر فى مختلف الجهات التى قضى فيها طفولته
أوصباه وشبابه الأما كن التى ولع بها صغيرا فلا يحسن اليها !

كم من رفيق صحبناه ساعة أو بعض ساعة صحبة المسافر ، ثم
ودعناه على أمل التلاقى ولما نلتق ، ونحن فى هذه الدنيا بين مشرق
ومغرب .

أتى مضى أولئك الصاحب الذين التقينا بهم فى طريق الحياة ، كما
يلتقى الراكب بالراكب ، ورأينا وجوههم السمحاء ، ثم افترقت أسباب

دنياهم من أسباب دنيانا فأصبحوا لنا أمواتا وهم على قيد الحياة،
أولئك نحزن لهم لأننا فقدناهم .

وإني لأذكر صديقا كان زميل دراستي في باريس ، وكان
خير مؤنس لي في وحشتها فان باريس للناسظر المدقق ، كما وصفها
روسو ، "صحراء من الرجال" ، وكان على ذكاء عظيم ، شديد
الفطنة ، قوى الملاحظة ، كثير المطالعة والتأمل في وجوه الرجال ،
لا تفارق شفتيه ابتسامة ، ولا يعرف الحزن الى قلبه سبيلا .

دار الفلك دورته وأصيب هذا الصديق بداء عضال في عقله
فعاد الى قريته في مصر ثم مات ولم نمتع به كثيرا .

فما انضر ذلك العيش الذي هوى في قرارة الزمن وأقسم أن
لا يؤوب !

وما أكثر الذكريات المؤلمات !

وما أكثر الأصدقاء الذين نفجع بفقدهم أحياء وأمواتا .

إسماعيل صبرى

بالامس دفنالك يا إسماعيل وودعنا صافى العيش فيما وودعنا،
ولكننى ما زلت الى الساعة يعرونى الدهول لفقدك ، ولا أكاد أصدق
ما رأيته عيني لما أودعوك الرمس وسؤوا عليك !

ولقد صدق لاروشفوكو "شيئان لا يمكن للانسان أن يصدق
فيهما ببصره : الشمس والموت" ولكننى أعجب لموتك ، ولو لم تمت
بعلة لسألت بأى علة ، وأعلم علم اليقين أن الموت قد حصده
الملايين من بنى الانسان ، وجندهم ، وبذل الديار ديناراً ، ولكننى
لا أكاد أصدق أنك كنت أمس ، حين أسلموك الى القبر، تحت
الأرض وكنت عليها ، وأن شبرا واحداً من التراب حال بيننا وبينك ،
فما أبعد شقتك ، وما أشد وحشتنا !

وما أنس لا أنس تلك الشجرات التى صادفناها فى طريق
جنازتك ، وكانت تنثر علينا ظلالاً ليتها كانت تقينا لفحات الحياة
ولذعات الجوى ، وما أنس لا أنس ذلك الرجل الذى أقبل نحوى
ونحن وقوف على حافة القبر، وفى يده كسرة من فص خاتم اسماعيل

وهو يقول "تلك ذكرى"، ولكن من ذا الذى يحصى الذكريات
التي تركتها فى قلوب الباكين والباقيات عليك ! لقد كان فى كل
حركة منك وكل سكنة ألف ذكرى بل ألف حياة ، ففى ذمة الله
يا اسماعيل .

أعرف صبرى من ثلاثة عشر عاما ، وكنت أغشى مجلسه كثيرا
وأتردد عليه ، وكانت بيننا صلة الابن بالأب البار والتلميذ بأستاذه ،
وكان يفيض علينا أدبا وفضلا ومكارم أخلاق ، وكان حلو السمر
عذب الحديث .

ما كنت أدري أطعم عافيتى أعذب أم طعم ذلك السمر
ولعل السر فى ذلك هو أن صبرى كان فى حياته ، كما كان
فى شعره فنا ، وكما مرة استرعى نظره فى الطريق منظر رائع من
تلك المناظر الدقيقة التى لا يلتفت إليها أحد فوقف واستوقف يتمتع
منها ناظريه ، حتى أن المرء ليتساءل أيهما كان أشعر الرجل فى حياته
أم الشاعر فى شعره ؟

كان صبرى باشا يحب النور والجمال ، وكان يحب من أجلهما
الحياة ويقف منها موقف المتعبد ، وكان كثيرا ما يذكر الموت
وينحشاه ، لاجبنا ولا فرقا ، بل حبا فى الحياة والنور والجمال ، ولقد
بلغ من كراهيته للموت أن أصبح يتمناه فقال :

يا موت خذ ما أبقت الـ أيام والساعات منى
ببنى وبينك خطوة إن تخطها فرجت عنى

وقد نغص عليه داء القلب آخر سنى حياته وكان يتعسر عليه
الفهم وهو يقرأ كتابا أو صحيفة سيارة ، ويتعب من القراءة إذا أطال ،
ورغما من ذلك فقد كنت أرى له أحيانا وهو يتحدثنا عن الحركة
الوطنية ورجالها حكما كالبرق الخاطف من ذكائه يلوح ثم ينطفئ .

أما شعر صبرى فهو كحياته سمر المسافر ، وأنس المقيم ، وكما
كان فى حياته يمل سماع الموسيقى طويلا كان فى شعره يكره
القصائد الطوال ، وينظم المقاطيع الرائعة ، والبيت والبيتين ، وهو
فنان يفضل نحت الدمية الجميلة على تشييد هرم جليل .

من منا لا يذكر قوله مخاطبا القلب :

سلا الفؤاد الذى شاطرته زمنا حمل الصباية فاخفق وحدك الآن

وقوله فى ساعة الوداع :

ساعة البين قطعة أنت قدت للحبين من عذاب السعير

وقوله فى لقاء الحبيب :

ولما التقينا قرب الشوق جهده شجين فاضا لوعة وعتابا

كأن صديقا فى خلال صديقه تسرب أثناء العناق وغابا

وقوله فى شجرة :

عار عليك وهذا الظل منتشر فتك الهجير بجسمى فى نواحيك
فمن معيرى جناحى طائر غرد كى أقطع العمر شدوا فى أعاليك

وقوله :

يا آسى الحى هل قتشت فى كبدى
وهل تيننت داء فى زواياها
أواه من حرق أودت بمعظمها
ولم تزل تمشى فى بقاياها
ياشوق رفقا بأضلاع عصفت بها
فالقلب ينحفق ذعرا فى جناياها
وقوله :

إذا ما صديق عفى بعداوة وفوقت يوما فى مقاتله سهمى
تعرض طيف الود بينى وبينه فكسر سهمى فأنثيت ولم أرم
تلك أبيات سارت مسير الشمس فى كل بلدة وناد ، وقد
وضع صبرى باشا أغانى كثيرة هى أرقى ما نظم من نوعها ، وهو
فى مجموعته شاعر نسيج وحده انفرد بين الشعراء القدماء والمحدثين
بطراز من الشعر المسمى (Lyrique) وهو شعر يطير بجناحين

في فضاء الطبيعة والخيال ، ويسمو بالعاطفة والوجدان الى أبعد غاية ، وكانوا يتغنون به قديما .

سألته مرة أيهما يفضل الشعر العربي أم الشعر الافرنجى ؟ فقال قد يكون الشعر الافرنجى أغنى من الشعر العربي ولكن العربي فاق الافرنجى بالبيت والبيتين .

وكان يفضل البحترى على جميع الشعراء وهذا يدل على حسنة الفنية فان أسلوب البحترى أنقى الأساليب وأكثرها دقة وطلاوة . هذه كلمة صغيرة نقولها اليوم عن الفقيد الراحل الذى كان شعره وحياته مؤلفين ائتلاف الزهر والخضرة فى الروض النضير .
رحمة الله عليك يا اسماعيل ، وألهم الله مصر العزاء على أبر بنينا .

خاطر في العيد

يوم شم النسيم

أحب من الركب المصري أن يتقف هنيهة ليستنشق فيها نسيم
الحياة وطيب روائحها ، وأحب من الطبيعة أن تهش وتبسم في وجوه
أطفالها الباكين الذين لا يرقأ لهم دمع بين تحرير مائها وحفيف
شجرها ، بين نحرها وصدرها .

وأحب من قومي في هذا اليوم أن ينسوا ما أصاب الوطن
من جروح وأن يخرجوا من منازلهم صفارا وكبارا الى المروج الخضراء
التي يختال بينها النيل في حلة من سندس ، وأن يعود الآباء أبناءهم
”فتح الأعين“ والنظر الى مظاهر الجمال دقيقة وجليلها ، في تلك
الأرض المصرية التي قيل أنها جنة الله في أرضه ، ولكن قل من
يعنى بتأمل غضايرتها ونضرتها وإدراك سر هذا الجمال .

وقد نشأ عن ذلك الملل من الطبيعة في مصر لأن حبها ظل
مبهما في فؤاد الرجل منذ نعومة أظفاره فأصبح ينظر اليها كما ينظر
الفلاح الى حقله صباح مساء ، اذا سأله عن ذلك قال : إن

الطبيعة سهل أخضر يجرى فيه النيل وانها على وتيرة واحدة، ولو أنه
عقد نفسه النظر اليها لوقف منها موقف الذى يقول :

يزيدك وجهه حسنا اذا ما زدته نظرا

أو الذى يقول :

لأسرحن نواظرى فى ذلك الوجه النضير

ولآكلنك بالمنى ولأشربنك بالضمير

أجل ، إن الانسان يجب أبدا الأرض التى درج فى ثراها
ويحن اليها اذا فارقتها ، ولكن حبه يقوى بمقدار تفهمه جمال مسارح
الطفولة والشباب ومنازل الذكري التى تنطبع فى فؤاده فتساعد على
تذكر الماضى وغرس عاطفة الوطنية وتعهدا .

ولا ريب أن هذه الذكريات اذا تحركت عند شعب بأسره
أخرجت من الأرض صورة الوطن الحى فانتفض الجميع تحت
لوائه خفافا .

وما أحوجنا اليوم الى الوقوف ساعة فى ظل الطبيعة ، علما نجد
فى جمالها معينا لنا على البأساء ، فقد مضى زمن اللهو وجدد جدنا
وأصبحنا نطلب الراحة قليلا فى ذلك الطريق الوعر لنتروى منها
قوة نصبل بها الى الراحة الكبرى ، ولكن أنى هذه الراحة ، وأنى
الشعوب السعداء ؟ .

مثل الشعب المستعبد الذي يستسلم للهوان مثل الجاهل الذي
ينعم في الشقاوة فاذا استيقظ وفهم معنى الحياة كتب الشقاء عليه
وكان نعيمه حلما في الكرى أو خلسة المختلس .

فأولى بمن اشتد ساعده ، ودخل ميدان الكفاح ، أن يوطن
النفس على احتمال الأذى ، وأن يستعين بحب الجمال على مقارعة
كتائب الحوادث أبد الدهر .

وإذا كنا اليوم نحى ذلك العيد فانما نحى الراحة بين الجهد والعمل ،
نحى الورد والرياحين ، نحى مهد النور والجمال ، نحى أرضك يا مصر .

السياسة في ١٠ أبريل سنة ١٩٢٣

خطرات في الطريق

١

الآلام

كان بعض القداماء ينهون عن ركوب البحر الذي لا يسلم راكبه من الأخطار ولكننا في عصر أصبح يحلوفيه تجشيم الأسفار وصار الخطر كل الخطر في القعود عن ركوب الشدائد .

كان لي الشرف في طريق الى باريس باصططحاب عامين من أعلام النهضة المصرية في أجلى مظاهرها أولهما أمير الشعراء أحمد شوقي بك والثاني الزعيم المحنك محمد بك حافظ رمضان رئيس الحزب الوطني فتجاذبنا أطراف الحديث .

وبينما كان الثاني يفكر في خير الوسائل التي تحل المسألة المصرية حلا عاجلا يتناقص في الجلاء ومداواة الجروح التي تسيل في جسم الوطن ، كان الأول يصنف الألم ويقول " كبر الألم بطولة " ويقول " من لم يتألم لم يتعلم " ويقول " الألم صاحب قديم وثالث اثنين

هبطا الأديم “ ويقول ” الآلام جراح شتى الأغوار ، كنه يدرك بالصبر وكنه يترك للقبر “ .

ثم جرى ذكر الألم فذكرت قول رينان وهو على فراش الموت وقد زاره القسيس ” لا برين “ وسأله : ” ألا تعتقد في إمكان وجود قانون حب ووفاء في هذا العالم بجانب قانون الضرورة ؟ “ فأجاب رينان من فوره : ” إنى أتمثل الطبيعة غادة حسناء متجملة بأحسن الثياب وأنفرها ، ولكنها تمشي معرضة ، بينما يسحق ذيل ثوبها النمل التي لا تبصرها ، وما أنا إلا إحدى هذه الذل وسأستحق “ .

تلك الكلمات المحزنة التي تشف عن ألم دفين قالها رجل كد وجاد وترك بعده آثارا خالدة وكان من المتشائمين الأقوياء . وقد تجلى هذا الشعور في صورة مذهب عند بعض الشعراء الفرنسيين وعلى رأسهم ” ألفريد دي فيني “ الذي قال : ” أحب جلالة الآلام الانسانية “ فإن هذا الشاعر أجاد تصوير ذلك الشعور الذي يجمع بين القوة والألم في ست أو سبع قصائد جعلته على قلتها من الشعراء المبدوعين .

ولهذا الشاعر قصيدة في الذئب من خير ما قاله : في هذه القصيدة تكلم فيني عن رجل ذهب للصيد فصادفه الذئب وشمله فقتل الشمل ، عندئذ وقف الذئب جريحا لا يتكلم وهو يودع الحياة فقال

الشاعر عن لسانه يخاطب الانسان : "أسلك بعزيمة صادقة وجلد ذلك الطريق الطويل الوعر الذى دعاك فيه القدر ، ودع البكاء والعويل ، ثم تألم كما تألمت ومت صامتا " .

وهذه القطعة درس من دروس الشجاعة المقرونة بالألم يليق به الحيوان على الانسان ، وهى من خير ما يحفظه الشبان الفرنسيون لأنها تبعث الهممة وتشد العزيمة وتحصن الخلق فتمنعه أن ينهار من صدمات الشك واليأس .

ولم يكن هذا الشاعر كالذين سبقوه ممن يجدون عزاء وسلاوى فى الطبيعة التى يخاطبها بقوله "انهم يسمونك أما وما أنت إلا قبر" فلم يخذعه زخرفها وكان كل عزائه فى قوته ، على أن كراهيته للجمع لم تكن لتحول دون حبه للانسانية التى تربطه بها أواصر من لحم ودم ، وكانت نفسه كنفس المعزى تفيض عليها رقة وحنانا ، وكأنهما قالا معا هذا البيت :

فلا هطلت على ولا بأرضي سحاب ليس تنتظم البلادا

ومن غريب المصادفات اننا ما كدنا نصل الى مرسيليا حتى لقينا حضرة على بك الشمسى فنعى الينا المرحوم سعيد بك زغلول فأسفنا على تلك الخلال الغر التى انطوت وتلك البشاشة التى ذوت

وبكينا فيه الوداعة واللين ، والأدب الجهم ، والعقل الراجح ، والخلق العالى الذى أبى له أن يعلن عن نفسه حياء وكبرا .

وان مصر لتشيع فيه أحد أبناءها البررة الذين كانوا زين الشباب ، وتألم لفقده ألم الشكى فقدت واحدها ، وكم بجمعت مصر فى بنيتها ، وكم بجمعت مصر فى آمالها وهى تمتد يدا لاجتناء الثمر فتسبقها اليه يد الموت الخفية .

ولكن عزاء بنى مصر عزاء ، فما أفلحت الشعوب والأفراد دون أن يكرن لها الألم مهذبا ومربيا فالألم صيقل النفوس يجلوها ويصفيها من كدرة الضعف والخور .

وهل تجلت الروح المصرية وظهرت قدرتها إلا فى الألم ، وهل ثبت وجود الروح القومية إلا فى الثورة ، فانه رغما من أن نماذجنا فى الثورات والحركات كانت كلها أجنبية لم نلجأ الى التقليد وظهرت حركتنا فى ألوان مصرية بحتة يعبر عنها أدباء الافرنج "بالألوان المحلية" ، وإلا فليقولوا لنا أى حركة فى التاريخ قامت فيها المظاهرات فى هذه الصورة المهيبة التى يخفق فوقها جلال الموت ، صورة جنازات ضحايا الحرية ؟ أى حركة ظهرت فيها المقاومة السلبية فى صورة افعل فى النفوس من المقاطعة التى قام بها

شعب بأسره ، ولم يتمكن النختم بخيله ورجله وحيلته من إحداث
ثأمة واحدة في تلك الكتلة العريضة المتماسكة ؟

ألم تكن النكتة ، التي هي من مشخصات الروح المصرية ،
علامة الخفة والنزق والسرور قبل الحرب والثورة ؟ وهي اليوم
تفرج كرب أخى البأساء وتبسم عن مرارة العيش ، وهي ستر يخادع
به المصرى عن نفسه المحزونة المضناة التي تعيش في جو الحقائق
السياسية بعد أن كانت هادئة مطمئنة .

ليفهم الجيل الحاضر أن شعاره الوحيد يجب أن يكون التضحية
فإننا جسر تسير عليه مصر بين الماضى والمستقبل .

نحن جيل معذب ، وما أشبهنا بالجيل الفرنسى الذى أعقب
الثورة وحروب نابليون فقد عرف ذلك الجيل ما أطلق عليه
الكتاب "مرض العصر" وهو نوع من الحزن والكآبة يظهر على
النفوس القلقة التي ورثت عن الماضى القريب كل ما يبعث الألم ،
وأجاد كتاب العصر تصوير ذلك الداء وتشخيصه .

فلنوطن النفس على احتمال الآلام ، فالآلام مدرسة الحياة ،
وهى ميدان كفاح لا يخرج منه بالغبلة إلا القوى .

٢

بلاغة العرب

قلت لأمير الشعر، والحديث شجون، أن خير ما قرأته في العزاء كتابا أرسله أحد أصدقاء شيشرون يعزيه في فقد ابنته : "خطرت لي فكرة وجدت فيها عزاء ولعلها تخفف من لوعتك . بينما كنت اتجه بسفينتي من جزيرة إيجه إلى مدينة ميغار حانت مني التفاتة إلى البلاد حولي ، كانت ميغار أمامي وإيجه ورائي ، والبيرية على يميني ، وقورنثة على شمالي ، مدائن كانت قديما زاهرة زاهية فعفت ولم يبق إلا رسمها وأنقاض مبعثرة فمعجت حيال هذا المنظر كيف نجرؤ ، نحن الهالكين الضعفاء ، على الشكوى كلما انتزع الموت واحدا من أهلنا وذوينا ، بينما نرى في طرفة عين كبريات المدائن صرعى هامدة ، وكانت عامرة أهلة بالسكان ثم أضحت خلاء ... فتعز عن فقد ابنتك بفقد هاتيك المدائن والناس " .

أعجب شوقي بهذا الخيال الرائع ولمكنه قال من فوره إن العرب قالت أبلغ من ذلك : سأل أعرابي أعرابيا فقد ابنه "أكان يغيب كثيرا" قال نعم ! قال : "أتركه غائبا" فهل

رأيت أيها القارئ تعبيراً أبلغ من ذلك في أداء المعنى مع السلاسة والوضوح والإيجاز .

يدرس الآن في جامعات أوروبا ما يسمى بالطريقة العلمية التاريخية ، وهي تتلخص في تحليل الوثائق والنصوص وسرد الوقائع مع الإيجاز والوضوح ، ولأجل تعرف هذه الطريقة والتمكن منها يدرّب الطلبة على إيجاز الرسائل وجلّائل الحوادث في صحائف معدودة وافية بالغرض ، وشيخ هذه الطريقة الأستاذ سنيوبوس المعلم الأول في السربون .

ولكن العرب لم يتعلّموا هذه الطريقة بل كانوا يجرون عليها بفطرتهم ، وهل الإيجاز إلا لباب الفصاحة والبيان ؟ وهل نسينا بلاغة القرآن وفصاحة العرب الذين بلغوا بالبديهة ما لم يبلغه غيرهم بالكد وإجهاد القريحة ؟

وصف عبد الله الجمار أبا نواس فقال : " كان أظرف الناس منطقاً وأغزرهم أدباً وأقدرهم على الكلام وأسرعهم جواباً وأكثرهم حياءً وكان أبيض اللون جميل الوجه ما يبح النعمة والاشارة ملتف الأعضاء بين الطويل والقصير مسنون الوجه قائم الأنف حسن العينين والمضحك حلو الصورة لطيف الكف والأطراف وكان فصيح اللسان جيد البيان عذب الألفاظ حلو الشئائل كثير النوادر

وأعلم الناس كيف تكلمت العرب راوية للأشعار علامة بالأخبار
 كأن كلامه شعر موزون .

فهل رأيت وصفا أدق من هذا المنشور الذي يصور لك شاعرنا
 من جميع الوجوه في كلام رائع؟ كان عمرو بن حجر ملك كندة،
 وهو جدّ امرئ القيس، أراد أن يتزوج ابنة عوف بن محم الشيباني
 فوجه إليها امرأة يقال لها عصام لتنظر إليها وتمتحن ما بلغه عنها
 فلما عادت أقبلت إلى الحارث فقال: أخبريني، قالت "رأيت جبهة
 كالمرآة الصقيلة يزيناها شعر حالك كأذ ناب الخيل المقصورة،
 إن أرسلته خلفه السلاسل، وإن مشطته قلت عناقيد كرم جلاها
 الوابل، ومع ذلك حاجبان كأنهما خطا بقلم، وسودا بهجم، قد تقوسا
 على مثل عين العبرة، التي لم يرعها قانص ولم يذعرها قسورة،
 بينهما أنف كحد السيف المصقول، لم يحنس به قصر ولم يعض به
 طول، حفت به وجنتان كالأرجوان، في بياض محض كالجمان،
 شق فيه فم كالخاتم لذيذ المبتسم، فيه ثنايا غر ذوات أشعر، وأسنان
 تعد كالدر، وريق كالخمر له نشر الروض بالسحر، يتقلب فيه لسان،
 ذو فصاحة وبيان، يزينه عقل وافر، وجواب حاضر، يلتقي بينهما
 شفتان حمراوان كالورد، يجلبان ريقا كالشهد، تحت ذلك عنق
 كابر يق الفضة، ركب في صدر تمثال دمية، يتصل به عضدان،

ممثلتان لحما ، مكتنزان شحما ، وذراعان ليس فيهما عظم يحس ، ولا عرق يحس ، ركبت فيهما كفان ، ريق قصبهما ، لين عصبهما ، تعتقد إن شئت بينهما الأنامل . وقد تربع في صدرها حقان ، كأنهما رمانتان ، من تحت ذلك بطن طوى كطى القباطى المدبجة ، كسى عكنا كالقراطيس المدرجة ، تحيط تلك العكن بسرة كدهن العاج المجلو ، خاف ذلك ظهر كالحمدول ينتهى الى خصر لولا رحمة الله لا ينزل ، تحته كف ينعدها اذا نهضت وينهضها اذا قعدت ، كأنه دعص رمل ابده سقوط الطل ، يحماه نخدان لفاوان كأنهما نضيد الجمان ، تحماهما ساقان خد لجتان كالبردى ، وشيتا بشعر أسود ، كأنه حاق الزرد ، ويمثل ذلك قدمان ، كحذو اللسان ، تبارك الله مع صغرهما كيف تطيقان حمل ما فوقهما .

حسب هذه القطعة أنها دليل على حب الجمال والفن عند العرب ، وهى لا تقل فى دقتها وروعتها عن تمثال أبده صانعه أو لوحة مصورة ، وما على القارئ - وهذا مثل واحد نضربه - إلا أن يتأمل فى وصف القدمين : " ويمثل ذلك قدمان ، كحذو اللسان ، تبارك الله مع صغرهما كيف تطيقان حمل ما فوقهما " فاني لا أعرف لذلك نظيرا إلا قول فكتور هيجو : " كانت تسير الى جانبي وقدمها الفتاة تسخر بصغرها من الأقدار وتضحك بجوار قدمي ! " .

Et de sa petitesse étalant l'ironie
Son pied charmant semblait rire à côté du mien.

فأخلق بنا أن نرجع بلغتنا الى ذلك النبع الصافى الأول وأن
ننبذ البديع والتكلف والأطناب وما شاكلها من ضروب البسالة
الكاذبة التى جاء بها أئمة الكتاب فى العصور المتأخرة .

ويمحسن بنا أن نرجع الى الأغانى قبل أن نرجع الى الجاحظ
أو الهمزاني ، وأن نفتش عن كنوز اللغة والأدب فى صهاريج العرب .

الاهرام فى ٢٧ يولييه سنة ١٩٢٣

القديم والجديد

سیدی صاحب لیالی رمضان

وضعتنی فی زمرة أنصار الجدید وليس لی أن أنقض حکمک
وقلمک ینم عن أدب جم . وإنی مع احترامی للقدیم وأنصاره
أستأذنک فی تحدید معنی القدیم والجدید حتی یكون القارئ
على بینه .

القدیم درجات والجدید درجات ، ولكل منهما أنصار یختلفون
أذواقا ، ولكن ليس من الیسیر أن نفضل بینهم ونجعل منهم
طبقات تحمل ألویة مختلفة .

وأعرف للقدیم أنصارا كالسید المرصفی وغيره لا یحسون بجمال
غیر جمال الشعر العربی القدیم ، فاذا ذكرت لهم شعر العباسیین
والمحدثین لم یطربوا له ، وكأنک تنادی منهم صخرة لا تحركها الأثرید .
وأعرف للجدید أنصارا كالریحانی وغيره من أصحاب
"الفلسفات" و "الطیارات" نتجلی العجمة والركاکة فی أسالیبهم
التي تشف عن سقم الخیال والمعانی وهی ماثلة كالهیکل العظمی .
إن كان هذا ما یقصد بالقدیم والجدید فلیست من أنصارهما .

وإن كان المقصود بالقديم أن نرجع بالشعر والكتابة الى عصر الجاهلية ، وأن تكون أغراضنا في الأدب أغراض القدماء ، نبكى على الدمن والأثافي ، ونستوقف الركب ، ونمدح ونهجو ، ونشكو الزمان فلسست من أنصار القديم ، ذلك لأن لكل عصر أغراضا وأساليب يتجلى فيها طابع العصر ، وقد نتشابه العصور في جواهرها ، وكيف لا نتشابه والانسانية لم تتغير ، وما زال الكاتب والمصور والمثال ينشدون المثل الأعلى للحقيقة والجمال .

ولكن قبل البحث عن هذا المثل الأعلى لا بد أن يرجع الكاتب أو الشاعر في طور التكوين — وقد كان هذا رأى البارودى رحمه الله — الى القديم يقتله بحثا ثم ينحت بعد ذلك من صخره دمية ساحرة .

وفي القديم من الشعر والكتابة آيات قد لا يجود بمثلها الدهر ، وهل هناك شعر غنائى أصفى جوهر او أقل كلفة وتعملا من الشعر القديم الذى كان يرتجله الأعرا بى من فوره حرا طليقا في فضاء حر طليق فتتحرك له أوتار القلوب وتهتزله القبائل طربا .

أما الكتابة فمن شاء فليرجع الى الأغاني أو العقد الفريد أو زهر الآداب ليرى كيف كانت بلاغة العرب الأولين فريدة في إيجازها ودقة التصوير ، وحسن الانسجام ، خالية من البديع والتكلف

والاطناب التي أفسدت اللغة في العصور المتأخرة مع أن الإيجاز
أول أغراض الكتابة في البلدان الراقية وبه يمتاز كبار المؤرخين
الحديثين وتفاوت أقدارهم .

فلنرجع إذن باللغة الى ذلك النبع الأول ، ولن يمنعنا ذلك
من انتقاء اللفظ الذي يلائم العصر ويجرى في سلك الكلام لا نافرا
ولا حوشيا .

قلنا إن القديم والجديد قد يتفقان جوهرًا ، ولكن لكل عصر
شخصيته ، وكل شخصية تحمل في طياتها القديم والحديث ، وهؤلاء
شكسبير وموليير وجوت قد سمو سموًا واحدًا في تصوير المجتمع
رغمًا من اختلاف العصور والبلدان ، ولكنك اذا نظرت الى كل
منهم على حدة ، وفصلته تفصيلًا ، تجلت لك الرابطة القوية التي
بينهم وبين الجيل الذي عاصروه ، ورأيت في تصويرهم أشخاصًا
عاشوا معهم ولكنهم أحياء في كل جيل رسمتهم ريشة مصر ماهر
فأبدع في صنعته تلك الوجوه التي تعرف فيها الانسانية جمعاء .

وهؤلاء شوقي والبحترى والمتنبى يسمون سموًا واحدًا في تصوير
العواطف البشرية ، ولكنهم يختلفون في أساليبهم ومناحيهم لأن
كلا منهم يختلف عن الآخر في البيئة والوسط ، وهل يصلح اليوم
أسلوب شكسبير ، ومديح البحترى ، أو هجاء المتنبى ؟

على أن الأديب الناقد يرى في كل شاعر عظيم صورة من صور الجمال ان لم تمل نفسه اليها فليس أقل من أن يوفيهما حقهما إجلالا ، وقد أخطأ من قال : "هل غادر الشعراء من متردم" فان الذكاء البشرى لا ينفد وان تباينت أشكاله بتباين الأزمنة والأفراد والجماعات .

ولو أمكن طائفة من الناس أو أمة من الأمم الاستئثار بالذكاء والتفرد بالنبوغ في جميع أطوار حياتها لاختل نظام هذا العالم ، وما أصدق الباحثرى الذى يقول :

لولا التباين فى الطبائع لم يقيم
بذيان هذا العالم المحبول

فلكل فرد ، ولكل أمة ، ولكل جيل شخصية يجب أن تظهر فى أعماله وآثاره . ولكل فرد ، ولكل أمة ، ولكل جيل مثل أعلى فى الحياة .

وقد نتجلى الشخصية فى التجديد الحر الذى يتلاءم مع الذوق السليم .

ويحسن بكل أديب منا فى حياته الأولى أن يدرس الأدب العربى القديم والأدب الغربى الحديث درسا وافيا يهذب ذوقه ويهيئه للابتكار والتجديد .

وقد قطع بعض المعاصرين من أئمة البيان شوطا بعيدا في هذه السبيل ولكننا ما زلنا بعيدين من الغاية .

فلنجدد فان في ذكائنا ، وفي لغتنا وآدابنا ، وفي أرضنا كنوزا دفينه لم تهتد العبقرية اليها فتخرجها لنا سبائك من الذهب المصفى .
ولنجدد فان في التجديد مظهر من مظاهر الشخصية القوية ومعنى من معانى الحياة .

السياسة في ١٦ أبريل سنة ١٩٢٥

الى أى طريق نحن مسوقون

مهزلة فى مآثم

وهل يقيم المآثم إلا الرجل الحرّ بينما نرى بأعيننا المهزلة القائمة فى مصر بلد العجائب ، كما يقول هيرودوت ، وبلد المضحكات كما يقول المتنبي ، ولكنه ضحك كالبكا ، حالة تملأ النفس أسى فلقد أصبحنا نشاهد كل يوم وفى كل آونة ممثلا جديدا ، وفصلا جديدا ، وشاهدا جديدا ، وبين هذا وذاك المصنفق المأجور .

وقد يظهر هذا المثل تارة فى صورة سياسى ، وتارة فى صورة أديب ، وتارة فى صورة صحفى . وكل منهم من الأثواب المستعارة ما لا عدد له ، ضاحك لعوب والبلاد فى محنة .

ولقد يدور الانسان بعينيه فى هذا السواد الأعظم فلا يرى إلا الفوضى السياسية والخلقية والعلمية ضاربة أطناها فى جميع مظاهر الحياة .

ولست أريد أن أتعرض للسياسة إلا من الوجهة الاجتماعية البحتة ، فقد تقلبت على مصر المحن فى هذا العصر الأخير ، ورأت فيه على قصره العجب العجيب ، ولو طلب الى مؤرخ أن يصف حكومتنا

في الطور الذي أعقب ثورة سنة ١٩٠٤ ، وان يجتدد بالدقة شكلها ونوعها كما يجتدده الواقع لحار في أمره ، فقد خضعت في وقت من الأوقات لحكم الدكتاتورية المستترة أو غير المستترة ، وخضعت لحكم الأقلية ، وخضعت لحكم الأكتثرية ، وقد كان هذا الحكم في بعض الأحيان أقرب الى الديمقراطية منه الى الديمقراطية ، واتفق أن اجتمعت هذه الأشكال في وقت واحد في حكومة واحدة ، وكانت هذه القوى المتجاذبة حول الدستور كالوصى الذي يأكل مال اليتيم ، أناس يهزلون وخلف الستار يجحد المجد .

هذه المهزلة السياسية يمثلها السياسي المصري ، وإذا كانت الرجال توزن بأعمالها ، والأعمال بنتائجها ، فقد عرفنا الدور الذي لعبه ذلك اللاعب ، وعرفنا كيف يضعه بمصالح بلاده في سبيل المصالح الخاصة ، وكيف يثبت على مبدئه ، ويتنقل من حزب الى حزب ويابس لكل حالة لبوسها .



وللأدب مهزلة وأى مهزلة : كل من ترجم كتابا في التاريخ صار مؤرخا ، وكل من ترجم كتابا في الفلسفة صار فيلسوفا ، وكل من كتب كتابا في الأدب صار أدبيا عالما ، وقد يرجع ذلك الى أن الموازين والمقاييس التي توزن بها أعمال الرجال قد خضعت

فى مصر للآهواء فانقلبت وسط المهزلة ، ويظهر أن نفسية الشعوب — وبالأخص الشعب المصرى — طفلة سريعة التأثر والتحول من الضد الى الضد ، وهذا ما جعل كثيرين من كتابنا لا يعبأون بالرأى العام ولا يحسبون له حسابا .

ولكن الذى نأسف له أن الكتاب أنفسهم ورجال السياسة يتأثرون بما يكال لهم من مديح — لو غربانه كان ملقا — ويتوهمون أنهم بلغوا عليا مراتب الأنبياء فيتيهون فى الأرض صلفا .

والواقع أن الخبيرين بالكتابة والبحث والشروط العلمية التى يجب أن تتوفر فيها ثلاثة أو أربعة ، على الأكثر فى مصر ، وقد ألف بعض كتابنا المعدادين رسائل وكتبا مختلفة فى مواضيع شتى أعجب بها الجمهور والأدباء ، ولكنك لو نظرت اليها من وجهة البحث العلمى ألفتها جوفاء مزوقة ، ذلك أننا لم نتعود عناء البحث والغوص على اللباب ، وقل أن تجد فى مصر من فى مقدوره الحكم على كتاب حكما صحيحا ، والتميز فى الأدب بين الكتاب السطحي والكتاب العلمى .

فأخلق بمن يتصدون للأدب أن يعلموا أنه فن صعب وطويل سلمه ، فلقد صار كل من يستظهر شيئا من المنشور والمنظوم زينة المجالس وأديبا يشار اليه بالبنان .

ومن عجائب هذا البلد أنه لا تكاد تتألف فيه جمعية تاريخية أو أدبية حتى يحتل المكان الأول فيها أصحاب الأبهات لا الأخصائيون "أصحاب المصالح" الحقيقية فيها .

ومن عجائب هذا البلد أنك لا تجد عالماً يعترف بالفضل لعالم أو أدبياً يعترف بالفضل لأديب ، وإذا وجد إجماع أو شبه إجماع على الاعتراف بمنزلة رجل في العلم أو الأدب انبرى له من ينال من شرفه وكرامته بالطعن في شخصيته واختلاق الأكاذيب عليه .



وللصحافة مهزلة وأية مهزلة ، وحسبك أن تلقى نظرة واحدة في الصحف المصرية لترى عجباً ، كلها تطن بالشتم والطعن بجميع أساليبه ، فكل صحيفة تطعن في حزين أو ثلاثة وفي طوائف وأفراد لا عدد لها ، وتراها ينهش بعضها بعضاً .

وقل أن تجد صحفياً يدين بمبدأ فهو يتلون تلون الحرباء بين بياض نهاره وسواد ليله وهو في معظم الأحيان ، وله العذر ، يضطر إلى مجارة الرأي العام في كثير من آرائه وأهوائه ، وهو إما يضلل بالرأي العام أو يضلل الرأي العام به طوعاً أو كرهاً ، وهو على أية حال كالخطيب والسياسي يستند إلى الرأي العام في مهنته والرأي العام ، كما قال لامرأتين ، بغى لا وفاء لها .

وليس أشد إيلا ما للنفس من إندماج بعض من لا خلاق لهم
فى زمرة الصحفيين الذين جعلوا أمناء على الأمة ومصالحها ، ولكن
قدّر لكل مهنة فى مصر أن تلقى ، وقدّر لكل رجل عامل أو مصالح
أن لا يسلم من الأذى .

الواقع أننا هازلون وسيسدل الستار على مأساة .

الأهرام فى ٣ أكتوبر سنة ١٩٢٥

البنون والحياة الدنيا

من أمير الشعر الى رئيس تحرير السياسة
يعزّيه في فقد ابنه

الضلوع نتقد	والدموع تطارد
أيها الشجي أفق	من عناء ما تجدد
قد جرت لغايتها	عبرة لها أمد
كل مسرف جزاء	أو بكى سيقصد
والزمان سنته	في السلو يجتهد
قل لثاكين مشي	في قواهما الكمد
لم يعاف قبلكما	والد ولا ولد
الذين ميل بهم	في سفارهم بعدوا
ما علمتا أشقوا	بالرحيل أم سعدوا
انـ منزلا نزلوا	لا يرد من يرد
كننا اليه غدا	ليس بالبعيد غدا

البنون هم دمننا
لا تلد مثلهمو
والحياة والورد
مهجة ولا كبد

ليستون واحدهم	في الختان والعدد
زينه ومصاحه	واستراحة ودد
فتنة اذا صابحوا	محنة اذا فسدوا
شاغل اذا مرضوا	فاجع اذا فقدوا
بحرحهم اذا انتزعوا	لا تلمه الضم
العزاء ليس له	آسيا ولا الجلد



قل لهيكل كلب	من ورائها رشد
لم يشب مذهبها	باطل ولا فسد
قد عجبت من قلم	ثاكل وينجبرد
أنت ليث معركة	وهو صارم فرد
والسيوف نخوتها	في الوطيس نتقد
أنت ناقس أرب	والأريب ينتقد
ما تقول في قسدر	بعض سنه الأبد
وهو في الحياة على	كل خطوة رصد
يعثر الأنام به	ان سعووا وان قعدوا
ينزل الرجال على	حكمه وان جحدوا
القضاء معضلة	لم يحلها أحد

كلما نقضت لها عقدة بدت عقد
أتعبت معالجها واستراح معتقد



عالم مدبره بالبقاء منفرد
من بلى كوائمه كائناته الجدد
لا تقل به إدد ان حسنه الإدد
تلتقي نقائضه غاية وتتحدد
الفناء فيه يد للبقاء أو عضد
إتلافه رشد واختلافه سدد
جد في عمارته منصف ومضطهد
ذو الغنى لخدمته كالفقير محتشد
وهو في أعتسه ممعن ومطرد
والحياة حنظلة في حروفها شُرد
هيكल الشقاء له من مدامع عمده
قامت النعوش على جانبيه والوسد
عرسه ومأتمه غايتاهما نفد
(شوقي)

٢

النقد

الموضوع — عزى شوقي صديقه هيكـل فى فقد ابنه ،
وما كان الموضوع جديدا ولكن الموقف أكسبه جلالا وروعة .
كلاهما يحمل قلبا كبيرا يفيض عاطفة وان كان يخاله الرأى معرضا
عن الدنيا وآلامها .

على أن هذه العاطفة سرعان ما تتحول الى فكرة تسمو بصاحبها
فوق هذا العالم وهمومه ، ولعل هذا منشأ الأعراض البادى على
الرجلين ، ومصدر هذه الابتسامة التى تعلوهما فيحسبها الناظر تهكما
وما هى بالتهكم ، ولكنها ابتسامة مفكر مجرب خبر الأيام وذاق حلوها
ومرها ، ونقشة مصدور .

وقد عرف الشاعر فى هذه القصيدة كيف يعزى صديقه ،
نحاطب منه الناحية «الحساسة» ناحية الفكر ، وعرف بأسلوبه
الفلسفى الرائع كيف يهون على صديقه مصابه فى ولده إزاء مصاب
بنى الدنيا ، ثم سما به على جناح الفكرة الى أعلى سماء .



هذه القصيدة في قصر ببحرها واطراد رويها صورة من صور
الحياة العاجلة، وقد أثبت شوقي أنه فنان مبدع أطال أو أوجز فاذا
قال :

بسيفك يعاوا الحق والحق أغلب وينصر دين الله أيان تضرب
أو :

همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء
رأيت أهرا ما في جلالها وروعها .
واذا قال :

نجما وتمائل ربانها وزف البشائر ركبانها
أو :

حف كأسها الحب فهي فضة ذهب
أو :

الضامع تتقد والدموع تطرد

رأيت تماثيل صغرى في جماها وفتتها .

وهذه القصيدة الأخيرة آية من آيات أحمد شاعر الجلال
والجمال وناحت القوافي من خير مقطع .

وقد امتاز شوقي في هذه المراثية بوجه خاص ببناء موضوعه
بناء محكما وحسن تقسيمه ، ولم تكن عنايته بالمواد أقل من عنايته
بالشكل .

كانت سنة العرب في أغلب الحالات قصر اهتمامهم على
المطلع الذي هو باب القصيدة ، وكانوا يبنون قصائدهم بناء صناعيا
مفككا ، يستقل فيه البيت عن البيت ويرتبط فيه المديح بالنسيب
ارتباطا ظاهرا فطن اليه الباحثون فأهمله :

وثبا كوثب البحترى من النسيب الى المديح

ولكن شوقي يقيم قصيدته كلها على أساس من الوجدان الصادق
والفكرة الواسعة العميقة التي تربط الموضوع ربطا محكما في جزئياته
وكلياته .

قسم شوقي هذه القصيدة الى أربعة أقسام يشد بعضها بعضا :

في القسم الأول — ويحتوى على أحد عشر بيتا — تعزية

الصديق للصديق :

الضلوع تتقد والدموع تطرد

أيها الشجي أفق من عناء ما تجد

... ..

وفي القسم الثاني تعزية الوالد للوالد :

البنون هم دمننا والحياة والورد

لا تسلد مثلهمو مهجة ولا كبد

... ..

وفي الثالث تعزية الأديب للأديب أو تعزية الشاعر الحكيم

للكاتب الحكيم :

قل لميكل كلما من ورائها رشد

لم يشب مهنديها باطل ولا فند

قد عجيبت من قلم ثاكل وينجرد

... ..

ما تقول في قدر بعض سنه الأبد

... ..

وفي الرابع تعزية الانسان للانسان في فناء هذا العالم المتقلب :

عالم مدبره بالبقاء منفرد

من بني كوائنه كائناته الجدد

... ..

وقد أظهر الشاعر في أرق ديباجة احساس الصديق والوالد

والحكيم والرجل .



يلاحظ أن شوقي قدّم في البداية العزاء لصديقه (أيها الشجي أفق) ثم سمّت به العاطفة وأدبه العالى فقال :

قل لنا كين مشى فى قواهما الكمد
لم يعاف قبلكما والد ولا ولد

وكأنى بالشاعر فى هذا الموقف أحس وحشة الموت فى بنى الدنيا ، وقد مضت قرون نسائل الموت عنهم فلا يرد جوابا ، فصاح جازعا :

الذين ميل بهم فى سفارهم بعدوا
ما علمت أشسقوا بالرحيل أم سعدوا
ان منزلا نزلوا لا يرد من يرد

ثم انتبه وذكر أنه فى موقف عزاء فقال :

كانت اليه غدا ليس بالبعيد غد

بهذا البيت ينتهى القسم الأول من قصيدة شوقي ، وعنده تهادى النفس كما تهادى فى أعلى الرجب .



استطرد شوقي فى القسم الثانى الى ذكر البتين والعاطفة الأبوية التى تحوطهم ، ولعل أحسن تصوير لهذه العاطفة قول الأعرابي :

ولمّا أولادنا بيننا أبكادنا تمشي على الأرض
 إن هبت الريح على واحد امتنعت عيني من الغمض
 ولكن شوقي ، وهو خير والد ، فصل هذه العاطفة تفصيلا
 يصوّر الحقيقة التي يحسها كل أب فقال :

لا تلد مثلهمو	مهجة ولا كبد
فتنة اذا صاحوا	محنة اذا فسدوا
شاغل اذا مرضوا	فاجع اذا فقدوا
بحرحهم اذا اتزعوا	لا تلمسه الضمد
العزاء ليس له	آسيا ولا الجلد

وقد امتاز شوقي في كثير من مراثيه بتصوير الحقيقة والاشارة
 بلطف الى حالة خاصة تزيد الشعر رونقا وجمالا لأن الشاعر
 يكشف لنا عن ناحية من نواحي الحياة التي ترخي الستور عليها ،
 من ذلك قوله في رثاء صديق له توفي عن بنات كثير ... وقد دعاه
 الموقف الى ذكر فضل النساء :

الباقيات حين ينقطع البكا والذاكراتك بالعراء النائي

وقوله في المرحوم عبد الحى المغنى وقد ترك أما شيخة كان
 يعولها :

كسرت عصاها اليوم فهي بلا عصا
ومضى فتاها الأجود المسماح
ويعجبني من شوقي أن ولعه بالحقيقة المعنوية لا يقل أحيانا
عن ولعه بالحقيقة الماثلة أمام أعيننا ، وهل أدل على ذلك من
صراحته اذ يصف الجرح الذي يتركه بفقدته الابن الراحل :
العزاء ليس له آسيا ولا الجسد
وهذا ولا ريب من خير أنواع التعزية .



أخذ الشاعر الحكيم بعد ذلك يدعو صديقه الكاتب الحكيم
الى التفكير فى القضاء الذى لا مرد له ، ولكنه مهّد لذلك بالثناء
على شجاعة صديقه الذى لم يحل هول المصائب بينه وبين قلمه :

قد عجبت من قلم ثاكل وينجرد
أنت ليث معركة وهو صارم فرد

وصف القلم بالصارم والشجاع بالليث من الأوصاف القديمة
التي تعلق بالشعر الحديث ، وهى من بقايا القديم التي يسميها الأفرنج
(Réminiscence) وقد تأتى عفوا ويصعب التحرر منها ولذلك
تجدها عند أكبر الشعراء المحدثين فى الغرب .

أجاد شوقي في قوله بعد ذلك :

أنت ناقد أرب	والأريب ينتقد
ما تقول في قدر	بعض سنه الأبد
وهو في الحياة على	كل خطوة رصد
يعثر الأنام به	إن سعوا وإن قعدوا
يسزل الرجال على	حكمه وإن جحدوا

ولكن شوقي أبدع في قوله وقد بسط جناحيه واستعرض
معضلة القضاء :

القضاء معضلة	لم يحلها أحد
كلما انقضت لها	عقدة بدت عقد
أتعبت معالجها	واستراح معتقد

صوّر شاعرنا في هذه الأبيات الثلاثة موقف الفلاسفة والشعراء
على اختلاف عقائدهم أمام معضلة القضاء منذ القدم ، ولا ريب
أن لكل شاعر حالتين : حالة شك وحالة يقين ، ومهما بلغ إيمان
الشاعر فان في الحياة ساعات يتمنى الموت فيها لأن تجارب الحياة
تحتوى المتر في قراراتها .

ويلوح لى أن يقين شوقي يغلب على شكه لأن العقيدة الدينية

متمكنة من فؤاده ، وهو في معظم شعره كثير الايمان يجد فيه ظلا
وراحة وسلوى .



ينحيل الى أن الشاعر بعد أن حلق في سمائه وقلب معضلة
القضاء على وجوهها فلم يهتد الى حل لها هبط الأرض ثانية ونظر
في هذا العالم نظرة فيلسوف فقال ، وكأني أسمع منه صوت أبي العلاء :

عالم مدبره	بالبقاء منفرد
من بلى كوائنه	كائناته الجدد
تلتقي نقائضه	غاية وتحدد

لا ريب أن التناقض الذي يبدو في جميع مظاهر الحياة دقيقتها
وجليلها مما يسترعى الذهن

ومن مليح التصوير قول شوقي في هذا المقام :

الفناء فيه يد	للبقاء أو عضد
---------------	---------------

ومن دقيق التصوير :

الحياة حنظلة في حروفها شمد

وقد انتهى بشاعرنا المطاف الى صورة من صور التناقض
تعرض لنا كل يوم في هذه الحياة الدنيا ويراها الشاعر في "هيكل
الشقاء" :

هيكل الشقاء له من مدامع عماد
 قامت النعوش على جانبيه والوساد
 عرسه ومأتمه غايتها نفاذ

بهذه الصورة الملموسة الرائعة التي خلعت الحقيقة عليها جمالها
 ختم شوقي قصيدته وقد نزلت الحكمة من أبياتها منازل الأقدار
 فكانت عزاء ورحمة للشاكين .

السياسة في ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٢٥

٣

نقد الأمير شكيب

نشرت "كوكب الشرق" الغراء المقال الآتي بتاريخ ٢٧ يناير سنة ١٩٢٦ لأمر البيان الأمير شكيب أرسلان نشرها اتماما للفائدة:



لا يقال في شعر شوقي "هذا أحسن من هذا" فكله نسج واحد وكله نسيج وحده، وما أحرأه بهذا الأثر الشريف - والله المثل الأعلى - وهو أنه كالغيث لا يدرى أوله خير أم آخره؟ أو هو كماء المزن لا يقال فيه هذا أصفى من ذاك .

وانما تلهج الألسن بجديد شوقي أكثر من قديمه، لما في الجديد من الطلاوة لا غير، فلهذا ملهج الألسنة اليوم قصيدة شوقي في توت عنخ آمون التي وان كانت مما لا يخلق جدته المملوان، تبقى حديث الأندية وموضوع المسامرات ولا يزال انشادها فاكهة مجالس الأتس، ونقلها نقل الندامى اذا دارت الكأس، الى أن يأتى شوقي بجديد غيرها، ولا يحىء إلا ببدع ولا يظهر إلا بفد .

وكذلك تعزيتة لحسين بك هيكل في وحيدته كانت وحيدة في بابها، وقد رأيت لها وصفا شائقا في "السياسة" تحت إمضاء

”محمد صبرى“ ، وفاها فيه حقها من التنبيه الى الرقائق ، والتنويه
بالجلائل من الدقائق ، بحيث لا احتاج أن أضيف الى ذلك شيئاً ،
وانما لا يمكننى إلا أن أردد إعجابى بما فيها من الفلسفة العليا لا سيما
عند قوله :

عالم مدبره بالبقاء منفرد
من بلى كوائمه كائناته الجدد

ما رأيت من يجمع التوحيد الى الفلسفة فى شعره مثل شوقى ؟
ولو كان أبو العتاهية حياً لبكى وناح ، أكثر مما له عادة أن ينوح
ويبكي ، على كون شوقى جاء بمثل قوله :

الذين ميل بهم فى سفارهم بعدوا
ما علمتما أشقوا بالرحيل أم سعدوا
ان متزلاً نزلوا لا يرد من يرد

المرحوم أبو العتاهية مع نبوغه فى الوعظ وعبقريته فى ذكر
ما وراء الحياة والبعث ، لم يأت بأحسن من هذا فى زهدياته مع
أنه كان لا يجيد هذه الاجادة المستولية على الأمد إلا فى هذا الباب
وحده ، وشوقى يجيد فى كل باب

وانى لأبى العتاهية أن يقول عن الأولاد :

فتنة اذا صلحوا محنة اذا فسدوا

شاغل اذا مرضوا فاجع اذا فقدوا
بحرحهم اذا انتزعوا لا تلمه الضممد
العزاء ليس له آسيا ولا الجلد

فان فيه فصاحة لغة أبي العتاهية ودرره في العربية ، ويزيد
عليه في المنزع العصري والشعر العملي عند قوله :

شاغل اذا مرضوا فاجع اذا فقدوا

لم أعب من هذا البيت إلا ضعف لفظتي ”شاغل“ و”فاجع“
وأنهما صارتا مبتدلتين من كثرة الاستعمال ، ولو أنه قال :

شاده اذا مرضوا محرق اذا فقدوا

أو شيء آخر أقوى من شاغل وفاجع اللذين فلهما طول
الضراب لكان أحجى .

وان كل وصف يقتصر دون بلاغة قوله ”اذا انتزعوا“ كأن
فقدهم أشبهه بالافتطاع ، لا تأخذه المنية من أيجاد الآباء إلا
بالكلاليب أو المناقيش ، وما أطف قوله بعد ذلك ”لا تلمه
الضممد“ ان هذا هو القول الذي تنقطع دونه الأعناق كما قيل ،
ومثل هذه البلاغة الشافية لما في كل نفس قوله في القدر :

يعثر الأنام به ان سعوا وان قعدوا

ينزل الأنام على حكمه وان جحدوا

والله ان هذا هو الحق ، كما رأينا ممن يكابر في القضاء والقدر ،
 ويزعم أن ليس ثمة إلا خطأ وصواب ، أو نقص وكمال ، وتأني عليه
 أحداث لا يقدر أن يعالجها إلا بقوة غير منظورة أو غير منتظرة ، فيخر
 أمامها ويعنو صاغرا ، وتضيق عليه وجوه التعليقات الأخرى ،
 ولو نشر المتنبي لتمنى هذين البيتين لنفسه وكان بهما نخورا .

وأما الآية الكبرى التي جمعت فأوعت فهي قوله :

القضاء معضلة	لم يحلها أحد
كلما نقضت لما	عقدة بدت عقد
أتعبت معالجها	واستراح معتقد

وهل حل مسألة القضاء أحد ؟ أفليس كلما أتى فريق من
 المتكلمين بوجه رأيت عليه اعتراضا لا تقدر أن تحتقره ؟ أفليس
 الاعتقاد هو الراحة لمن آمن بإيمان العجائز ؟

ولكن شوقي عوذ محاسن هذه القصيدة التي لا تجارى بهفوة
 فقال :

هيكل الشقاء له	من مدامع عمده
قامت التعوش على	جانبيه والوسد
عرسة ومأتمه	غائتاهما نقد

وقد أطنب صبرى فى استلطاف هذه الأبيات التى ختم بها شوقى قصيدته ولكن فات شوقى وصبرى أن جملة "هيكل الشقاء" غير مناسبة هنا نظرا الى أن القصيدة موجهة الى رجل اسمه "هيكل" وهو من الأدباء الألباء ، ومن الأخلاء لشوقى الأحباء .

وما عدا ذلك فالقصيدة درة فى تاج الشعر والادب .

برلين فى ١١ يناير

شكيب أرسلان

المصري غريب في بلاده

كلما أجلنا النظر في هذا السواد الأعظم اسودّ الظنّ وتسرب الشك الى اليقين ورأينا شعبا يعامل معاملة الغريب ، يطالب بحقوقه فلا تردّ اليه ولكن تمنح له ، وتمنح بقدر ، ويحسب حساب لمصالح الغير قبل مصالحه كأن الدار ليست دار أبيه وجدّه فهو غريب الديار .

ومما يزيد هذا الشعور وحشة عند المصري أنه بينما يجد شعوب الأرض جمعاء بينها وبين بعضها والبعض الآخر صلة مصلحة أو جوار أو رحم أو حلف أو دين أو عصبية أو عطف نرى شعب مصريين الشعوب غريبا اذا نهض تألبوا عليه وأوقعوا من يده لواء النهضة في المشرق .

وأخلق بهذا الشعور أن يشدّ من عزائمتنا ويخلق لنا من الاعتماد على النفس قوّة ، ويظهر نفوسنا من كل درن ، ولكن البلية أن المصري غريب في بلاده ، لا لأن الأجنبي فيها الأمر الناهى ، ولكن لأن المصري فيها غريب عن المصري .

وانك لترى بين المصرى والمصرى هوة تتكشف عنها أخلاقنا
رغما مما بيننا من أواصر الذكريات والدين واللغة والجنسية .

وانك لتجد المصرى غريبا حتى عن نفسه كأنما صور من
"طينات" مختلفة، غريب الأطوار، متباين الطباع : وقد تعاشر
الفرنسى أو الانجليزى فتفهم أخلاق الفرنسيين أو الانجليز، وتصل
الى أغوار نفسياتهم ، ولكك تعاشر المصريين فيستعصى عليك أن
"ترك كنه مصرى واحد .

واذا كان لك صديق عاشرته زمانا ، وظننت أنك استبطنت
أمره ، وعرفت دخليته ، وامتزجت نفسا كما امتزج الماء بالماء
انقلب عليك وقد أمتته ، ووثقت به ، وعشت من أخلاقه
فى ظل ظليل .

ذلك أن المصرى كتلة أضداد تجمع بين الوفاء والغدر، والشجاعة
والجن، والحرص والكرم، وحب الماديات والتعلق بالخيالات،
سريع التنقل من النكتة اللطيفة التى تفرج عن النفس الى
التهكم المر الذى ينضح بالحقد ، ميال الى المصافاة ولوع بالتزاع
والتقاضى ، غريب فى أطواره يأتى بالخسيس وقد يأتى بالمعجز
كالبحر ينطوى على الدرّ وتعلو فيه جيفة .

وإذا كان المصري غريباً عن نفسه وفي نفسه غريب
في أسرته ، لأن الأسرة مفككة يقيم الجهل بين أفرادها حجاباً كثيفاً
فترى الهوة بين الرجل وزوجه ، والأب وبنه ، لا تربطهم إلا صلة
واحدة ، صلة الرحم .

وبينما نجد الرجل في الغرب يلوذ ببيته من المجتمع فيجد فيه
راحة وسلاوى ، وعزاء من هموم الحياة ومتاعبها ، يجد المصري
مشاكل الأسرة في بيته تحول ظلمة لفحات ، وتنغص عليه عيشته ،
فتراه يسم عن باطن متجهم ، ويتنقل بين المجتمع والبيت كمن
يتنقل بين الرمضاء والنار .

والمصري غريب في بيئته إذا سار نظروا إليه نظر العدو الى
العدو وسلطوا عليه الألسنة ، وإذا جلس يتحدث الى قوم كالوا له
الثناء بالمكيال ، فاذا فارقه ذقوه بالحق وبالباطل .

ولا نكاد نجد هيئة في مصر إلا وبين كل فرد وآخر هوة ،
وترى الهوة بين الهيئات المختلفة ، وتراها بين الجيل القديم والجيل
الجديد ، وبين المتعلمين وأنصاف المتعلمين ، وبين المتعلمين بعضهم
وبعض .

ولله ما أشقى المتعلم في مصر ، وما أشقى الحر ! يرى المتعلم بعينه

تعلّى الأسافل وارتفاح "السطحيين" الى مراتب الكتاب والعلماء
والمؤرخين والفلاسفة والوطنيين والأساتذة وهم يغمرون الحقيقة
بشهرة كالتبيل الأجوف .

ويرى الحزب بعينه كيف يعلو الملق والرياء والتلون أحيانا
بأصحابه على كل عامل نزيه يؤدى واجبه فى صمت واحتشام وكيف
تفسد المبادئ وتستر فيها الأغراض .

وقل أن تجد إدارة مصرية أو معهدا مصرية إلا وقد اتسعت
مسافة الخلاف بين رؤسائه على حساب المصلحة العامة ، هذا يدس
لذلك ويؤلب عليه حزبا معينا ، أو طائفة معينة ، أو نفرا من مرءوسيه ،
واننا لنجد معظم الموظفين ، الذين صارت مرتباتهم ثقلا على خزانة
الدولة ، يقضون معظم أوقاتهم فى الدس أو القضاة على الدسائس
المحيطة بهم ، بدلا من التفرغ للمصلحة العامة والتفكير فيها .

وقل أن تجد مصرية يثق بمصرى ويعتقد فى كفايته ونبوغه
فاذا أتى يبحث طريف أو فكرة جديدة اتهم فى أدبه ، ولكننا نحنى
إجلالا أمام "القبعات" ولو كانت الرؤوس التى تحملها خاوية .

ثم تريدون بعد ذلك أن يحترم الأجنبي قوما متخاذلين ، غرباء
عنه وعن أنفسهم ! ثم تريدون أن نحفظ بشخصيتنا وكياننا !

لقد حقت كلمة الأفغانى "اتفق المصريون على أن لا يتفقوا"
ولكننا رغما من ذلك لا نريد أن نستسلم لليأس فإن مصر اليوم
فى طور من أدق أطوار الانتقال ، ولانتقال فى كل أمة عيوب
ومساوى لا بد من تحملها .

إن الانقلاب الحديث تناول جميع مظاهر حياتنا الاجتماعية ،
وإذا كنا الآن نعانى منه ما نعانى فلا بد من وقت يصفو فيه الخلق
المصرى الذى يستند الى أعلى ذكاء ، ولا بد من وقت تأخذ
الكفايات المصرية المنزوية الآن فى كرامتها ، وما أكثرها ، مكانها
فى الصف ، وتهبط الى الدرك القوى الصاخبة التى لا وزن لها .

ولكن يجب علينا عاجلا أن ننظر الى موقفنا الدقيق نظرة تحيط
بالحقائق ، وأن نفتش عن عيوبنا وأمراضنا الاجتماعية فنعمل على
مداواتها .

فقد آن أن نهض من غفلتنا حتى لا يأكلنا آكل ، وأن نقصر
مسافة الخلف بيننا ما استطعنا فنحن أمة ، ولا حياة لأمة اذا لم يقيم
بنيانها على أساس من الخلق المتين .

وفاة كازانوفنا

انتزع الموت من الجامعة المصرية علما من أعلامها فشككت
في شبابها ، وهى أحوج ما تكون الى النصر والتأييد .

وقد رأيته أمس وهو جثة هامدة يعلوها الاصفرار كانه ورقة
من ورق الخريف المتساقط ، ورأيت الموت ماثلا يرفرف حوله
بجناحيه فعراني الدهول كأن الموت لم يمل قبله بحى فنام ، وكأن
هذا الرجل لم يكن أقول أمس ، وقد كان نور الحقيقة يتلأأ فى عينيه
وفى ثغره فيضىء هذا الشحوب البادى و يملؤه نضرة ونعيا .

كان كازانوفنا على خالق عظيم يعرفه كل من عاشه وخبر
طويته ، وكان مصر يحا فى الحق لا يحب فيه موارد ولا لينا ، وكان
يحمل بين جنبيه قلبا كبيرا مفعما بالحب والاخلاص ، ولكن الأسى
ضرب على أوتاره حين أحس دنو الأجل ، فكان ذلك القلب دليلا
صادقا فى ساعة الموت على إصابة المقدار رغما من تأكيد الطبيب
أن حياته بآمن .

وان مصر ليعز عليها أن يحتجب فى سمائها ذلك الكوكب
اللامع ، وأن تمجد حياة هذا الذى جاء ينفخ فيها الحياة ، وأن تمجد

هذه النسمة من نسبات الغرب . وأن يطوى الموت ناشر الحقيقة
في أرجائها .

ولكننا بنينا على الصبر ، وامتحننا الزمان بأحداثه فامتلات
نفوسنا يقينا ، وإذا كانت الأيام لا تنهانا صروفها ونوائبها فاننا
لا نهانها عزما وإقداما ، ولا نياس .

الاهرام في ٢٤ مارس سنة ١٩٢٦

